INAAM KACHACHI

إنعام كجه جي



النبيذة

رواية



إنعام كجه جي

النبيذة

روايـة


مكتبة
الفكر الجديد

هي لحظةٌ من الحياة لم تجرّبها من قبل. ولا تظنُّ أنّها ستعرفها فيما بعد. كانت جالسة في القطار، قرب النافذة، ثمّ رأت ماضيها يأتي ويرمي نفسه في المقعد المقابل. نظر، شامتًا، في عينيها وانتشلها من الرتابة ووهن السنين. هل تتجاهله أم تغيّر مكانها؟ حدّثتها نفسها أن تقوم وتتّجه صوب جرس الطوارئ وتسحب لسانه الأحمر. ستسمع صراخ العجلات وهي تحتكّ بحديد السكّة وتطلق شرارًا. تفتح الباب وتنزل وتجري على الرصيف، لكنّ عينيه كانتا تقبضان عليها وتقيّدان يديها. أرختْ جفنيها وسلّمت نفسها لنديف قطن أبيض. كان كابوسًا سببه سؤال عاديّ وجواب يبدو عاديًا. لم تستوعب، في البداية، ما قاله لها الشرطيُّ الواقف عند ذلك الباب. لكنّ عبارته أذكت جمرة خامدة مدفونة في صدرها. أثار فضولها أنّه يحرس غرفة بعينها من دون باقي الغرف في الممرّ الطويل. سألته عن المريض الراقد في الداخل، من عساه يكون وراء الباب؟

أحيانًا يحدث لنزلاء هذا المستشفى العسكريّ في باريس أن يكونوا من ضبّاط الجيش. لكنّ المرضى لا يحتاجون لشرطيّ يقف وقفة استعداد بالبزّة الزرقاء على أبوابهم. لعلّه رتبة رفيعة أو شخصية لها وزنها من دولة صديقة. سبق أن جاء للعلاج هنا ملوك ورؤساء وزعماء أحزاب. بعضهم مات على سريره هنا. أعلنوا أنّه



توفِّي في بلده وخرجت جنازته من بيته. عمليّات جراحيّة وعلاجات تجري وراء أستار، تؤدّي فيها فرنسا واجب الضيافة والمصالح لأصدقائها... أحيانًا لأعدائها. من المريض في تلك الغرفة؟ لعلّه مجرم خطير أصيب في مطاردة، أو عند استجواب فظّ، يعالجونه قبل عرضه على القاضي. يقتضي الحذر ألّا يردّ الشرطيّ على فضولها. لكنّه مهذّب لم يتجاهل السؤال. رفع يمناه إلى قبّعته يُحيّيها، كما هي العادة قبل أيّ حديث مع مواطن. مال على قامتها الضئيلة وهمس بالاسم. لا سبب لأنّ يتوجّس منها أو يشكّ فيها. سيّدة مُسنّة تغضّن وجُهها وانحنى ظهرها، تقيم في المستشفى نفسه وتتحرّك في الممرّ متعكّزة على عصا. سيُفضي لها بما أرادت معرفته ولن يعني لها الأمر شيئًا. إنّ نزيل الغرفة مريض يحتضر، كان معروفًا ثمّ ما عاد يُذكر. مضى زمانه ودخل اسمه موسوعات الأعلام. هو نفسه لم يكن يعرفه قبل أن يقولوا له إنّه رئيس جزائريّ سابق. الشرطيّ شرطيّ لا معلّم تاريخ.

هاجت خفافيش ماضيها وهي تسمع الاسم. وخزها قلبها وتسارعت دقّاته. لم تُصدّق أنّ نزيل الغرفة التي تقع في الطابق الخامس، على مبعدة أمتار من غرفتها في مستشفى فال دو غراس، هو بن بلّة. كأنّ ريحًا هبّت على روزنامة عمرها فتطايرت صفحاتها وتقلّبت عودًا على بدء. هذه ليست مُصادفة سعيدة بل جيرة شرّيرة. همس لها حارس الغرفة باللقب فتذكّرت الاسم الأول: أحمد. لا تنسى ضحاياها ولا أحبابها ومن حلّت عليهم بَرَكَتها. أعطوها صورة له وحدّدوا لها اسمه الحقيقيّ ولقبه الحركي، مزياني مسعود. قامة يصعب نسيانها، نحيلة طويلة مثل



سَروة. رأته في المكان الذي وصفوه لها. يشرب القهوة، حسب عادته، في ساعة مُحدّدة على النيل. وكان عليها أنّ تتمشّى وتتمهّل بالقرب منه. يقف ويردّ على تحيّتها وسؤالها العفويّ. تتفرّس في وجهه وتبتسم. تنصرف مثلما جاءت، عابرةً بسؤال عابر. كم كانت سنّه يومذاك؟

تاج الملوك تعرف نفسها. عاشت ثلاثة أعمار في عمر واحد، ما عادت تتوقّع مزيدًا من الأقدار والمُصادفات. لكنّ مجاورته ليست قدرًا ولا مصادفة. إنّها حساب ما فات.

عندما يُثقل الملل على الساعات والأشهر يروح ينبش في الزبالة بحثًا عن حَبّ البطّيخ. تستطيل الحياة وتتمطّى أكثر من اللازم. ثمّ تبدأ بمخالفة خطّ سيرها وتلعب بصاحبها شاطي باطي. لا أحد يعرف بالضبط ما هو الشاطي ولا ما هو الباطي. شيء يشبه العامي شامي. وهي قد غادرت سريرها لتخطوَ خطوات قلائل وتحرّك ساقيها، حسب نصيحة الطبيب، حين رأت قرين القَدَر ينتظرها في ممرّ المستشفى. بديل يؤدي المشاهد البهلوانيّة نيابة عن بطل الفيلم. لعلّها مُمثلة من دون أن تعرف. بطلة بالغصب منها. وقد حضر نائبُ القَدَر ليشمت بها شماتته الأمرَّ من السخرية.

- هل تسمح لي بالدخول دقيقة للسلام عليه؟

- ممنوع يا سيدتي. إنه في شبه غيبوبة.

تحاول أنّ تتخيّل ردة فعل شرطي الحراسة لو قالت له إنها حاولت اغتيال المريض القابع وراء هذا الباب. كان ذلك قبل أكثر من نصف قرن. جرّبت ولم يطاوعها قلبها. يراها الشرطيّ



تبتسم في سرحانها فيبتسم لها. عادت إلى غرفتها تطرق بعصاها أرض الممرّ. نجا الهدف من الموت. عاش حتّى استقلّت بلاده. صار رئيسًا للجزائر. تتذكّره بأسى ولا تحبّه. لا تحبّ حلفاء عبد الناصر. من السجن والمُلاحقات وأحكام الإعدام إلى الرئاسة. ومن الرئاسة إلى السجن. تقاليد عاديّة في تلك البقاع من الأرض. تجاوز التسعين وجاء يتعالج عند مستعمريه، أعداء الأمس. السياسة بنت كلب. غرفته قريبة من غرفتها. رئيس سابق وجاسوسة سابقة يتجاوران بسلام تحت لعنة الشيخوخة. ستجد وسيلة لزيارته. يجب أن تدخل عليه لتقول له إنه ما زال يتنفّس بفضلها. ليذهب بعد ذلك وليَمُتْ كما يحلو له.

لا أحد في هذا المستشفى يعرف حقيقتها. لكنها تعرف نفسها. ذاكرتها ما زالت سليمة لا تتلعثم. "ميمونة تعرف ربّي وربّي يعرف ميمونة". حكمة شعبيّة سمعتها من بورقيبة حين زار بغداد. قدّمها له الباشا. كانت صحافية فذهبت إليه وأجرت مقابلة معه. محام تونسيّ ثائر. جاء يطلب دعمًا لشعبه من حكومة نوري السعيد. لكلّ بلد عربيّ قضيّته ورموزه. تحقّق مُراده ونالت بلاده استقلالها. كبر المناضل الشابّ وصار المجاهد الأكبر. ليت هذا الرأس يتوقّف عن ضخّ الأسماء والسحنات. إنّ أوجاع ركبتيها تكفيها. تدور الممرّضات حولها يطلبن رضاها. زوجها كان ضابطًا ذا شنشنة. بطلًا من أبطال الحرب الثانية. يكفي أن تقول إنها أرملة سيريل شامبيون حتّى تُرفع على كفوف الراحة. يدرس الطلّاب مؤلّفاته في معاهد تخريج الجواسيس. مهنة دنيئة يفضّلون عليها تسمية الأجهزة الخاصّة. لكن هذه حكاية أخرى.



تمدّدت وقربّت مذياعها الصغير من أُذنها. تغطّي عينيها بنظّارتها الشمسية لمزيد من التركيز. تدير مِجسّاتها في اتجاه الربيع العربي. تتابع أخبار ثورة الياسمين. يعجبها الوصف ويشرح صدرها. مزاجها في الأوج. وهي لن تردّ على الطبيب حين يناديها مدام شامبيون. ستبتسم بمكر وتقول له إنّ اسمها تاج الملوك. إيرانية من بغداد. وقد يصدّقُها لأنّ سُمرتها تشفع لها. تقلّب المحطات وتتابع النشرات. الشارع يغلي في تونس. اللافتات مرفوعة في شارع الحبيب بورقيبة. طواه الموت الجبّار القادر على أكبر الكبار وظل اسمه مكتوبًا على جادّة. تراه ببدلته الصيفيّة البيضاء وحذائه ذي اللونين. أبيض وأسود. تقاطعت خطواتها معه في بغداد مثلما تقاطعت خطواته مع بن بلّة. رفض نقل شحنات السلاح من القاهرة إلى الجزائر عبر موانئ تونس. خزعبلات مجاهدين في زمنٍ فوّار. تمدّ قدميها من تحت اللحاف وتتأمّلهما. صغيرتان بأصابع قصيرة لكنّهما قطعتا جبالًا وعبرتا قارات.

جاءتها الممرضة بصينيّة العشاء وأقراص المساء. تطلب حبّة إضافية للنوم. تعرف أن عقلها لن يغفو. ستكون ليلتها طويلة لأنّ خفّاشًا انفلت من ماضيها يرقد على مبعدة ثلاث غرف من غرفتها. "وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر... تن تتام تن تتام تن تتام". تحفظ اللحن وتنسى بقية الكلام. تظهر على وجه زوجها بثور حمر وصفر حالما يسمع النشيد. حساسيّة مخصوصة بضابط استخبارات خسر المعركة. سمّوها قلاقل ولم يمنحوها شرف الحرب. حاربت فرقة الكومندان سيريل شامبيون بالبنادق والمدافع والمدرّعات، والعدوّ قاتل بأجساد رجاله ونسائه. مليون شهيد.



يُسمّيهم زوجها مليون كلب. يتعمّد أن يكون لئيمًا في شتائمه ضد العرب. كأنّه يشتمها وينتقم من نفورها منه. ظلّ استقلال الجزائر يفقأ عينيه حتّى شخر شخرة الموت.

لا تعرف مارتين شامبيون كيف انقضت تلك الليلة. تابعت الأخبار ونامت نومًا مُتقطّعًا. حلُمت بأنّ ساقيها عادتا قويّتين وظهرها مستقيمًا. سارت حتّى جادّة الحبيب بورقيبة في تونس ووصلت ميدان التحرير في القاهرة. لم تكن تحلُمُ بل تعزم عزمًا شديدًا. هتفت مع المحتجّين وعلا صوتها. تمنّت نفسها مرفوعة على الأكتاف. تمامًا مثل وثبة كانون في بغداد. إستيقظت مُتعبة وكأنّها عائدة من سَفَر. ظلت راقدة تغالب ألـمًا في مكان تعجَزُ عن تحديده. توجعها ذاكرتها. جاءت الممرضة بالفطور مع حَفْنَة أدوية الصباح. لن يُصلح العطار...

٢

يوم غائم آخر. فكّرت أنّ على صائدي الفراشات الخروج لاستدعاء الربيع إلى باريس. مدينة تتأخّر في النوم وفي الصحو. وهي مثلها ما زالت تفرك أجفانها. ستنهض وتغتسل وتسجّل في دفترها فكرة صائدي الفراشات. لكلّ صباح فكرة جديدة. لكلّ نهار حكمته. تُحرّك الملعقة في وعاء عقلها لكي لا تركد الذكريات فيه وتتكلّس. قال لها الطبيب إنها ما زالت تملك رأسها. من المفيد لمن كان في سنّها أن يحلّ الكلمات



المتقاطعة. كم أنت ساذج يا دكتور. ليته يدع عقلها وشأنه. إنّ البشر لا يصابون بالعَتَه من تراكم السنوات. بل تختلط عليهم التجارب الدفينة التي تُثقل دفاتر العمر.

الحكمة بنت التجربة. والتجربة تُخطئ وتُصيب. وقد أزهر الربيع في تونس ثمّ سرى إلى القاهرة ودرعا وبنغازي. مضى حتّى المنامة وصنعاء. وصلت حرارته ركبتيها تحت الضِماد. مظاهرات مليونيّة. هتافات ومواويل وكش رئيس وكش وزير وكش ملك. لا أحد يملك تثبيت البوصلة. وهي تهجس بأيام سود وتُكذّب هواجسها. وقد يمدّ خالقها في أجلها حتّى تبصر ما يأتي به الغد. فَرَجًا أم ضبابًا مُدْلَهِمًّا. لكنّها لن تبالغ في الطلب. تخجل من ربّ ترك النفس في صدرها حتّى عبرت التسعين.

تفتح المدام كرّاستها وتكتب بخطٍّ ديوانيّ مهتزّ أنّ على صائدي الفراشات أن يخرجوا للبحث عن الربيع التائه. تضع القلم وترافق خيالها الشفوي. منذ تربّت على أشعار سعدي وهي متّهمة بالرومانسيّة. جاء سعدي الشيرازي مثلها من بلاد فارس إلى بغداد. كان يتيمًا ولم تكن يتيمة. لكنها وصلتْ بدون أب. درس على يد السهروردي، ومسّته الروحانيات. سمع شيخه يتمتم في المنام: "هل يكون مسموحًا لي بأن أشغل جَهنَّم وحدي فلا يعود يكتوي بنارها بقيّة الملعونين؟". طاف تلميذ الحكمة في مصر والهند ولم يجد ما تنشده روحه. يشبهها في قلق الترحال. ثمّ عاد إلى شيراز لأنّه لم يجد مكانًا يضاهي ما فيها من قلوب دافئة. تحاول أن تستعيد أبياتًا له. ذاكرتها لا تخونها. لكنّها لا ترى حولها شيئًا ممّا أوصى به: "لو تناول الملك تفّاحة



من شجرة أحد رعاياه فإنّ حاشيته ستتخاطف الشجرة كلّها. ولأجل خمس بيضات يستلّها السلطان بخفّة فإن جنوده سيذبحون ألف دجاجة". لا أحد في المستشفى يعرف الشيرازي، حاضن القلوب. وليس ذنبها أنّ ذيل الشتاء طويل، في هذه البلاد، وأنّ الربيع يتأخّر وينسى المواعيد. تصبر عليه وهو يضيع في الغابات البعيدة. سيحتاج لمن ينادي عليه ويستعجله. يستدرجه بقصائد الحبّ وعذب الكلام. تَفَضّلْ وشرّف يا أغاتي. يأتي مُتكبّرًا يمشي الهوينا. يقلّد هريرة الوارد ذكرها في المعلّقات. الغرّاء الفرعاء المصقول عوارضها.

من بيتهم الأول بالكاظميّة، يأتيها الصوت العريض لزوج أمّها وهو يقرأ معلّقة الأعشى. في كلّ مرّة يصل إلى ثالث أبياتها يتوقّف. يتلفّت ليتأكّد أنّ أمّها في المطبخ. يتطلّع إليها ويضع العِمامة جانبًا. يهمس:

- لو لم يكن الشاعر أعشى، لما قارن مشية هريرة بمرّ السحابة. من أين للغيوم هذه الفتنة؟

- عيب يا سيّد.

تزجره وتكره تحرّشاته لكنّها تحبّ انتباهاته لقصائد الشعراء. منه أخذت عربيّتها التي ستفقد الكثير منها بعد إقامتها المديدة في باريس. يوم قرأت نجمة لكاتب ياسين، شعرت بالغيرة. لن تعرف كيف تأتي بمثلها. عتبوا عليه لأنّه يكتب بالفرنسية. هذي غنيمته من المُستعمِر. جرّبت أن تكتب بالانكليزيّة رواية ذات أجواء عربيّة. لكنها صرفت نظرًا. حياتها فصول من روايات متلاحقة. تلهث وراء وقائعها فلا يبقى وقت للتدوين.



يتدلّل ربيع باريس قبل أن يرمي مشمشه إلى الوجنات. ذَبُلت وجنتاها وتقعّرتا. ترقد على سريرها في المستشفى كما ولدتها أُمّها. لا يستر جسدها الضئيل سوى شرشف سماويّ. تدفئة الغرفة تزيد عمّا تحتاجه المريضة الساهية عن نفسها، المشغولة بما يحدث خارج نافذتها. تُزيح الغطاء وتترك للجرائد أن تستر ما انكشف من صدرها. تُقرّب الترانزيستور من أُذنها ثمّ تُبعده وتحملق فيه. معقولة؟ تضغط على الجرس بجانب السرير، ترجو الممرضة أن تعدّل لها اتجاه التلفزيون. تتفرّج على المسيرات في قناة الأخبار وتدمع عيناها. كلّ بقعة في جلدها العاري المتغضّن تنتفض لكي تقبِضَ على المشهد الطالع من الشاشة. تشدّه من شعره، تسحبه إليها وتعانقه.

ـ أنا هنا، هل تسمعونني هناك؟

تضحك الممرّضة المولودة في المارتينيك وتتلوّى من الضحك. تعجبها هستيريا المريضة العجوز وهي تتفرّج على المظاهرات. هل هي إيرانيّة حقًّا كما تقول؟ تبدو لمن يرى ذراعيها العاريتين وشعرها المكشوف أنّها من هنا. لها لكنة خفيفة مثل فرنسيّين من أصول شتّى. لكنّ مدام شامبيون لا تثرثر ولا تشفي الغليل. كلمةٌ وردّ غطاها. درس تعلّمته من أيام عملها مع زوجها. ومن تتزوّج جاسوسًا تخرس وتغلق فمها. من يصدّقها لو حرّرت هذا اللسان ورَوَتْ؟ سيقولون أصابها الخَرَف. ليست خرفانة. كلّ ما في الأمر أنّها امرأة ذات ماضٍ طويل هو، على علّاته، وسام شرفها. ليس كحاضرها الكسيح الذي يتحكّم فيه الأطباء والممرّضات. يعطونها الأدوية والوجبات في الأوقات ويهتمّون بنظافتها وهي في



السرير. يخافون أن تتزحلق في الحمّام. يَفرِشون تحت مؤخّرتها مربعًا من النايلون السميك ويدعكون ما بين ساقيها بإسفنجة منقوعة بسائل مُطهّر. يقلبونها مثل خرقة بالية ويمسحون ظهرها بالكحول. يرشّون جلدها ببودرة تحفظها من التعفّن. حتّى ساعات الفرجة على التلفزيون مُحدّدة بمواعيد. صوته يزعج المرضى في الغرف المجاورة. ترى الجموع تسير وتهتف فينبعث تيّار كهربائيّ يدغدغ ما تبقّى من عضلات ساقيها. سيسخرون منها لو قالت إنها قادت، في زمانها، المظاهرات.

حملها طلبة الحقوق على أكتافهم الفقيرة الصلدة. هتفت بأعلى صوت. يلقّنونها وتردّد وراءهم. ليست ببّغاء بل شابّة حُرّة. لكنّ لسانها انعقد حين صاحوا: "نوري السعيد القندرة...". سكتت ولم تهتف. لا يمكن أن تشتم الباشا. "وصالح جبر قيطانه". حاولت زجر رفاقها وضاع صوتها ضرطة في سوق الصفافير. كانوا متحمّسين وكانت صغيرة. لا تحتاج لمن يشجّعها. "على دقّ الطبل خفّي يا رجليّ".

إرتدت تاج الملوك أسماء كثيرة. رقصت بها ثمّ خلعتها. رمتها في صناديق الكرتون تحت تختها. لم تعد تتذكّر كم سريرًا احتواها في البلاد. فراش للولادة وللغواية وللضجر وللأحلام وللنعاس. ومنام للشيخوخة والمرض. لو كان هناك منطق في كلّ هذه المتاهة لكانت الآن تلملم قُصاصاتها الصفراء. تربط شعث شعرها وراء رأسها وتمضي بدون أن تتلفّت. لن تلقيَ نظرة أخيرة على فوضى دنياها. حياة مثل قلائد السحرة والمشعوذين. ملضومة من بقايا خشب وخزف وعاج وريش وجلود. أغانٍ



بلغات شرقيّة وغربيّة. خرز ملوّن وقطرات دموع تحمل أسماء عشّاق يائسين. جواسيس وأُمراء وقوّادين. توليفة قديمة من القرن الماضي. لم تعد متوافرة إلّا في صور الأسود والأبيض.

مرّت عليها كاسحات ثلوج لكنّها لم تنجرف من على وجه الأرض. غيرها من المسنّين يرجو ربّه أن يستعيد أمَانته. وهي تبتسم في الفيلم. وما زال المخرج يطمع بمشاهد إضافية. لا يريد لملاك الموت أن يأتي على غفلة، مثل "شمعون غمّاض العيون". لن يقطع عنها النَفَس قبل أن يستنفدها ويتركها قشرة بيض خاوية. تعال يا شمعون نعقِدِ اتفاقًا. هبْني مِيْتة مرسومة بريشة فنّان انطباعيّ وسأستسلم لك متى ما شئت. رسّام يتأنّى في تلوين لوحاته. يضع لطخات الزيت طبقة فوق طبقة. يُخفّف الوطء وهو يمرّ فوق محطّات العمر. لا تحبّ المونتاج المتوتّر واللقطات السريعة. هذا عُمْرُك يا تاج الملوك، عيشيه حتّى الثمالة. وإذا مسّتك نسمة ببردها فلا بأس من أن تطلبي دثارًا من الممرضة. أو أن تنتظري مجيء صديقتك الصغيرة لزيارتك. لماذا تأخرتْ؟

تأتي وديان ماشية في الممر الطويل على رؤوس أصابعها. لا تودّ إقلاق راحة الراقدين في الغرف. أبواب عريضة تتّسع لمرور أسرّة المرضى وكراسي المقعدين. تدخل وتقبّل الرأس الأشيب بفتور وتجلس على طرف السرير. تخلع حذاءها وتباعد ما بين أصابع قدميها وتحكي عن أيّ شيء. الطقس، المترو، سمفونيّة شهرزاد، طير الوروار. عن الجزائريّ الذي تحرّش بها في المقهى فسكتت ولم تنهره. تبتسم مدام شامبيون وتغمز لوديان بعينها



وهي تأخذ يدها في كفّها المُتخشّبة. تضغط عليها وكأنّها تشجّعها على المغامرة. تريدها أن تغادر شرنقتها وتتقرّب من الرجال. هذا هو ما ينقصها. أن تكون مُحبّة ومحبوبة وعال العال. مثلها عندما كانت في عمرها. فرس جامحة صهّالة تحرن ويستعصي ترويضها. لا تفهم العجوز كيف يمكن لشابة أن تمضي لياليَها بدون دفّاية في السرير. رجل يفوح عرقه في المكان، حتّى لو ترك رائحته تحت المخدّة ومضى، آخر الليل.

لكنّ وديان لا تجد في نفسها رغبة لمضاهاة تاجي. تعيش كلّ منهما شخصيتها قانعة بها. والدنيا صينيّة بقلاوة بالدهن الحر. أقبلت إحداهما عليها بشهيّة واكتفت الأخرى بأن تكشّ عنها الذباب. صديقتان تفصل بينهما عقود من التفاوت. عمر الأولى ضعف عمر الثانية. تتعايشان على الحافة ما بين التفاهم والتنافر. كأنّهما ضَرّتان لشبح واحد، جمعهما مصير أخرق. نبتتان من تربتين مختلفتين وطقسين متعاكسين. فإذا هطلت الأمطار تقارب الرأسان تحت مظلّة واحدة.

تدخل الممرضة وهي تدفع عربة قياس الضغط. تتطلّع إلى وديان وتنهرها:

ـ هذا الفراش للمرضى فحسب يا مدموازيل. هل تعرفين كم أنفق مستشفانا لشرائه؟

لا تحب وديان لقب مدموازيل. تسمح التعليمات الرسميّة في فرنسا أن تُنادى مدام كلّ شابة بلغت الثامنة عشرة. لكنّ عمرها مُخاتل. فلا هي في ميوعة الأوانس ولا في نضج السيدات. تمدّ ساقيها بتثاقل وتنزلق واقفة. سرير متطوّر يتحرك ذاتيًا. يرتفع



ويهبط وينثني ويستقيم. يبدو مُصمّمًا لشخص واحد متوسّط الوزن. لا لجلوس الزوّار ولا لعناق عاشقين في غفلة عن رائحة الديتول. حتّى ملائكة الرحمة تمارس الوشاية والتأنيب. ووديان تتابع جهاز الضغط وتشيح بوجهها عن الممرّضة الصارمة. كأنّ كلّ من يهبّ ويدبّ على هذه الأرض من بشر وزواحف وبنات آوى يريد تذكيرها بأنّ لها سريرها الذي تنام عليه وحيدة ملساء مثل عصا الأعمى. مساحة محدّدة سلفًا لنَفَر لا غير، عرضها تسعون سنتمترًا وطولها مئة وتسعون. تذهب إلى دكّان البياضات وتجد الشرشف الصغير ذا الزوايا المطّاطيّة ينتظرها. لا تمدّ يدها إلى شراشف النَفَرين. تلك ليست من نصيبها. لم تُصنع للمهجورات من مثيلاتها.

تشير مدام شامبيون إلى الجرائد وتقول شيئًا عن الأحداث في تونس. لا تفهم وديان قصدها. منذ أن تعرّفت عليها وهي عاجزة عن احتواء كلّ أطوارها. عجوز تقفز بين الأزمان مثل لاعبة الحبال في السيرك. تنطّ بخفّة وبدون شبكة أمان. قردة بيضاء نادرة من فصيلة البابون، تسكن في ماضيها فتختار ما يروقها منه وتطيل قفزتها. تُرابط عند الصبا وتنكر شيخوختها. لعلّها أعراض الآلزهايمر. تتحدّث عن أسماء كبيرة لم تعد حاضرة إلّا في كتب التاريخ. تستحضر أرواحًا تحلّلت هياكلُ أصحابها تحت التراب. كأنّ قبورهم مؤرشفة في جارورها، طوع بنانها. تؤشّر بيدها إلى الممرّ وتهمس:

ـ بن بلّة... في الغرفة التي يقف عندها شرطي.

ـ من؟



ـ أحمد بن بلّة الذي كان رئيسًا للجزائر.

ـ وما دخلك به؟

ـ شلون ما دخلي؟ أنقذته من الموت في شبابه!

تَتّسع عينا وديان عجبًا. تخنس في حضرة مومياء عرفت بن بلّة شابًا!

٣

لم يقل لها أحدٌ إنه عبد الإله. كانت الأنظار شاخصة إليه من دون كلّ الحاضرين. تعرفه من صوره في الجرائد. وقد رأته مرّتين أو ثلاثًا من بعيد، في حفلات استقبال يُدعى إليها أصحاب الصحف. ولم تكن قد امتلكت، بعد، مجلّتها الخاصّة لكنّ مقالاتها في قرندل والنداء جذبت إليها الانتباه. شابّة جميلة سافرة تنشر باسمها الصريح مقابلات مع السياسيين، تُزيّنها بصورتها. تتناول الشأن العامّ في بلد تتغطّى نساؤه بالعباءة. لا يفككن الحرف. والآنسة تاجي عبد المجيد صحافية متوّثبة. لا تتردّد حين يطلب إليها رؤساء التحرير مرافقتهم إلى أعياد العرش والحفلات الرسمية. نساؤهم ربّات خدور لا يخرجن إلا لتأدية واجب عائليّ أو زيارة الأضرحة. لا مكان لهنّ في مناسبات مختلطة يحضرها سفراء وضباط أجانب برفقة سيدات يرتدين القبّعات فوق الشعر المقصوص. يكشفن، بدون حرج، عن النحور والأكتاف. مجتمع صغير خارج من حرب عالمية. حلفاء



ومحور. تشرتشل وهتلر. وفي السراديب تنشط حركة يساريّة تبشّر بأفكار يسمّونها هدّامة. لكلّ وزير في الحكومة مستشار بريطانيّ يرابط فوق رأسه مثل خيال الظلّ. مَنْ الأصل، ومن الظلّ؟

على شرفة القصر، وقف الأمير، خال الملك الصغير والوصيّ عليه، يتحادث مع بعض ضيوفه ومرافقيه. يتكلّمون ويضحكون ويديرون الرؤوس في أرجاء الحديقة الواسعة. يسلّمون بإيماءات أنيقة على هذه أو ذاك من المدعّوين. كسر الغروب حدّة الشمس لكنّ الجوّ ما زال حارًّا. وهي ترتدي قبّعتها البيضاء من الدانتيل المُنشّى ونظّارتها السوداء التي تحبّ استبقاءها على وجهها، تحمي عينيها من الوهج، وتقي الرجال من نظراتها. كأنّها ميدوزا. أو هكذا كانت ترى نفسها. كلّ من ينظر إليها يتحوّل إلى حجر.

تحرّكت في أرجاء الحديقة، ماشقة قامتها في بدلتها الكحلية التي لا تملك غيرها للمناسبات. تحايلت عليها بياقة بيضاء جديدة مطرّزة بلآلئ كاذبة. خصرها دقيق ومروحتها اليدويّة فراشة كبيرة ترفرف أمام وجهها. ملامحها السمراء تحدّد اختلافها عن المدعوّات الأجنبيّات. وجوههنّ حمر وجباههنّ تتفصّد عرقًا. يمسحن رقابهن وصدورهن بحركات متتابعة من مناديل صغيرة. يصطبغ المنديل الناصع بلون البودرة والمساحيق. يأخذن رشفات من كؤوس الكوكتيل، ويمسحن أطراف شفاههن بتأنّق. يتركن علامات من أحمرها على بياض مناديلهن.

كيف يحافظ الأمير الوسيم على طراوته في صيف بغداد؟



لا تتذكّر هل حاولت أن تلفت انتباهه أم أنّه رآها وميّزها بين الموجودين. تمشي بخطوات كاللقلق. على رؤوس أصابعها. تحاذر أنّ ينغرس كعب حذائها في الحشيش البليل. تستمع إلى عزف الجوق العسكري في زاوية الحديقة. تتقدّم نحو العازفين ويفسح الرجال لها في الطريق حيثما مرّت. يوزّع قائد الفرقة نظره بينها وبين الموسيقيّين. يلتفت إليها، بين المعزوفة والمعزوفة، ويبتسم. ينحني بأدب شاكرًا لها تصفيقها. تردّ التحية برفع نظارتها عن عينيها لبرهة، مثل السادة المهذّبين الذين يرفعون قبّعاتهم عند مرور السيدات.

ثمّ، في لحظة عجيبة "عبر ملاك في الأفق". عبارة لا تذكر أين قرأتها.

إنطلق لحن صادح لم تسمع مثله من قبل، هي المعتادة على المقامات والبستات والمواويل. وجدت نفسها تتمايل وتسمو مع اللحن. تشبّ كما لو أنّها تجنح للتحليق. وقائد الجوق الذي أسعده انسجامها مع موسيقاه، يرفع عصا المايسترو عاليًا ويحرّك ذراعيه، يحرّض العازفين على مزيد من الحيوية. أيُّ دنيا جميلة هذه التي تدور بها وتحتفي بشبابها وترمي لها بالوعود! إنّ ما تمنّته يتحقّق أمام عينيها. ليس خيالًا بل شعلة يمكن أن تمدّ كفّيها وتتدفأ بها. تراءى لها الوصيّ ينسحب من حاشيته ويسير متمّهلًا في اتجاهها. رفعت نظّارتها السوداء لتتأكّد ممّا ترى. وجدت عينيه قريبتين منها. نظرات تعرفها النساء ويستعذبن ملوحتها.

ـ أتعجبك الموسيقى يا آنسة؟

خلعت القفّاز القطنيّ الأبيض من كفّها اليمنى استعدادًا، لكنّه



أبقى يمناه في جيب سترته. لم يمدّ يدًا لمصافحتها.

ـ اللحن جميل يا صاحب السمو.

ـ هذي معزوفة بوليرو لموريس رافيل. موسيقار فرنسي.

هذا كلّ ما كان. أربع كلمات ستعيش عليها دهرًا. لم يخاطبها باسمها ولم يسألها عن عملها ولا أشار إلى أيّ من مقالاتها. كانت تقرأ في الصحف وصف موسيقار وتتصوّره رتبة ملكيّة يختصّ بها الشريف محيي الدين، العوّاد ابن الأكابر. وها هي تفهم أنّه مُلحّن. يعني مثل صالح الكويتي وجميل بشير صاحب "رقص الهوانم". أرادت أنّ تحدّثه عن الملحّنين المحلّيين فلا يتصوّرها جاهلة بالفن. غير أنّ المحاورة كانت قد انتهت. مضى الملاك العابر يُحيّي ضيوفًا آخرين ويجامل نساءهم. لكنّ رافيل سيرافقها طويلًا ويسلّيها طالما ظل فيها نَفَس.

٤

فراشي من شوك وشيخوختي تثقل عليّ. أنام على جنبي في مواجهة الشبّاك والإبر تَخِز لحمي. فقير هندي يتمدّد على تخت من مسامير. حتّى سرير المستشفى، على أبّهته، لم يكن أرحم من مرقدي في بيتي. أتعايش مع وحدتي ومع قطّ سياميّ يلبد فوق الخزانة. تمثال رماديّ ناعم الوبر يلتمع في العتمة. تتوهّج فيه عينان من بلّور. كوكبان أصفران بلون الكهرب. لا أدري هل يراقبانني أم يحرسانني. وحيدة ولست وحدي. تحتشد شقتي البسيطة بسحنات ولهجات تهبط عليّ من السقف، أو تطلع من



الحيطان. أرواح شريدة أرأف بها، وأفسح لها على الرحب والسعة. تفضّلوا. حلّت البركة.

يحدث، في ساعات وحشتي، أن أصبّ لها الشاي لتسهر معي. أمّا إذا علتْ همهماتها فإنني ألملمها ورقة ورقة وصورة صورة. أحبسها في صناديق الكرتون، تحت سريري. ممالك وجمهوريات محشورة في علب أحذية. جنرالات وباشوات وأصحاب لياقة وعطوفة وشاهنشاهات يصطفّون قرب نعلي. هل كان عليّ أن أعيش عزلتي مثل عقوبة لا مفرّ منها حتّى تدّق هذه الشابة الحبّابة على شبّاكي؟ تعرّفت إليها بالمصادفة. لا على البال ولا على الخاطر. وجدتها من النوع الذي يوضع على الجرح فيطيب. صادقتها ورأيت فيها التعويض عن ابنتي التي تزوّجت بعيدًا عنّي. لكنّني لمّا تفحّصتُ أحوالها تعجّبتُ. وهي أيضًا كانت تستغرب حين تسمعني أتحدّث عن أحبابي. تمنّيتها وَنَسًا، فإذا بها تمسك لي مسطرة الحساب. أتحاسبينني يا وديان قبل ربّي؟

رأيتها تقف عند بوابة معهد العالم العربي. لا بدّ أنّ جنيّة طيّبة شاءت لنا هذا اللقاء. حارس الصرح يتنمّر على العباد، ويحول بينها وبين الدخول إلى الأمسية الموسيقيّة. سمعتها تقول له إنّها مدعوّة، لكنّها نسيت بطاقة الدعوة. لم يقتنع ولم يدعها تمرّ. لوّحتُ لها ببطاقتَي. إنها لشخصين، ويمكنها أن تدخل معي. صافحتني شاكرة واجتزنا الساحة المغسولة بمياه المطر. معًا نزلنا إلى القاعة. أعطتني ذراعها لكي أستند إليها ونحن نهبط الأدراج ونستقرّ في مقعدين متلاصقين. كأنّنا أُمّ وابنتها. سألتها إن كانت مقيمة في باريس، أم في زيارة عابرة. أجابت بفرنسيّة مضعضعة



إنها هنا منذ سنة، تعطي دروسًا في العربية لأطفال المهاجرين. تحاول أن تتعلّم لغة البلاد. لم أهجس أنّها عراقية، ولم يدُرْ في خاطرها أنّني أيضًا، من هناك.

ـ ما اسمك؟

ـ وديان.

ـ ما أحلاه!

أشرق وجهها الجميل وهي تسمعني أنْطِقُ الكلمة بالعربيّة. لكنّ الأنوار أُطفئتْ في القاعة، وتركّزت على المسرح المفروش بسجّادة مزخرفة. ساد الصمت، وانطلقت إيقاعات الجوزة والسنطور. سكتنا وبدأ هزّ الرؤوس. "أهلًا وسهلًا يا الحلو ... أهلًا وسهلًا يا الولد ...". ثمّ حلّت الاستراحة، وأُضيئت الأنوار من جديد. التفتَتْ وديان نحوي وسألتني عن اسمي.

ـ أنا مدام شامبيون.

ـ عفوًا يا مدام، هل أنّتِ من أصول عربيّة؟

ـ والله يا بنتي لم أعد أدري أين أَصلي وفصلي.

حزرتْ لهجتي. مدّت يمناها، بعفوية، وقبضتْ على معصمي. يد غريق تبحث عن خشبة.

مرّت سنوات على ذلك اللقاء. وما زلت، حتّى اليوم، لا أعرف من كانت الغريقة، بيننا، والمحتاجة لطوق نجاة. لا أحد يدري في أي منعطف ينتظره القدر. قطعتُ سنوات عجافًا في أرض التيه فلم يلح لي وجه أليف ولا حتّى سراب. كانت هوايتي أن أحفظ الماضي وأهرب منه. مفتاح أقرّر إخفاءه في درج ما وأنا أعرف



أنّني سأنسى أين دسستُه. أدور أبحث بدون جدوى، سعيدة بضياعه. ثمّ يحدث لكِ، يا تاجي، أن تصطدمي وأنت في غبش متاهتك بمفتاح صغير. وتهجسين أنّه يقود إلى المفتاح الكبير. وأنّ وجهًا من تلك البلاد سيدور في قُفلك. يزحزح الباب الثقيل الموصد. "سبحان الجمعنا بغير ميعاد". من هي صاحبة الأُغنية؟ زهور أم وحيدة خليل؟ سبحان الذي دبّر لي ملاقاة وديان في ذلك المساء الخريفيّ البعيد. إنفتحت لي الدائرة التي كنت أظنّ أنّها قد ضاقت والتحمت وانغلقت على مكنونها.

ـ من العراق يا مدام؟ مستحيل! أنا أيضًا...

في شقّتي بالطابق الثاني من عمارة في الطرف الغربيّ لباريس، صار لها كرسيّ يحمل اسمها. يكفي أنّها من تلك المدينة المزروعة بين عينيّ. هذا مكان وديان. تنهض الجارة وتُخليه لها. تحضر فأقوم وأُزيح القط الرابض عليه، أنفضه وأُمسّد حشوته لكي تجلس وتستريح. كرسيّ وديان. ضيفة كلّ يوم. نديمة الشاي في العصريات الكئيبة. لحظة تهبط العتمة على المدينة وتسدّ الغيوم أُفقها. تقرّب كرسيّها من سريري وتمدّ يدها لكي تسحب صندوقًا من صناديقي الكثيرة. ترفع غطاءه وتستغرق في دهشتها. أخاف من التمعّن فيها وهي ترفع سدادة روحي. تفصفصني. تتفرّج على قُصاصاتي ومقالاتي وصوري ورسائل عشّاقي. تقرأ وتنفعل وتتنهّد وتقول كلمتها الأثيرة: مستحيل!

تسألني ولا تتورّع. تستجوب ولا تراعي ذمّة لبقايا خَفَر مترسّبة في حنجرتي. تنتهكني وديان وأنا مستسلمة، راضية، أسمح لها بأن



تُميط لثامي وأهبها كلّ الأسرار. كأنّني أردتها شاهدة على حياتي قبل موتي. ينصبون شواهد على قبور الموتى. حجارة محفورة بعبارات قرآنية. أنصابًا متشابهة في أشكالها مهما تباينت العظام الراقدة تحتها. وسيشمّ من سيقف على شاهدتي رائحة الحياة التي عشت، متقلّبة ما بين القداسة والفجور. تفاصيل مُغيّبة أُعاود الاحتفاء بها وأُوقد لها أعواد البخور. أحتفي ببسالتي ولا أخجل من حقارتي. هذه أنا. أقول لنفسي إنني طبخة شرقيّة مصبوبة في طبق فرنسيّ.

ـ مستحيل... كلّ هذا يا مدام؟

ـ وأكثر! كنت فلتانة، بمزاجي.

أكرّرها بالفرنسيّة، "سالوب". أتلاعب بالكلمات لكي لا أصدم الشابة المبهورة بي وبثرثراتي. تبقى الغانية ألطف من المفردة الشائعة على لسان العامة. أخفّف خمرة ماضيّ بالماء، بكثير من الماء، بوَهم أنّ أنزع عنها التحريم.

٥

كيف للعاشق العجوز أن يرتّب غراميّاته البائدة حسب البروتوكول؟ أضحك جذلًا وأنا أحسّ بنفسي خفيفًا وسعيدًا لوجودي أخيراً، في مدينة الأنوار. يُدثّرني دفءٌ داخليٌّ فأخلع القبّعة وأطرح عني معطف المطر. أمشي بين رجال الحماية وحاملي الحقائب والمستشارين المرافقين للوفد. كأنّني ربيبهم الشابّ، لا أُستاذهم وكبيرهم.



هبطت طائرتنا، مع الفجر، في مطار شارل ديغول. جاءنا صوت الطيّار يرحّب بنا في باريس. أنبأنا بأنّ الجوّ ماطر في المدينة. الحرارة ستّ درجات مئوية. والتوقيت المحليّ هو الخامسة. حرّكتُ ساقيّ وعدّلتُ ساعتي التي كانت تشير إلى انتصاف النهار. مسحت جبيني ورقبتي بمنديل معطّر، واستسلمت للتحفّز الذي دبّ بين رفاق السفر. نشاط مفاجئ لا يشبه الساعات الطوال التي أمضيناها مقيّدين إلى كراسينا. نظرت من الشبّاك المغطّى بالندى. المدرج المبلّل يلتمع تحت الأنوار الكاشفة. وثلاث سيارات سوداء فخمة تقترب من طائرتنا. تربض عند الدرج، ونحن في مقاعدنا، ننتظر إشارة من المرافقين. وقفت ومددت رأسي. رأيتهم ينحشرون في ممرّ الدرجة الأُولى، يفسحون في المجال للرئيس ورجال حمايته بالنزول قبل الجميع. ثمّ نهض بقية أعضاء الوفد. تقدّموا نحو الباب الأماميّ. سرت معهم ويدي اليسرى في جيب معطفي، تُطبق على صورة قديمة تجعّدت واستحالت خرقة أثرية. خطوت خارج باب الطائرة وتمهّلت عند أعلى الدرج. تنشّقت عميقًا نسمة رطبة مشبعة برائحة المازوت. هذا التحفّز لا يناسب سنّي. ومشاعري لا تليق بالشيب الذي أتحايل عليه في رأسي. أمشي بسعادة طفل. أملأ رئتيّ، أخيرًا، بالهواء الذي تتنفّسه تاج الملوك. هذا ليس حلمًا. إنّ صورتها في كفّي. وبعد ساعات سأراها. أو في الغد، على أبعد تقدير.

رغم الرحلة الطويلة، كان منهاج الرئيس مزدحمًا بالمواعيد. لقاء مع شيراك ثمّ مع أعضاء في البرلمان. عشاء مبكّر في دارة السفير مع دبلوماسيين ومثقّفين يهتّمون بأميركا اللاتينيّة. يُناصرون وقفة



فنزويلا مع كوبا والعراق وتحدّيها لسياسات واشنطن. كلام كثير ومصافحات لا تنتهي. ابتسامات ومجاملات. تبادل كارتات. نهار ينقضي بدون أن أتمكّن من رؤيتها في يومي الأول، ولا في التالي. كنت قد اتفقت مع صديقتها الآنسة وديان على اللقاء في بهو اليونسكو، قبل دخول وفدنا إلى قاعة المؤتمر. لم أكن قد رأيت وديان ولا أعرف شكلها. لكنّها أخبرتني عبر الهاتف أنّها رأت صورتي عند تاج الملوك. الصورة الحديثة التي بعثتها في إحدى رسائلي الأخيرة. وبهذا، لم يكن عليّ سوى أن أترقّب وصولها، تاركًا لها أن تتعرّف عليّ بين الوفود.

نمت ليلتي الأُولى على قلق. عدنا إلى الفندق متأخّرين وتحرّجت من الاتصال بحبيبة عمري، في تلك الساعة. لا بدّ أنّها نائمة، وصحّتها لا تسمح بالسهر. خشيتُ أن يكون تقدّمها في السن مشكلة تحبط توقّعاتي وتفسد أشواقي. فكّرت في ذلك. وانتهيت إلى أنّ سنوات عمرها لا تعني عندي أكثر من قشرة جوزة هند. تراها من الخارج خشنة، لكنّك ترتوي حين تكسرها وتحتسي رحيقها. أتقلّب في الفراش الوثير ولا ترأف بي غفوة. ثمّ لم أُطق صبرًا. أضأت المصباح وبحثت عن نظّارتي ومفكّرتي. أدرت رقم بيتها. لماذا لا تردّ؟ أتصل باستعلامات الفندق وأتأكّد من مفتاح الهاتف الخاصّ بالمدينة وأُعيد المحاولة. لا جواب، سوى تسجيل بالفرنسيّة يدعوني لترك رسالة صوتية.

ـ آلو سنيورة تاج الملوك خانم. معك منصور. منصور البادي. وصلت باريس. لا شكّ أنّك نائمة. نوم العوافي يا عزيزتي. مشتاق كثيرًا. سأتّصل غدًا في الصباح.



تبرد قدماي. أتغطّى فوق رأسي. أستعيد عبارات من مكالماتنا الأخيرة. رسائلنا الطويلة المحشورة في مغلّفات سميكة ينقلها البريد ما بين باريس وكاراكاس. أكتب لها بالانكليزيّة لأنّها قد تكون نسيت العربية. ثمّ تفاجئني، أحيانا، برسالة بليغة مكتوبة بخطّ فارسيّ منمنم، وبتعابير مستلّة من التراث، مع استشهادات من الشعر القديم. هذه هي تاج الملوك خانم. فصيحة باهرة لا تتغيّر.

إلى مبنى اليونسكو دخلت مع أعضاء الوفد. بهو بشع من الأسمنت الرماديّ، ذو سقف عالٍ جدًا وممرّات فسيحة تقود إلى عدة مصاعد وقاعات مُرقّمة. كلّنا متأهّب للحدث. نرتدي ربطات عنق جديدة وننتعل أحذية مُلمّعة. نرفع الهامات ونحن نمشي بمعيّته. على جانبيه ووراءه. نهتدي بقامته العملاقة بين زحمة الحاضرين وهرج الكاميرات. كنّا في السادس والعشرين من تشرين أول سنة تسع وتسعين. يوم تاريخي للسنيور هوغو شافيز. جاء يقطف اعتراف الغرب بزعامته. رئيس فنزويلا يزور فرنسا للمرّة الأولى. يعرف أنّه أبرز حضور الدورة الثلاثين للمؤتمر العامّ لليونسكو. يُسرع فنلحق به. الفلاشات تلتمع على وجه أسمر مُشرّب بالحمرة. فنار بمنكبين عريضين يضيء ما حوله. يتمهّل لمصافحة هذا وذاك فنتوقّف. ننتظر مبتسمين. نومئ برؤوسنا للجميع. نزفّ عريسًا.

ثمّ تقدّمت منّي تلك المرأة ذات العينين العسليّتين المستفهمتين. سيدة صغيرة ظننتها صحافية تطلب تصريحًا أو توضيحًا. أنا المكلّف الحديث باسم الوفد. لي خبرتي الدبلوماسية



كسفير سابق، وأتكلّم عدّة لغات. رأيتها تسأل أحد المرافقين فيبحث عني ويشير إليّ. لكنّها لم تكن تحمل ورقًا ولا جهاز تسجيل. جاءت نحوي مباشرةً وخاطبتني بالعربية:

- الأُستاذ منصور؟ أنا وديان الملاح.

ارتبكتُ وارتعشت يمناي وأنا أُصافحها. فيها رائحة تاج الملوك. ولم أدرِ هل أكتفي بالمصافحة أم أُعانقها كما تقتضي اللياقات الأوروبية والتعارف السابق بيننا عبر الهاتف. كان صوتي، وأنا أتحدّث باللغة التي أقلعت عن استعمالها منذ نصف قرن، لا يشبه صوتي وأنا أتكلّم بالإسبانيّة. بدت لي الآنسة وديان ساهية، لا تقلّ عني ارتباكًا. أمدّ يدي وراء أذني لكي ألتقط كلماتها وأردّ عليها، فلا يبدو أنّها تسمعني. ضجيج الوفود يعرقل التخاطب. ثم، فجأة، جاءني من ورائي صوت أجشّ أعرفه جيدًا.

- سينيور البادي، من أين لك هذه السنيوريتا الجميلة؟

- سيدي الرئيس شافيز، أُقدّم لك صديقة عراقيّة...

لم أُكمل العبارة. تهلّلت ملامحه واحتضن كفّها. إنطلق يتحدّث معها عن صداقته مع الرئيس صدّام. يطلب مني أن أُترجم لها ما يقول. صوتي يضيع في المعمعة. والآنسة وديان غير مهتّمة بما يقول. ظننْتُ أنّه أحد زملائي. لم يبدُ عليها أنّها تعرف اسمه ولا من يكون. تنظر إليه وتهزّ رأسها. لا تعلّق على كلامه. تتطلّع نحو المصوّرين ولا تفهم لمَ يُركّزون عدساتهم عليه. تلتمع الأضواء الخاطفة حوله وحولها. يسألني صحافيّ من تكون المرأة التي يتحادث معها شافيز. يتعالى اللغط ويتزاحم المدعوّون على باب القاعة الكبرى. أميل على أذن وديان وأصرخ



بأنّني سأبحث عنها بعد انتهاء جلسة الافتتاح.

أردت أن أسألها ثمّ عدلتُ. لجمتُ نفسي.

لماذا جاءت وحدها وأين تاج الملوك؟

٦

تلدنا أُمّهاتنا ناقصين أو مكتملين. تقول لهنّ القريبات والجارات ألّا يقلقن على جنس المولود. كلّه خير. المهمّ أن يكون خلقة كاملة. وقد ولدتني أمي في مثل هذا اليوم منذ خمسة وثلاثين عامًا. تفحّصتني القابلة وصاحت مبروك. بنيّة حليوة لا ينقصها شيء. ثمّ سلّمتني إلى أُمّي. أتخيّل أنّها ضمّتني إلى صدرها قبل أن يُستدعى أبي لدخول غرفتها. قال لي، عندما صِرت أفهم الكلام، إنه كان يريد ولدًا يُسمّيه وادي، على اسم جدّه، ولمّا جئت أُنثى ورأى أخاديد صغيرة محفورة على جبيني الهشّ، لمع في رأسه اسم وديان.

حتّى أولئك الذين تطرحهم الطبيعة كاملين، تتكفّل الدنيا، أحيانًا، بأن تبتدع لهم عاهات ما كانت في الحسبان. بينها الظاهر ومنها الخفيّ المكتوم، لا يشعر به سوى صاحبه. تبتدع؟ أضحك ساخرة حين أنتبه إلى أنّني جمعت العاهة والإبداع في طبق واحد. هذه هي البدع. ظلّ بيتهوفن مبدعًا يؤلّف السمفونيّات حتّى بعدما أصابه الصمم. كان يترجم، من الذاكرة، همسات النسيم وجموح العواصف على البيانو، حين ما عاد يصله منها شيء.



سألتني تاجي يوم انتبهتْ إلى ذلك الشريط الرقيق الذي أُخفيه وراء شعري:

ـ سمّاعة؟

ـ بل سمّاعتان.

ـ أنت صغيرة على هذا.

نظرت إليها بتوحّش. ألعب معها لعبة ليلى والذئب، بالمقلوب. يسأل الذئب المتنكّر في زيّ عجوز، الطفلة ذات المعطف الأحمر:

ـ أرى في أُذنيكِ سمّاعتين؟

ـ لكي أسمعك بهما يا جدّتي!

يرتعب الذئب. يتطلّع إلى الطفلة بعينين بريئتين. تُقهقه الشيطانة ليلى وتنتزع سمّاعتيها. تطوّح بهما بعيدًا، في الغابة.

تقترح عليّ تاجي أن تأخذ لي موعدًا مع طبيب مُتخصّص من معارفها. تتأسّى على العراقيين الذين سقطت عليهم أطنان من القنابل والصواريخ فجّرت طبلات آذانهم. أُحكم إسدال شعري على جانبي وجهي. أعتصم بالمزيد من غموضي. أُشفق عليها من خُبثي. أُطمئنها إلى أنّ أيّ مدفع لم يضرب قذيفته قرب رأسي. هو نقص وراثيّ. تراجع في حساسيّة عصب الأذن الوسطى. خلل نُعاني منه في العائلة. أُعيد عليها الدور القصير الذي اعتدت تمثيله:

ـ أبي كان ضعيف السمع، وكذلك عمّي وعمّاتي وأبناؤهم وأبناؤهن. يجتمعون في جلسة واحدة فيغنّي كلّ على ليلاه. يروي



أحدهم طرفة ويضحك. يضحكون جميعًا ثمّ يسكتون. وبعدها يلتفت كلٌ منهم إلى صاحبه يسأله: ماذا قال؟

هذا هو ما اعتدت أن أحكيه بخفّة. أُشرك الآخرين في نقصي وأدعوهم للضحك على عاهتي. معنويات أُحسد عليها. أصيح بمطلع الأغنية: "يااااا بو مرعي!". ويردّون عليّ بصوت واحد: "شو قلتي؟". كانت فكاهتي مرهمًا أدهن به ضعفي فلا يعود يوجعني. "عم بتقلّك لحمة وخضرة". لكنّني لم أولد صمّاء. ولا كان في عائلتنا عصب وراثيّ قليل الحساسيّة. أصبحت طرشاء بمشيئته. وهو لم يكن خالقي بل تصوّر نفسه كذلك. فرض جبروته عليّ وسلبني أهمّ حواسّي. عُدّتي في مهنتي. ربّك يُعطي وربّك يأخذ. "يا مسكينة يا سلمى شو سمعها تقيل".

بسبّابة يده اليسرى، أشار الأستاذ نحوي يستدعيني إليه. عيناه حمراوان وعيناي على إصبعه المتحرّك المعقوف مثل خطّاف. كلما همَمتُ بالسير نحوه ازدادت ساقاي تثاقلًا. قطعة حديد كبيرة تلتصق بقدمي وتُعيق تقدّمي. كأنّ الشلل قام من مكانه في عموده الفِقَريّ، وجاء واستقرّ في أسفل ظهري. شلل هُلاميّ يمشي بدون عكّاز. يدعوني وأنا عاجزة عن مغادرة بقعتي. أرى فمًا مفتوحًا يُقهقه من خوفي، وعجلات كرسيّه تتحرّك في اتجاهي، تقطع الحلبة الفسيحة وتمرّ بين الراقصين. تتوقّف عندي. يسحبني من يدي بكف صلفة ويشدّني نحوه. صيّاد متمرّس يَنْتُر سمكة علقت في الشصّ. يُديرني مثل دمية فوق علبة بونبون خزفيّة. يرفع الغطاء فيصدر عنها لحن لطيف. يمدّ ذراعًا يحيط



بها خصري. يجذبني بقوة فأتهاوى جالسة في حضنه. أُحاول أن أضمَّ ركبتيّ وأشدّ أطراف فستاني. أتشبّث بظهر الكرسيّ فأبدو وكأنّني أُحيط كتفه بذراعي. أحتضنه مُرغمة. ملمس بدلته المخملية المخططة بالأحمر والأسود يحتكّ برسغي. لحيته النابتة تخمّش خدّي. وفحيحه يكوي أُذني. أُذني التي كانت سليمة حتّى ذلك الوقت.

ـ لماذا تتمرّدين على أوامري؟

ـ عفوًا أستاذ، كيف أتمرّد؟

حلقي ناشف وكلامي يخرج من بين أسناني. عجلات الكرسيّ تتحرّك بالكهرباء وفق برنامج مرسوم. ترقص وتدور في فالس عبقريّ مصمّم خصيصًا للمُقعدين. يكبس على زر فتتغيّر خطوات العجلات حسب إيقاع المعزوفة. وأنا في حضنه وهو يراقصني جلوسًا. يتعمّد الإسراع في حركة الكرسيّ لكي يُصيبني الدوار وأفقد مقاومتي. يؤلمني أنّ هناك موسيقى حقيقية في المكان. فرقة تعزف تلك الأغنيّة الإيطالية التي أُحبّها وأُجيد تأديتها. كأنّ العازفين يشاركون في إذلالي. هؤلاء زملائي ومن أهل مهنتي. أهرب من مواجهته ومن أنفاسه المشبعة بالخمر. أختلس نظرة إلى القاعة، فأرى الأعين كلّها تتابعنا. لا ترمش عين وهي تشهد لحظة اصطياد السمكة العنود. قد تُشفق وقد تتشفّى لأنّها التقطت الطعم. فصل لا بدّ وأنّهم اعتادوا تكراره في كلّ حفلات الأستاذ. ينسحب الراقصون من الحلبة ويتركوننا فيها. يتخلّون عنّي فيزداد انكماشي.

ـ لماذا لم تنفذّي المطلوب؟



ـ لم أفهم ما المطلوب؟

ـ حفل تنكّريّ للمعاقين. كلّ مدعو يرتدي عاهة.

في لحظة فزعي تلك، لا أعرف أيّ شيطان وضع الفكرة على لساني. ما للضعيف سوى الحيلة. ذكاء هزيل يقصد أن يُنجد صاحبه فإذا به يدفعه نحو الهاوية.

ـ أنا متنكّرة ...

ـ هل تأخذينني على قدر عقلي؟

ـ عفوًا أستاذ ... هذا هو التنكّر الذي خطر ببالي.

ـ لا أرى عاهتك؟

ـ طرشاء. الصمم لا يبدو على صاحبه.

يُقهقه مثل ثعلب يمكر ولا يحب من يمكر به. لا تنطلي عليه بلاهتي المفتعلة المصلوبة على ابتسامتي. ألتمُّ على نفسي حين تقترب عيناه من صوّان أُذني. أهدابه طويلة تدغدغني. أتقزّز بجمود. يفتّش بعينيه عن إمارات عاهتي. طبيب يكشف على مريضة. يشاكسني في ملعبي. يُبعد رأسه عن وجهي ويُقهقه جَذِلًا. يضغط على أزرار في مسند الكرسيّ فيتسارع دوران العجلات. ضحكاته ترجّ القاعة وتعلو على صوت المغني: "فيليتشيتا... أونفي تيري دي فينينو... كون أونبانينو... فيليتشيتا". الكلمات الحلوة تفقد معانيها والنبيذ الوارد في الأغنية ينقلب خلًا.

ـ طرشاء! هل سمعتم؟ إنها متنكّرة في زيّ طرشاء! لماذا توقّفتم عن الرقص؟ ارقصوا كلّكم وارفعوا صوت الموسيقى.



صاحبتي طرشاء ولن تتضايق!

تضعني قهقهاته في مواجهة أسنانه البارزة. عيناي داخل فمه تتابعان ما سيصدر عن لسانه الآمر الناهي. ينصاع الراقصون ويعودون جميعًا إلى الحلبة. المشوّهون ومقطوعو الأيدي. العميان والمكرسحات. ذوو الرؤوس التي يلفّها الضماد والقافزون على عكّازات. الطبول والموسيقى الإلكترونيّة ترجّ المكان. يحتضن الأعور صاحبته العرجاء ويرقص حامل أُنبوبة الأوكسجين مع صلعاوين حليقتي الشعر. يومئ الأستاذ طالبًا المزيد من الشراب. تأتيه زجاجة ويسكي بلاك. لا ينتظر أن يسكب له المرافق قدحًا. يفتكّها منه ويرفع فوّهتها إلى فمه. يتجرّع شفطة طويلة ويدفع القنينة إلى فمي. يجبرني على الشرب وأنا أسكّ أسناني. أتذكّر حكايات يوسف وسهرات السُكْر التي أرغمه عليها. يمدّ يده يشدّ شعري ويدير رأسي إليه. عيناي مرعوبتان تواجهان عينين مقتحمتين. يمتصّ جرعة كبيرة ثانية ويبصقها في تجويف أُذني.

- الأذن السكرانة تسمع أفضل ...

ضحكاته المجنونة لا تتوقّف وهو يدفعني بعيدًا عنه. أتحرّر من محنتي وأجاهد لأن أتوازن واقفة. أسير وعيناي في الأرض نحو هشام المرافق المُطيع الذي اعتاد لملمة ضحايا الأستاذ. يلفّني بمعطفي ويزجّ بي في سيّارة مضبّبة الزجاج تعود بي إلى بيتي.



٧

ـ هل ترين هذه اللوحة يا صغيرتي وديان؟

لم أكن أُحبّ أن تناديني صغيرتي. تقولها بالفرنسية "ما بوتيت" فأنفر من الكلمة اللطيفة. ما عدت أتقبّل أيّ بادرة حنان. لست صغيرتها ولا صغيرة أيّ أحد. فرحت بالتعرّف عليها لأنّها عراقيّة مثلي. شرط حفظ المسافة. أكره الاقتراب الزائد من أي إنسان بحيث يصبح صعبًا فراقه. حتّى الحبّ نفرتُ منه. أتذكّر أيامه وأشتاق إليه وأسوّر نفسي بالأسلاك الشائكة. روحي ما زالت تحت الترميم. لن تحتمل خذلانًا آخر. وتاجي تُهرق مشاعرها عليّ وأنا أحتمي من مطرها الحارّ بقوقعتي. أتمرّد على سعيها لأن تتبنّاني ولو معنويًا. يكفيني أنّ لي والدة في بغداد لا أراها ولا تراني. لم تنبذني أُمّي مثلما تخلّى عني إخوتي، لكنّني لم أغفر لها سكوتها. قلّة حيلتها. كلّ الأمهات عندنا قليلات حِيَل. عطوفات مُضحّيات خنوعات مطيعات يستسلمن للزجر. نظرة وعيد واحدة من الزوج تكسر أعينهنّ. حتّى نظرة من الابن. وأنا أحاول إبقاء تاجي في ثوب مدام شامبيون. صديقة غريبة عنّي. حكيمة عاشت وجرّبتْ. أزورها بانتظام وأحبّ صحبتها. يمكنني أن أتحدّث معها في أيّ شيء بدون خجل. لا أخشى في الحقّ لومتها ولا في الباطل. تقول لي إنّها مارستْ في حياتها الصغائر والكبائر، فما عادت تُحاسب أو تلوم أو تُدين. نتحادث وأستفيد من ساعاتي معها. تغتني معارفي العربيّة وتتطوّر لغتي الفرنسية. تُصحح لي المؤنّث والمذكّر، وتُعلّمني كيف أمرّ



على الحروف الصامتة مرور الكرام.

ـ شامب إليزيه.

ـ شانزليزيه يا صغيرتي، زحلقيها برشاقة.

لست صغيرتها، لكنّني أضعف من أن أكون نِدًّا لها. خُلقت تاجي لتبذُل بلا حساب. وأنا عصيّة على الحبّ. أشتهي وأتمنّع. أجوع للاندساس بين ضلوع رجل. أحلم بالرعشة الأزليّة. شهوة الوجود التي تنسيني اسمي وعمري ولغتي وإيماني فلا أعود سوى أُنثى. أين أنا منها. هذه المدام مارتين الخالية من العُقَد، المكتظّة بالرجال؟ أراها تستأنِس بالشغف غير آبهة بالشيخوخة. تتراكم سنواتها شفّافة مثل طبقات البقلاوة. تنافسني في شبابي، وتغلبني في انسجامها مع دنياها. ديناصورة ذات قلب ينبض مثل رقّاص الساعة. أسمع حكاياتها وأضحك في سرّي. أضحك من غيظي. لا أدري ما الذي يشدّني إلى نقيضتي. هل تكفي بغداد رابطة بيننا؟ مدينة تُقلّب المواجع. تجرح وتحظُر اندمال الجروح. أرض جيّاشة تزدري بالذين هجّوا منها. إذهبوا حيثما شئتم ولن تغادروني. تشتّتوا واعشقوا وتعلّموا واسكروا وتاجروا وناموا في غرف الحبيبات، أو على الأرصفة وتحت الجسور. إركبوا الطائرات واليخوت وقوارب الموت والزّلاجات والقطارات والحمير. خونوا أو احفظوا العهد. إفعلوا العشرة وذمّتها ... إنّ خراجكم لي. لن يقال عنكم سوى عراقيّين.

إعتدتُ أن أقول لها إنّ عراقها غير عراقيّ وزمنها غير زمني. مرابع أمجادها وغراميّاتها لا تشبه وهدة ذلّي. بيني وبينها وطن يتبدّد. ورغم كلّ شيء، أسير إلى شقّتها ولا أتخلّف. أجلس على



الكرسيّ منبوش الأحشاء، قُبالة سريرها. أنتظر أرنبًا جديدًا يقفز من جَعبتها.

مدّت لي تاجي كتابًا مصوّرًا عن الفنان أكرم شكري، مفتوحًا على رسم لامرأة عارية. كلّما عدنا إلى بغداد وما جرى فيها نسيت لقبها الفرنسيّ. لا يطلع على لساني سوى اسمها الأول. أمّا هي، فينقلب لسانها، على الفور، إلى العربية.

ـ هذه أنا في اللوحة. أحببت أكرم، وأهديته نفسي.

ـ شلون يعني؟

ـ نزعت ثيابي ليرسمني كما شاء.

ترفع تاجي الكُلفة مع أسماء مُبجّلة لدى جيلي. تقول "أكرم" حاف. كأنّها كانت تنطّ على الحبل مع الرسّام الرائد في أزقّة شارع غازي. تنزل بالباشا من سرايا رئاسة الوزارة وتسمّيه نوري. تنادي قسطنطين قنصل اليونان باسم الدلع، كوستا. تحذف لقب اللياقة من سفير باكستان. لا أعرف هل أصدّق كلّ ما ترويه أم نصفه أم ثلاثة أرباعه. أُصغي إلى كلامها كلّه أو أمرّ عليه بين سطر وسطر. أترك سمعي الكليل يبتلع أحرف النهايات. لا شيء يفوتها. تلتقط لمحة الشكّ في نظرتي، فتشير عليّ بأن أسحب لها، من تحت الفراش، الصندوق الوسطاني. هنا تنتظم رسائل كلّ العشاق البائدين. أمدّ يدي إلى الملفّات المرتّبة حسب الأسماء والتواريخ. أخشى أن تتفتّت الأوراق العتيقة الصفراء والزرقاء الرقيقة الباهتة.

تأمّلتُ صورتها العارية. كانت مرسومة بضربات تجمع ما بين الانطباعيّة والتنقيط. بحثت عن ملامحها فيها. الوجه مموّه. وأفعى



ملتوية تغطّي مثلّث برمودا. لوحة بديعة لجسد مُسترخٍ ومكشوف. رأيت تاج الملوك قبل أن تتحوّل إلى مدام شامبيون. امرأة حُرّة مُتمرّدة. تتعرّى ولا تستحي. لو كنت مكانها لالتحفت بألف عباءة. بغدادها ليست بغدادي. لم تقسُ عليها كما قَسَت عليّ. تبريرات أغطّي بها خيبتي. كنتُ طفلة درست الموسيقى وتفوّقت في الكمان، صارتْ عازفة في الفرقة السمفونيّة ثمّ انتهت جريحة خوّافة دون أن تفارقها لوثة الفن. أفهم كيف يسمو العُري الجميل فوق الابتذال. أتردّد على اللوفر وأرى فيه من الأجساد المكشوفة ما لم أجده في الحياة ولا حتّى في السينما. عضلات قويّة منحوتة في الحجر والمرمر. نهود مترعة تتدفّق منها النافورات. تماثيل لأطفال بمشاعل تتوسّط الجسور، تتبوّل على المارّة من أعضاء رُخاميّة بارزة.

كنت أمرّ بها وأُشيح بوجهي. أتعثّر في مشيتي وأنا أخطف نظرات منها. ثمّ اعتدتها ولم تعد تصدمني. لكنّني لمّا وقفت أمَام لوحة أصل العالم في مُتحف أورساي، دفعتني المفاجأة عدّة خطوات إلى الوراء. كدت أجري للخروج من القاعة. وضعتُ عينيّ في الأرض بعد النظرة الأولى. سحبت نَفَسًا عميقًا. جفّفت عرقي وعاودت التطلّع. فضولي يسمّرني في مكاني. كأنّ الموديل العارية تملك في مُفترج فخذيها ما لا أملك. لمّا تسرّب فوج السيّاح اليابانيين من القاعة وبقيت وحيدة، اقتربت من اللوحة وبي رغبة في أن أتحسّسها بأصابعي. أتأكّد أنّ العانة الشعثاء مرسومة وليست حقيقة. لا حياء في الفنّ.

غيّرت مدام شامبيون اسمها عدّة مرّات. أعجبني الأوّل لأنّه



مُركّب وغريب. أُناديها به، تاج الملوك، فتغتبط حين تسمعني، أُعيدها إلى صباها حين أنطِق بالاسم الذي أطلقوه عليها عند الولادة. أمحو التجاعيد عن وجهها وأضع لؤلؤة في مفرقها. هل تكون الأسماء الأوائل مفاتيح للقلوب؟ ما إن أناديها به تُقبل نحوي. تلتفت بكامل جسمها واهتمامها. أنا قطب الشمال وهي البوصلة. تنسى فرنسيّتها وتستعيد ضادها واضحةً قويمة. تتفتّح شهيّتها للحديث عن عشّاقها ولا تُشفق عليّ من جدب حياتي. لا تدرك أنّها تمعن في تمليح جُرحي وتتبيل لحمي. تعترف، بالعاديّ من الكلام، أنّها كانت قنبلة جنسيّة. كلّما ورد ذكر الجنس تعثّرت عربيّتها. تهرب إلى الفرنسيّة لتخفيف المُسمّيات. تقول "بونب سيكسويل" ولا يرفّ لها جفن. تقدّم نفسها رمانة شهيّة بقشرة سميكة. تُتعب القاضمين. تُخلخل أسنانهم. متقشّفة في أحاسيسها، ولها طبع الرجال مع النساء. تستبقي الواحد منهم ليلة، ثمّ تطرده من فراشها.

ـ أُعرّيهم وأتفرّج عليهم، وقد لا أسمح لهم بلمسي.

أعرف أنّها تكذِب وتتستّر. لكنّني أختنق حنقًا وأنا أستمع إلى غراميّات نام عليها الدهر وتغطّى وشَخَر. ترويها كأنّها حدثت البارحة. ذاكرتها عجيبة وولعها بالرجال ذو حدّين. قدّمها المعمار مدحت مظلوم إلى أكرم شكري. فَطَنَ الرسّام إلى طبيعتها، فلم يُطاوعها. سلبها شكلها وثبّته في اللوحة. أدخلها المُتحف. ولم يَكْتَفِ. واجهها بأنّ مظهرها خدّاع.

ـ من يتصوّر الجفاف الذي يسكن هذا الجسد البديع؟

ـ لم تجرّبني لتعرف!



- لي نظرة فنان تسبر ما ترى.

تأذّت منه وسامحته. الغفران وحمة فيها. كان وسيمًا كما تشتهي. أنيقًا حنونًا مختلفًا عن الآخرين. جرّبت إغواءه ولم يلنْ. عرف كيف يُفلت من دائرة السحر. ترك صديقه مدحت يتولّه بها. تقول إنه زارها في باريس بعدما تركتُ العراق. لكنّها كانت غارقة في مشروع عاطفيّ جديد.

رآها الضابط الفرنسيّ الذي سيصبح زوجها ففقد رشده. العبارة نفسها تتكرّر عند الحديث عن الرجال. "كان مجنونًا بي". تكرّرها بالفرنسيّة "فو دو موا". كلّهم كانوا مجانين تاجي. والقمر بيحب مين؟ تعترف بأنّها لم تنجذب طوال حياتها في فرنسا لأحد. كانت تخبّئ، بين طيّات روحها، ملامح شابّ التقته منذ عهد بعيد. تحفظ تاريخ لقائها به باليوم والسنة. مذيع فلسطينيّ تعرّفت عليه في إذاعة كراتشي العربيّة بعد النكبة.

- كان أصغر منّي بسبعة أعوام. حافظتُ عليه في منأًى من لهيبي.

بعبارات قلائل وضعتني في الصورة. لم تكن، يومها، ميّالة للثرثرة. ولا كنت القابلة الجاهزة لتلقّي مولودها، حبّها الكبير. راح فكري إلى يوسف. نأتي إلى الدنيا لكي نقابل "حبّ العمر"، نعثر عليه فنعبث ببهائه. نخرّبه بحماقة ونفتح له كوّة التسرّب. لماذا لا يكون في العمر قِصتّان بالعمق نفسه، أو ثلاث قصص؟ أسرح ثمّ أنتبه. أرى تاجي مُطرقة وحزينة. لم يعد الأسف يليق بها. لا موضع له في الباقي من عمرها. لكنها قوية. تقدر أنّ تُلوّن الفضاء كلّه بالوردي.



- أين هو اليوم؟

- من؟

- حبيبك الفلسطينيّ؟

- أدفع ما تبقّى من عمري لأعرف.

بخطّ معتنًى به، كتب لها العاشق القديم رسائل من عدّة صفحات. تفتح واحدًا من صناديق الأحذية وتعرض عليّ الوريقات. أقرأ ويأخذني السحر. طالعت شيئًا مثل رسائل جبران إلى مي. أسلوب لم يعد هناك من يكتب به. تستغرقني القراءة وتتصاعد حُمّاي. لم أعد على سجيّتي. لم يحدث أن كتب لي رجل كلامًا بهذا الجموح الرقيق. إعصار حسن التهذيب أعطوه ورقة وقلمًا. طلبوا منه أن يصف عاطفته. وصف مشاعر جارفة تقتلع الشجر. تُطيح سقوف المنازل وتقلب السفن في البحار. خطابات تنتهي كلّها بتوقيع "وَلهانك". أقرأ وأُعيد وأنقّل بصري ما بين الورق ووجهها. أبحث في مدام شامبيون عن المعشوقة المُعتّقة تاج الملوك. تقدّمت في السن، وما زالت مليحة. كتفاها جناحان مهيضان، وابتسامتها حضن. وفي نظراتها يكمن سرّها. ترمُق الرجال بلهفة وكأنّها تَعِدُ كلّ واحد منهم بأنّها له.

- تاجي، هذه قصائد ...

- صار أديبًا في حبّي!

تُعجبني تعليقاتها. بسيطة وبليغة. أفكّر في أنّ أكثر النساء قابلية للحب من تمتلك موهبة التعبير. أقول لها ذلك فيلتمع الزهو في عينيها. تحتسي ذكريات حبّها وتسكر بها. تحفظ لها



ليونة أفكارها ومفاصلها. يكفيها أن تؤمن بأنّ وَلْهانها حيّ يتنفّس في مكان ما، فتعصي الشيخوخة وتعيش الانتظار. تراسلا لسنتين ثمّ تاهت عنه. تقول لي إنه أصغر منها. والصغار لا يرحلون قبل من هم أكبر. لا بدّ أنّه يتذكّرها، أيضًا، وينتظر كما تنتظر. تدبّ في الحياة والحياة تدبّ فيها. تنام وتصحو وتشرب الشاي وتتابع نشرات الأخبار. تشتري الكتب وتُطعم القطط وتُطلق صوتها بالغناء وتحلم به. تؤمن أنّه سيعثر عليها ذات يوم. تذكره فتستعيد شهيّتها للبوح.

ليلة مغادرتها كراتشي، توقّعتْ أن يعترف لها بحبّه. يمكنه أن يقول لها إنّه يحبّها حبًا يائسًا. لكنه لم يفعل. قرأت كلّ شيء في تصرفاته ولم تسمع منه الكلمة. لماذا لم تحاول هي اجتياز الساقية الواهية بينهما؟ ذهب يودّعها وهي تأخذ الباخرة إلى أصفهان. لوّح طويلًا بيده ولوّحت بمنديلها. أمسك بالكاميرا القديمة المتدلّية على صدره والتقط لها صورة. رأى وجهها للمرة الأخيرة عبر العدسة. أرسل إليها تصويرها بالبريد. تقوم تاجي وتفتح جارورًا في دولاب الثياب. تمدّ لي أرنبًا جديدًا من قبّعتها. أرى في الصورة فاتنة ذات شعر قصير. ترتدي فستانًا فُستقيًّا وبوليرو قصيرًا مُخرّمًا. دائمًا بوليرو. تتكئ بذراعين مكشوفتين على سياج السفينة مُلقية عليه ما يبدو أنّه ثقل حسرتها. فمها منفرج بضحكة تكشف عن أسنانها. كأنّها تعرض شفتيها على الشابّ الحزين الواقف على رصيف الميناء. عيناها ناعستان تنظران للكاميرا، تدعوان المصوّر: إشبع منّي!



ـ هل تذكرين اسمه؟

ـ منصور البادي. أنسى اسمي ولا أنساه!

بذلتُ جُهدًا لكي لا أفتح فمي. لم أودّ أن أُخبرها أنّني أعرف سيدة من آل البادي، كانت جارة لعمّتي في عمّان. يمكنني أنْ أسأل وآتيها بالخبر.

أعدتُ مَلفّ رسائلها إلى الصُندوق. دفعته بقدمي إلى مخبئه. مصيدة لم أكن مستعدّة لها. لكنني، مثل تينة ناضجة مُتشّققة، سقطت وحدي في شراك الحكاية. لم أعد أملك نفسي إزاء تاج الملوك.

٨

ترك زوج الأمُّ تنقّلاته في مدن الشمال، نهائيًا، أوائل الأربعينات، وعادوا إلى بغداد. إستقرّت العائلة في بيت الكاظميّة. شبّت تاجي ووجب عليها أنّ ترتدي العباءة. جاءت لها أُمّها بواحدة جديدة ذات قماش صقيل هَدِل.

ـ أبوك يقول أن لا خروج بدون عباءة.

ـ ليس أبي بل زوجك.

ـ أبوك رغم أنفك، وكلامه يسري على الكلّ.

ـ لن أخرج من البيت، إذًا. أموت وادفنوني هنا.

في قرى الشمال، لم تكن قد رأت كرديّة تلبس السواد. إنقبض قلبها، في البداية، من لابسات العباءات، وخافت من



أصحاب العمائم السود. ثمّ اعتادت المكان الجديد وتآلفت مع ضجيج المدينة. خالطت الجارات وأحبّت أحاديثهن وأسرارهن. الرجل غائب لكنه محور الكلام. المعشوق الأبديّ. البشارة والرزق والرضا ونوم العوافي. له تُزجّج الحواجب. تُبيّض الخدود بحجر السبداج. تُدهن الشفاه بخشب الديرم. تُنتف السيقان بالشيرة. وله تُطبخ الطيور المُسمّنة والأسماك المشويّة في التنّور، ويُقشّر الرمّان ويُفصفص. لكنّ تاجي، بخلاف بقيّة البنات، كرهت العباءة، وساءت علاقتها مع والدتها. هل كان ذلك أصل المشكلة، أم ما لاحظته الأم من نظرات زوجها للصبيّة التي شبّت؟

في بيت الكاظميّة، ثلاث غرف تنفتح على ممرّ علويّ واحد يُطلّ على الحوش الداخليّ المكشوف. لكلّ منهم واحدة. لم تفهم البنت لماذا يحتفظ رجل البيت بغرفة مخصوصة لنومه ولا يشارك أمّها غرفتها. هناك أيضًا مجلس صغير للنساء قريب من موقد الطبخ، يسمّونه الحَرَم وآخر واسع قريب من باب البيت، ديوة خانة للضيوف من الرجال. تستيقظ الأمّ وتتوضّأ لصلاة الفجر. تصيح على تاجي لكي تنزل الدرجات الثلاث وتفتح الحنفيّة. تسقي شجرة النبق وأزاهير الحوش قبل ارتفاع الشمس. الحرارة تُحرق الياسمينة المتسلّقة وأوراق قمريّة العنب. تخرج البنت من غرفتها، سائرة في الممشى. نعاسها في أجفانها. تمرّ أمام غرفته فتجدها مفتوحة. يسعل أو يهمس لها لكي تدير رأسها وتنظر إليه. متى ينام؟ تراه جالسًا على سريره يداعب عضوه بيسراه. يستعرضه أمامها. شفتاه ترتجفان وعيناه غائمتان. تتحدّاه فلا تغضّ بصرها أو تجري مبتعدة. تتمهّل وتنظر بعناد. تشعر بسطوة صباها عليه.



تراه خائفًا مُرتبكًا أكثر منها. تستطيع أن تأمره فيُلبّي: أن تخلع نعلها وتمدّ له قدمها فينحني ليقبّل القدم الصغيرة. تنقل عينيها من وجهه إلى الجرذ الأسود الرابض في كفّه. أول عضو تراه في حياتها. تعجب لأنّ لونه أغمق من بياض جسمه. غليظ وقصير. أهذا ما يجعل النساء يعشقن الرجال؟ منظر سيبقى ماثلًا وراء زجاج مخيلتها. تستعيده وتمسح عنه الضباب. كأنّها لا تريد نسيانه والتفريط بالتجربة السريّة. تلك الصباحات الفاجرة التي نقلتها من براءة الطفولة إلى دوّامة الأنوثة. جرذ قاتم ترك أثره على علاقتها بالرجال. جرذان كثيرة ستنكشف أمام عينيها. تنتعظ بنظرة منها. لكلٍ منها شكلٌ ولون وحجم. كاتالوغ متعدّد المقترحات. عصفور. فأر. حمامة. أبو بريص.

ـ أقتلني ولن ألبس العباءة!

قاومته وأصرّت على الخروج للذهاب إلى المدرسة.

ـ إذبحني اشنقني ولن أجلس خادمة عندك!

جاء الحلّ من طبيبة إيرانيّة من معارف الأمّ. وافقت على أن تنتقل الشابّة العنيدة للعيش معها، ترتّب لها شؤونها وتساعدها على الاهتمام بمريضاتها. ولمّا تردّد الأب في الموافقة كفى نظرة ذات مغزى من الأمّ لإسكاته. لن تسمح بوجود البنت تحت سقف واحد مع زوجها. "يجب إبعاد القشّ عن النار". أخمدت زينة السادات الشعلة في بيتها لتستعر في بيت ثانٍ. كان للدكتورة شقيق يشتغل في الصحافة. تولّع بتاجي وتقدّم إليها بأوراق اعتماده. رفضت أن تكون زوجة ثانية. ولكي يُبقي لقاءاته معها، اقترح عليها أن تترك الخواطر وتكتب مقالات أدبيّة. سيراجع



كتاباتها ويسعى لنشرها. يساعدها على دروس اللغة الانكليزية. يأتي إليها بالكتب المبسّطة والصحف التي تَرِد من لندن. تعلّمتها وصارت ترطن وتطقطق بها. تعجّلت إنهاء المدرسة الثانوية لكي تصبح، بمصادفة جميلة، صحافية تمارس المهنة. تتنقلُ ما بين الأدب والسياسة. تكتب عن معارض الفنّانين، وتُجري مقابلات مع الشخصيات العربيّة والأجنبيّة التي تزور العراق.

في مغلّف كبير أسمر اللون، احتفظت بصورة لها مع ملك الأردن عبد الله، والد طلال وجدّ الملك الحسين. زار بغداد سنة سبع وأربعين وعقد مؤتمرًا صحافيًا. لم يكن في القاعة امرأة غيرها. تقدّمت للسلام عليه، بعد انفضاض الجمع:

ـ أنا الصحفية تاجي عبد الحميد يا سيّدنا، أودّ أن أطرح عليكم سؤالًا أنفرد به عن زملائي.

تجهّم المرافقون وحاولوا إبعادها، لكنّ الملك المُتشّبع بأخلاق البادية، رفع يده وأشار إليها أن تتبعه إلى غرفة جانبية. إمرأة قصدته وليس من الشيم ردّها.

ـ تفضلّي...

ـ هل ستحاربون اليهود أم ستتفاهمون معهم؟

ـ الجواب لكِ لا للنشر.

ـ كما تشاؤون، سيّدنا.

ـ كم عمركِ؟ ألستِ صغيرة على السياسة؟

ـ تعلّمتها من نوري باشا!



سمعت جوابه وحفظته تحت شعرها الكثيف. لم تتفوّه بكلمة. كلام خطير. لو فتحت فمها يحترق لسانها. وبعد أعوام أقلّ من أصابع اليد، دفع عبد الله بن الحسين شريف مكّة ثمن الرأي الذي أسرّ به إلى صحافية مبتدئة. كان واقعيًا ويفهم سياسات كبار اللاعبين. قامت الحرب وتقدّم الجيش العربي حتّى قارب تل أبيب. تحرّكت خيوط من وراء الستار وكبحت حماسة القادة وآمال الناس. أُعلنت الهدنة، ونُكِبَتْ فلسطين.

- شلون ... ليش؟

- ماكو أوامر.

عبارة خالدة. تُستعاد في أحاديث الفكاهة السياسية. سال دم الملك الهاشميّ على حجارة القدس في يوم صيفيّ قائظ. تتأمّل تاجي الصورة التي جمعتها به. تتذكّر جوابه غير المعلن على سؤالها. صَدَقَ معها وصَدَقَتْ معه. لم تنقل ما قال، حتّى لنوري السعيد الذي حاول استدراجها حول انفرادها بالملك. لماذا يسألها وهو العسكريّ المحنّك؟ يقرأ الأفكار ويعرف ما في القلوب.

راقت لتاج الملوك فكرة العيش في وكر الأخبار والأسرار. يكفيها أن تقابل وزيرًا وتجلس مع سفير لكي تشعر بأهمّيّتها. مهنة مهّدت لأدوار تالية قامت بها. لم تكن راضية عنها تمامًا، لكنّها حافظت على صفتها الصحافية. تولّع أم غطاء؟ كان من الطبيعيّ أن تلفت مقالاتها الأنظار. تتحرّك كثيرًا. تسأل وتُصغي وتختلط. نالت إعجاب كثيرين. وكان هناك من رأى فيها عشبة طُفيليّة في حقل ملغوم.



قال لها مراسل وكالة رويترز في بغداد ما معناه إنّها مخلوقة نسيج وحدها. قدّمها إلى وكيل شركة مترو غولدن ماير. كان الوكيل يقوم بجولة في الشرق الأوسط بحثًا عن وجوه جديدة. تفحّصها بعين خبير. من فوق لتحت ومن تحت لفوق. كان رأيه أنّ لها جانبًا متوحّشًا تحبّه الكاميرا. الشبعان يثرد للجوعان حروفًا. عرض عليها أن توقّع عقدًا للعمل في السينما. استنكرت الطلب:

ـ أنا صحفيّة!

يومذاك، كانت تعمل في النداء. مُحرّرة عادية السمرة، تحفظ بذورًا للطموح في جيب تنّورتها. تتلمّسُها، بين الحين والحين وتطمئنّ على وجودها في مكانها. ستزرعها وتتفرّج على ثمارها في يوم قريب. طلب منها نورالدين داود، صاحب الجريدة، أن تُجريَ مقابلة مع محامٍ تونسيّ يحلّ في بغداد. لم تفهم من يكون الضيف. لكنّ اسمه، الحبيب، راقها. سألتْ وعرفتْ أنّه يناضل من أجل استقلال بلاده عن فرنسا. حلّقت بها صورة النضال عاليًا. هؤلاء هم أبطالها الذين تهوى. ذهبتْ إلى فندق سميراميس وأجرت حديثًا مع بورقيبة. لم يكن معروفًا للعراقيين ولم يسمع به كثيرون. وفيما بعد، ستأخذ صورتها معه مكانها في أحد صناديق الصور، تحت السرير. زرعت وقطفت ونامت فوق ماضٍ فات. أحبّت أن تشاكس آفّة النسيان. لم تفرّط بقُصاصة من مراسلاتها. كلّ شيء مُوثّق لديها بالورقة والصورة. تُناولني، ببالغ الحذر، النُسخة الأُصليّة من كتاب رسميّ مرقون بالآلة الكاتبة على ورق شفاف، كأنّه ورق لفّ السكائر. أقرأ:



"وزارة الخارجية/ الدائرة السياسيّة/ شعبة الدعاية

رقم الكتاب ٣٧١٠، بغداد في ١٤ آب ١٩٤٧

إلى المفوضيّات الملكيّة العراقيّة في بيروت، دمشق، القاهرة، عمّان.

إلى القنصليّة الملكيّة العراقية العامّة في القدس.

تروم الآنسة تاجي عبد المجيد صاحبة مجلة الرحاب السفر إلى سوريا ومصر ولبنان وفلسطين وشرق الأردن لأغراض صحفية، فنرجو التفضّل بالإيعاز إلى ممثليّاتنا في هذه الدول بتقديم كافّة التسهيلات والمساعدات الممنوحة للصحفيين إليها.

التوقيع: وزير الخارجية"

٩

يرشّ صهريج البلديّة الدرب بالمياه، عصر كلّ يوم. يركد الطوز الذي تحرّكه حوافر الخيول في شارع الرشيد. تتغيّر الروائح المنبعثة من فضلاتها ومن عوادم السيارات القليلة. يدسّ النُدُل أطراف دشاديشهم في أحزمتهم ويكنسون الرصيف أمام مقاهيهم. ينزل المتنزّهون للتمشّي. رجال أفنديّة بقمصان طويلة الأكمام، يرمون ستراتهم وراء ظهورهم. ترافقهم نساء معطّرات. تنشقُّ عباءاتهن عن فساتين مُشجّرة. ترفع الشابّات السافرات شمسيّات ملوّنة أو تتّقين الشعاع الأخير بقبّعات صيفيّة. يزدحم الشارع بروّاده عند العصر. ساعة انطلاق الجوق الملكي من ساحة الميدان في اتجاه



الباب الشرقي. أفراده بكامل قيافتهم. بدلات بيض بأزرار فضيّة لامعة. يسير عازفو الطبول والأبواق والصنّاجات النحاسيّة على إيقاع الموسيقى. يتقدّمهم لاعب يضع يسراه وراء ظهره، ويُدير بيمناه، في الهواء أمَامه، عصًا بيضاء ذات رأس صَلْد. يأتي الأولاد يركضون من الأزقّة. تغادر نساء العوينة وعقد النصارى وسوق حنون وصبابيغ الآل مطابخهن. تشرئبّ الرؤوس من شبابيك القشلة وشرفات مكاتب المحامين وعيادات الأطباء. يخرج زبائن المقاهي ودكاكين المزينجيّة. يُغلق طلبة المدارس كتبهم وينزلون من السطوح. يستيقظ الرجال من قيلولة متأخّرة ويصفّق السكارى المُبكّرون. ألحان شعبية خفيفة. مارشات عسكرية. حركات بهلوانيّة تُثير الحبور وتُبهر الصغار. يمرّ الموكِب بالمبنى العتيق الذي تدير مجلّتها من سردابه. يرفع قائد الجوق يده ويُعطى الإشارة بعزف بوليرو. أوامر القصر على العين والراس. ومنذ لقائهما الخاطف في حفل الحديقة الملكيّة، قرّر الوصيّ على العرش أن "يشمل تاج الملوك بعطفه". هكذا كانت الصيغة.

تسمع أصداء اللحن البهيج فلا تهبّ، مثل الآخرين، إلى نافذة قبوها. تتدلّل وهي تعرف صاحب الرسالة الخفيّة. تفرح وتتسارع أنّفاسها. ينضمّ قلبها طبلًا إلى طبول الجوق الملكي. تحميه من علانيّة الشبّاك. تنهض وتحتمي بالستارة. تأخذ طرفها وتغطّي نصف وجهها. تخشى أن يفضحها احمرار خدّيها. تُحرّك رأسها مع الموسيقى وتفكّر فيه، لعلّه يفكّر فيها. إهتمّ بها وأسبغ عليها بركاته. أشار إلى الحكومة أن تساعدها لتصبح لها مجلّتها الخاصة. الوصيّ لا يطلب ولا يأمر. يكتفي بالإيعاز.



المجلّة حلمها المستحيل. أكبر بذرة في جيب تنّورتها. ولا يردّ الأمير إلّا البخيل. سكنت الفكرة رأسها ولم تعد قادرة على تجاهلها. إنّ أصحاب الصحف الذين تتعامل معهم يتحرّشون بها. يغريهم أنّها وحيدة وعجميّة، بلا أهل ولا حسيب، تسكن غرفة لدى عائلة غريبة عنها. لها من الحرية ما لا يُتاح لبنات العائلات. وفوق هذا، تتمتّع بجمال خاصّ. تفتح فيه شخصيّتها المتفتّحة فخاخًا تغري بالمغازلة. يتقرّبون منها بالكلام المباشر. يكتبون لها القصائد. يدسّون في يدها الخطابات. وهي تتعمّد السهوَ ولا تصدّ. يُبهجها أن تُرخي وتشدّ. تستقوي عليهم بسلطان غوايتها ثمّ تُجنّدهم في كتيبة تُشعرها بالأمان. جيش صغير من صحافيين وشعراء وهوام وذباب يحوم حول عسلها. تخشى أن تخرج منه نحلة لئيمة تلسعها.

غريبة. واتتها سيماء الغريبة. هكذا كانت في بغداد وهكذا ستبقى في المدن التي حلّت فيها. لا تتذكّر من طهران، مسقط رأسها، سوى مشاهد عابرة من طفولتها. ولمّا عادت إليها، شابّة، عاكسها القدر فلم تستقرّ فيها. لا وطن لتاج الملوك كمثل خلق الله، تتسمّى به ولا تعود غريبة. حملت بها أمّها، زينة السادات بنت السيد أمر الله، مع حلول العشرينات. قالت لها إنها جاءت بها إلى الدنيا في فصل بارد. بين تشرين وكانون. لا تعرف متى. وكان أبوها، أمير خان إيمانلو قد طلّق والدتها قبل ولادتها بشهرين. لم ترَه، لكنها سمعتْ أنّه كان زير نساء. لعلّها ورثت منه ذلك الطبع. آكلة رجال. كبرت وتزوّجت الفرنسي وعادت معه إلى إيران في زيارات عمل سريّة. بحثت عن أصلها وفصلها.



إتصلت بأبناء عمومة لها وحصلت على صور لأبيها. ستنام الصور في علبة كرتونية تحت سريرها.

ربّت زينة السادات ابنتها بالقليل الذي تملك. ليس لديها سوى صوت جميل ونَفَس طويل أورثتهما لها. أخذت طفلتها شمالًا إلى خراسان. عاشتا في مشهد. تجوّد القرآن على مسمع زوّار مرقد الإمام الرضا. مسجد فسيح تجتمعُ في زواياه طبقات من الهموم والابتهالات. عمائم سود وعباءات وشوادر منقّطة. مُصلّون يدورون حُفاة حول الضريح. دموع ونذور وحسرات وتشبّث بالأسيجة المُذهّبة واليقين البسيط. والمرأة المهجورة ترفع صوتها بآيات تُجيد تلاوتها. لها بقعتها الخاصة في الصحن الأبيض المنبسط مثل سماء أرضيّة. يقطر المطر فينسحب الزائرون إلى الممرّات المسقوفة. تنعكس السحابات العابرة على صفحة الرخام. بياض في بياض. طقس روحانيّ دنيويّ فذّ. لكلّ مُقرئ ومُقرئة بقعة ومقرّ.

يتوقّف المارّون أمام زينة السادات وطفلتها، يطالعونها بأسى أو بأعين صقور ضارية. لم يَطُل الحال بها وحيدة. رآها زائر، ذات صباح، وعاد إليها في الصباح التالي. والذي يليه. يُطيل الوقوف غير بعيد عنها. يُصغي ويطرب ويراقب. كان عراقيًّا من السادة. يعمل في القضاء ويتردّد على مشهد مرّتين وأزيَد في السنة. له في بغداد زوجة وأبناء. وله في إيران صوت امرأة يسحر السامعين. شادرها يُخفي نصف وجهها. يكشف عن دموع تجري وهي تقرأ آيات من سورة مريم وطفلتها في حجرها:

"فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيا"

"وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا"



أحبّ لُكنتها الفارسيّة والحروف الخارجة من كهوف روحها. يتهدّج صوتها في أواخر الآيات وينوس نَفَسُها في خفوت عجيب. غطّاسة تجاهد لتبقى أطول ما يمكن تحت الماء. ثم، وبشهقة عظيمة، يشقّ وجهها صفحة النهر. ينطلق لسانها فتلفظ لوعتها مع كلّ شَدّة وألف ممدودة. تتفنّن في التلاوة وتتمتّع بها وتتجلّى وتشّف. تُجوّد زينة السادات وتُجيد فتسمو وتستحقّ اسمها.

إتخذها السيّد زوجة له بعقد متعة. وافقت على الصيغة. ينتهي العقد لحظة يودّعها ويسافر إلى بغداد. يعود بعد شهرين أو ثلاثة أشهر ويجدها كما فارقها. في مكانها المعهود داخل الصحن. إبنتها تلهو حولها. للطفلة شادر منقّط بزهر صغير أخضر. تفرح زينة السادات بالزائر الآتي من العراق. تقوم وتتبعه بصمت. وحين تختلي به تبشّ في الترحيب والتدليل. كأنّها كانت تنتظره. عَقَد عليها ثانيةً وأجزل في العطاء والهدايا. يحمل لها المنّ والسلوى وأساور مشغولة بالميناء. صارت زياراته أقرب وإقاماته أطول. تعوّد عليها وأُغرمتْ به. إستأجر لها غرفة واسعة لدى عائلة من معارفه. تكفّل بها ومنعها من تلقّط رزقها في المساجد. وبعد أربع زيجات موقّتة سألها أن ترافقه إلى بلده ويفتح لها بيتًا في الكاظميّة. إشترطت عليه ألّا تفارق ابنتها. سافرتا معه ورتّب الأوراق ومنح الطفلة اسمه ولقبه. حَذَفَ الملوك وصارتْ تاجي عبد المجيد الشريفيّ، لكنّ البنت لم تحبّ اختصار اسمها. تتمرّد ولا تردّ على من يناديها بنصفه. تُدرك بذكائها المبكّر أنّ ذاك الاسم هو كلّ ما تبقى من حياتها السابقة. تاج الملوك حِليتها وإرثها، علامة تميّزها.

يأخذ زوج الأمّ عائلته الجديدة معه حين يقوده عمله إلى مدن



الشمال. تنشّقت هواء الجبل وتنقّلت ما بين كركوك ودُهوك. عام هنا واثنان هناك. وثلاثة أعوام في العَماديّة. ثمّ في السليمانية.

ـ تعالَي يا تاجي.

ـ ...

ـ يا تاجي يا بنت زهنة...

ـ لست تاجك. أنا تاج الملوك!

كلّما كبرت، ازدادت وطأة زوج أمّها عليها. كرهته. لكنّها تتحمّله وتحوم حول مجلسه لأنّه يحفظ الكثير من القصائد التي تُبهرها. يتلوها بصوت مُدرّب عريض. تفتتن بالشعر الذي يمسّ حزنًا موروثًا من طفولتها. تُداعب قصائد الغزل مواضع حسّاسة في جسمها. تحفظها وتجمعها وتتّخذ منها عائلة لها. صار بيت الشعر مسكنها الذي ترتاح فيه. أرادت تشكيل كتيبة من الشعراء الجوّالين. شذّاذ الآفاق الهائمين على وجوههم في البراري. المتأبّطين شرًّا. المدّاحين الهجّائين المُفتَخِرين الرثّائين وأهل الحماسة. جبهة تحميها وتشدّ من أزرها.

لم تحبّه، لكنّ ديوانه صار مدرستها. يجتمع عند زوج أمّها، كلّ خميس، سادة ومعلّمون وطلبة كليات وصحافيّون وتجّار سوق. يرتاد مجلسه حَفَظة رواة شعر وأرباب فصاحة. يحدث أن يحضر أصحاب كأس عشّاق سهر. يتسامرون ويتمازحون وتعلو ضحكاتهم. يصعد إليها دخان سكائرهم الملفوفة على تبغ فوّاح. يحملون التتنَ في أكياس قُماشيّة مزركشة. تتنشّقه من مكانها، حيث تختبئ، وتنفثه كأنّها تدّخن معهم. تلمّ دشداشتها حول ساقيها وتجلس على درج الشرفة الداخليّة. تطلّ من عتمتها على



الحوش المُضاء بالفوانيس والعربدات. تسمع وتكتب الأشعار في دفترها.

أحبّت تاج الملوك مجالس الرجال منذ أن كانت صغيرة، من أيّام قرى الشمال. تخرج إلى المدرسة وتمرّ بالمقاهي. تشتري من على الرصيف نظّارة شمسيّة. تُخفي عينيها وتزرع نظراتها النهمة في صفوف الجالسين على الأرائك قرب النوافذ. تخوت خشبيّة مفروشة بالسجّاد الكالح. لا بدّ أنّه كان زاهيًا، ذات يوم، ثمّ ساف تحت مؤخّراتهم. تتمنّى لو تدخلُ وتشاركُهم قراءة الجريدة والنقاش في السياسة وشفط الشاي بصوت مسموع. تستقرّ على الديوان العالي وتترك قدميها لصبّاغ الأحذية. تدور في الأزقّة ولا تتعجّل العودة. ما عادت تحتمل البقاء تحت سقف واحد مع السيد عبد المجيد. تمرّدت عليه وقرّرت أن تهجر المنزل. لا أحد يعرف لماذا وافقها ولا كيف تدبّرت أمرها. خافت زينة السادات على زوجها من البنت التي نبعت حلاوتها وتدفّقت شلّالًا. توسّلت بصديقة لها كي تخصّص لها غرفة في بيتها. لكنها لم تتركها لأقدارها. ظلّت وراءها تتحرّى أمرها. ومن بعيد، كانت تاج الملوك تشعر برقابة والدتها. تخشاها وتحبّها وتتفهّم شظف ماضيها. تتفادى عينها الحمراء وتحسب لغضبتها حسابًا.

لم يفهم أحد كيف بدأت تكتب وتنشر في الصحافة. تهوى الإنشاء وتبرع فيه. ساعدها ذلك الصحافي الذي كان طامعًا بها. يستقبلها أصحاب الجرائد بالترحيب. ينشرون لها بالمجّان. ثمّ بمبالغ بسيطة. لم يصدّقوا أنّها من يكتب تلك النصوص. لا بدّ أن هناك من يضع قلمه في خدمتها. تقرأ أفكارهم في أعينهم



التي تخربشها. شابة ذات صبا فوّار. يملؤها الحنق، لكنّها تسكت وتُبقي فمها مُغلقًا. سيعرفون ذات يوم قدر موهبتها.

ثمّ تعرّفت على الرسّامين وارتاحت لهم. وجدتهم ألطف من أصحاب الجرائد وأكثر دماثة. كأنّهم من جنس الملائكة. ما جنس الملائكة؟ يطلبونها موديلًا لهم فلا تتردّد. يتأمّلون وجهها وقامتها ويوجّهونها. قفي في ضوء النافذة، يا آنسة، وأديري كتفك لليسار. ارفعي رأسك قليلًا واسبلي جفنيك. إستلقي على الكنبة وأرخَي ساقك على المسند. وهي عجينة قابلة للتشكيل. تمرّنت تاجي على أُنوثتها أمام أعينهم. يفحصونها باهتمام وودّ. لا كلمة تزعج ولا لعاب يسيل. تركت نفسها لإرشاداتهم لتظهر في أفضل حالاتها. معهم ستعرف أنواء بغداد وأهواءها. ستحفظ أسماءً أجنبية وتسمع عن مدن وراء الحدود ودنيا خارج الدنيا.

لو أنّ قارئة بخت في طهران قالت لزينة السادات إنّ هذه العجيّة المتعلّقة بأذيالها ستنتقل من إيران إلى العراق ثمّ إلى فرنسا، لخلعت قبقابها وهوتْ به على رأس العرّافة.

١٠

ما أسرع ما تقلّبت أوراق روزنامتها!

تاجي. تيجان. مليكة. مارتين. تنافس مدام شامبيون عتاة المحتالين في تعدّد هوّياتها. شبّهها زوجها بالممثّلة مارتين كارول. سمّاها باسمها. تزوّجت الضابط الفرنسيّ الذي فكّ ضائقتها



وداوى غربتها. والأهم أنّه اعتنى بتربية ابنتها. إستفاد من عمله في المخابرات ليضع يده على كلّ ماضيها. يعرف أنّ أباها إيرانيّ من عشيرة كبيرة. طلّق أمّها وخسر أمواله. مات مُعدمًا. وأنّ زوج أمّها موظف كبير في وزارة العدليّة ببغداد. دارت معه شرقًا وشمالًا. تنقّلت الأسرة ما بين كركوك ودهوك والعماديّة والسليمانيّة. إنفتح لسان الطفلة على الفارسيّة، والتقطت، فيما بعد، الكرديّة والتركيّة والآشوريّة، وشيئًا من الأرمنيّة. لغات بنات الجيران في المدن التي سكنوها. طوَتْ التّبغاوات الملوّنة تحت لسانها وكتبت بالعربية. أتقنتها بفضل السيّد الذي ربّاها. يقصده زعماء العشائر ليقضي بينهم في النزاعات على الأراضي الزراعيّة، سهوب المراعي، تقاسم الآبار وعيون الماء. كانت للقاضي هيبته إلّا في عينيها. لا تُصدّق أنّ من يمتلك كلّ ذلك العلم يمكن أن يتحرّش بربيبته.

تباهت العروس أمام زوجها الفرنسيّ بأنّها غَفَتْ، ذات يوم، وهي دون العاشرة، في حضن مصطفى البارزاني. هل سمعت به يا سيريل؟ حدّثته عن كرد أشدّاء يرتدون الشراويل. يلفّون أوساطهم بأطوال من القُماش الملوّن. كلّ ما حولهم في الطبيعة ملوّن. أشجار الفستق والبندق واللوز والكستناء. حتّى الثلج يتلوّن في أعالي الجبال. والشلّالات تعكِسُ أقواس قزح. سمع حكاياتها عن أحزمة بنفسجيّة وبرتقاليّة وصفراء تجاهر بالخناجر المدسوسة فيها. زينَةُ الرجل سلاحه. يشربون الشاي ويتحدّثون بإيقاعات مضبوطة على مقام كلّ منهم. تعلو أصواتهم ثمّ تخفت. لا يقاطع صغير كبيرًا، ولا يرفع صوته أعلى من صوت الأغاوات. يجفّفون



أوراق التبغ ويثقبون القصب ليصنعوا نايات لها نحيب الثكالى. يدخّنون النراجيل الخشبيّة ويمجّون السكائر. توائم شفاههم. يربطون أنفاسهم بها. يسحقون أعقابها بكلاشاتهم، نعالهم القطنيّة المتينة. يدوسون بقوّة كأنّ لهم ثارات مع سكائرهم. يحبسونها بين السبّابة والإبهام. ينفثون دوائر بيضاء تتبدّد مع أنسام الجبل. أصابعهم صفر وأسنانهم صفر وذؤابات شواربهم. يُصغون إلى موّال بعيد من جبل مقابل فتلتمع الأعين وتتلفّت القلوب.

لماذا كانت تذهب إليه، ذاك الشاب المرهوب الجانب، من دون الآخرين؟ يُجلسها البارزاني على ركبتيه، يمازحها ويدلّلها. يقدّم إليها الجكليت وحفنة من اللوز الأخضر. يقشّره ويعطيها اللبّ. وحين تنعس تغفو بين ذراعيه. نزل من رحلة صيد في الجبل، ذات يوم، وجاء بهديّة خصيصًا لها. دبّ حديث الولادة، حليبيُّ الفروة. لكنّ زينة السادات خافت على ابنتها واتفقت مع أحد الرعاة على انّ يعيد الحيوان المسكين إلى أمّه في الجبل. هل شاهدتَ دبًا حقيقيًا يا سيريل؟ يستمع زوجها ويحفظ ولا يُبدي رأيًا. يسألها عن لغات أهالي تلك البلاد. عقائدهم. تقاليدهم. التيّارات التي تسيّر شبابهم.

ـ هل تُجيدين الكرديّة حقًا؟

ـ والعربيّة والفارسيّة والآشوريّة. وفي كراتشي أتقنت الانكليزيّة. ومعكَ تعلّمت الفرنسيّة.

يطرح أسئلة كثيرة عن نوري السعيد وعبد الإله وبهجت العطيّة وغضنفر علي خان. وعن المذيع الفلسطينيّ في كراتشي الذي يعمل أبوه في معيّة الهاشميّين. يهزّ زوجها أغصانها



فتتساقط كرزات حمر من فمَها. تتكلّم بعفويّة وهو يضحك ويدلّلها. يُشجّعها مُعجبًا لكي تجتهد وتتذكّر. لا يملّ من ثرثراتها. تراه يهتمّ بها ويُقبل عليها وتفرح لأنّه يسهر معها في البيت. أقلع الضابط الفرنسيُّ عن عادته في قضاء الأمسيات مع رفاقه، يلعبون الورق أو يرتادون الملاهي. سمعت عن الميزون كلوز ولم تفهم أنّها بيوت دعارة. يسقيها سيريل كؤوسًا من نبيذ بوردو، فتبدأ الشدو، تقول لنفسها إنّها تغرّد كالعنادل على الشجر. لو كان زوج أمّها حاضرًا لصحّح لها: عندلة لا تغريد.

حكت له الشاردة قبل الواردة، تألّقت كوكبًا شرقيًّا في ليالي باريس، وظنّت أنّها استقوت عليه. لا ترهبها نجماته ولا نياشين البطولة التي حازها في الحرب. تتعزّز شخصيتها وهي تراه مبهورًا بحياتها السابقة وصداقاتها وأسفارها. لا تعود تلك المُهاجرة الفقيرة التي سكنت مع طفلتها غرفة صغيرة، بمساعدة الراهبات. يستثمر الكومندان كلّ ما حفظه رأس زوجته الصغير البديع. وبدون أن تُدرك، صارت مارتين شامبيون بئر معلومات للمخابرات الفرنسيّة.

١١

للصحافة وجهان: نَقْش وكتابة. وتاجي دبس مُغْرٍ. تصدّ أحدهم فيطلع لها غيره. مُتحرّش كبير يطوي في كرشه مُتحرّشًا أصغر فأصغر. مثل الماتروشكا تلك الدمية الروسيّة التقليديّة. كانت تهوى لملمة فتافيت المغرمين بها وتجميع شظاياهم.



غيرها يهوى جمع الطوابع أو العملات وهي تسير حاملة جَعبة الساحر وراء ظهرها. لديها أرانب تقفز بالعشرات من كيس واحد. لكنّها، رغم جرأتها، كانت تشعر بأنّها وحيدة لا سند لها.

أين هم، اليوم، أولئك الزملاء السوريّون الذين استقبلوها، مثل شخصيّة مهمّة، عند درج الطائرة؟ وصلت دمشق فوجدت خبر وصولها منشورًا في الصحف. رفضت، بكلّ كياسة، الردّ على الأسئلة المنفردة واعطاء التصريحات. دعتهم جميعًا إلى مؤتمر صحافي في فندق أُميّة، عصر اليوم نفسه. تصرّفت مثل درّة فريدة أو نجمة سينما. كانت معجبة بريتا هيوارث، التي خطفت قلب الأغا خان، وبالليدي إدفينا زوجة حاكم الهند اللورد مونتباتن. كانوا يتهامسون أنّها العشيقة السريّة لجواهر لال نهرو.

نجمة وحيدة. ويوم غادرت بيت العائلة فقدت عزوتها. تجد نفسها، أحيانًا، ضعيفة غريقة تتخبّط في اللُجّة. تبحث عن طوّافة مناسبة. هو وحده من سيمدّ لها يد العون. تُتمتم باسم عبد الإله فيغمر الفضاء، من مكان ما، لحن بوليرو.

إقتنت الأسطوانة من بيروت وراحت تديرها في الغرامافون بدون توقّف. تجلس لتكتب على أصداء موسيقاها. تفكّر وتخطّط وتستعيد تلك اللحظة السحريّة. قال لها إنّ أبوابه ستكون مفتوحة لها متى ما شاءت. وهو أهمّ مَن في البلد وأقوى من كلّ الحائمين حولها. أصحاب المكاتب والمطابع. مجانين السياسة ومتأنّقي السفارات، لكنّها لا تحبّ أن تلجأ إليه باكية متوسّلة، تقف عند الباب. مثلها لا ينتظر على العتبات بل يخترق الحواجز. طلبت موعدًا ودخلت مكتبه مزهوّة بنفسها. إرتدت



كفوف الدانتيلا وغرزت زهرة رازقي في عروة سترتها. تتقدّم وكعب حذائها الأبيض يضبط إيقاع مشيتها. لماذا هي فسيحة إلى هذا الحدّ مكاتب الكبار؟ نزعت القفّاز عن كفهّا اليمنى، رفعت نظّارتها السوداء عن وجهها، وأحنتْ رأسها بدلال وهي تصافحه.

ـ عفوًا يا صاحب السموّ، الضوء يُتعب عينيّ...

ـ هل أُصدر أمرًا بسجن الضوء، يا آنسة؟

تضحك ويضحك معها. تتناول قدح عصير الخوخ من يد الساعي. ترشف رشفة صغيرة. تتأمّل بياض كفّي الأمير ونسق أظفاره. أنامل النعمة. لم تتلوّث بحبر مطبعة. صوتها الداخلي لا يغادر شفتيها. تتناول رشفة أطول من دم الخوخ. يستغرقها مذاقه. حامض حلو. أيكون عصير الأمراء مختلفًا عن شربت العامّة؟ تعتدل في جلستها وتتمالك مشاعرها. حان وقت الكلام المفيد. ترتسم على وجهها علامات الهمّ. فنانة في اختيار الأقنعة. تميل على مكتبه باسمة خجلى. كأنّها ستبوح بحبّ:

ـ هل تعرف سموّك، أفكر في إصدار مجلة.

ـ سموّي لا يعرف...

ـ أصحاب الجرائد يضايقونني.

ـ أمر مفهوم. هل أسجنهم مع الضوء؟

يضحك مجدّدًا. ضحكته ناعمة مثل جلد كفّيه. حَنجُرة ملفوفة بخيوط البريسم . يتطلّع إليها وقد عادت برأسها إلى ظهر الكرسيّ. خُصلٌ سود على قماش أبيض. تضيق عيناه كمن يتأمّل، من مسافة مناسبة، لوحة في معرض. يصمت فيزداد



الترقّب. تظنّه أغفى وغاب عنها. يعاود فتح عينيه. أجفانه منتفخة ونظراته ساهمة. في أيّ أحضان سَهر؟ سؤال ليس من حقّها. تتهيأ للنهوض والاستئذان بالانصراف. يقف فجأة ويباغتها:

- يسعدنا أن تكون في البلد رئيسة تحرير مثلك يا آنسة تاج الملوك.

لا يخفى على هؤلاء القوم شيء. كيف عرف اسمها الكامل الذي اختصروه غصبًا عنها؟ لا شك أنّه طلب معلومات عنها قبل أن يمنحها موعدًا. أمثاله لا يفتحون أبوابهم للمجاهيل. كان عليها أن تتوقّع ذلك. ممّ تخاف؟ ليس في حياتها أمر واحد يخرج عن المألوف. كلّها خارج المألوف منذ تلك اللحظة التي وقفت فيها تتمايل طربًا في حديقة قصره وعلى رأسها قبّعة صيفية وفي كفّيها قفّازاها الأبيضان.

خرجت من عند الأمير أكثر زهوًا منها عندما جاءت. ليس أيّ أمير. إنه الوصيّ على العرش. إستقبلها ببالغ الأناقة وسقاها من خوخه. جاملها بحلو الكلام واستجاب لرجائها. تميل بوجهها جانبًا وتتشمام عبير الرازقيّة. تتنفّس بعمق وهي تتذكّر أنّها ستبلغ الرابعة والعشرين في اليوم التالي. سَنَتُك بُشرى يا أنتِ! دارت الأرض دوراتها الموقوتة حول الشمس. طلع القمر هلالًا ثمّ بدرًا ثمّ تلاشى. وتاجي تُسابق حركة الكواكب... ولم تتأخّر البشرى.

في الرابع من رمضان ١٠٦٥ هجريّة، الموافق للأوّل من آب ١٩٤٦، صدر العدد الأوّل من المجلّة. وقفتْ في المطبعة الليل كلّه. رأت العامل وهو يجمع الحروف ويصفّها على قطعة خشب مُسنّنة، صفًّا بعد صف حتّى تكتمل كلّ صفحة. تعلّمتْ كيف تقرأ الكلام



مقلوبًا. خطفت الوريقات الأولى من يد العامل لتكون أوّل من يطالعها. تتصفّح مجلّتها وتستنشق حبرها. تمسح بها جبينها. يتلطّخ وجهها بالسواد. لا تفهم لماذا يضحك العامل وهو يمدّ لها خرقة مبلّلة. ستقصدُ البلاط لتعرض العدد على الأمير. لا، ستذهب للباشا. لا، ستعود إلى بيت الكاظميّة تدقّ مطرقة الباب بإلحاح على والدتها:

- أمّي، شوفي، هذه مجلة ابنتك!

- من أين جئتِ بالفلوس؟

- معونة من الديوان الملكي.

- تاجي، لن تكذبي عليّ!

- والله العظيم من البلاط.

- وكيف وصلت للبلاط؟

- أنا صحفيّة يا أمي... ألم يقولوا لك ذلك؟

- قالوا ويقولون أشياء أخرى. لا شيء بدون ثمن.

يتجهّم وجه زينة السادات. لم ترَ تاجي والدة لا تفرح لابنتها. تغاضت عن الاستقبال المُزري وذهبت إلى مسكنها. ستضع عريضة الاتهام على الرفّ وتؤجّل المحاكمة. تمدّدت على سريرها الحديديّ وأعادت تفحّص الصفحة الأولى من الرحاب. تقرأ ولا تشبع: مجلّة أُسبوعيّة أدبيّة جامعة. صاحبتها ورئيسة تحريرها الآنسة تاجي عبد المجيد. مديرها المسؤول المحامي عبّود الطيّار. عنوان الإدارة محلّة المربعة في شارع الرشيد. بناية الدكتور فريد ناسي. مقابل سينما الزوراء الشتوي. عنوان طويل مُفصّل ممتدّ من قلب بغداد إلى الفردوس.



بأيّ فلوس؟

جاءها الدعم من تحسين قدري، وزير البلاط، وفق تعليمات الوصيّ. خصّصوا لها حصّة من الورق تُماثل ما تتلقّاه الجرائد اليوميّة. تأخذ حاجة مجلّتها منه وتبيع الباقي. تدفع بثمنه تكاليف الطباعة في مطبعة الزمان. كان صاحبها توفيق السمعاني كريمًا معها.

- صباح الخير أستاذ توفيق.

- أنا من اليوم أبو موفّق... صار عندي ولد يا ست تاجي.

- توفيق وموفّق... يعني احتكرتم الموفقيّة كلّها؟ خلّوا لنا شويّة!

تداعب الكلّ والكلّ مبهور بها. تتأخّر في المطبعة ليلًا والمنطقة غير آمنة. تخرج فتجد عددًا من الطلبة الكبار يسيرون وراءها. يدرسون قريبًا منها في كلية الهندسة. خافت منهم، في البداية. تصوّرتهم ينوون على شرّ. ثمّ عرفت أنّهم يرافقونها حتّى تصل بيتها، يحرسونها من سُكارى الميدان وسماسرته. حماية منظورة وأخرى سريّة: فعين خفيّة ترعاها من بعيد. مدّ لها الأمير عبد الإله يدًا انتشلتها من التيه. قدر حانٍ حقّق لها أُمنية عمرها. لا شيء بدون ثمن؟ تمنّت لو طلب منها شيئًا. لكنه صاحب السموّ. وهي من هي...

لا تنسى اليوم الذي تعرّفت فيه على نوري السعيد. ذهبت لحضور مؤتمر صحافي له في السرايا. وقبل أن ترفع يدها وتسأله سبقها الباشا وسألها من تكون كان طبيعيًا أنّ وجودها أثار فضوله. إنعكست الأدوار بينهما. هو يستفسر، بلغة شعبية، وهي



تردّ بعربيّة مشغولة. تستعرض معرفتها باللغة لأنّها رأسمالها. لم تملك سوى ما افتكّته من دنياها من فرص ومواهب. والفقير يصنع من العدس مأدبة. أعجبته شجاعتها. صار رئيس الوزراء معلّمها الأول.

كان قد رأى مجلّتها قبل أن يراها. قرأ اسمها في مذكّرة على مكتبه ووقّع بالموافقة. ساعدها كي تحصل على حصّة من ورق الطباعة. تاجي عبد المجيد الشريفي. تصوّرها عجوزًا من بقايا العثمانيين. وها هي أمامه شابّة مُتحضّرة وأنيقة. رئيسة لتحرير مجلة موالية للقصر. تعرف كيف تبتسم وتتكلّم. لا تتلعثمُ وتغطّي فمها بيدها. وجد فيها صورة المرأة الحديثة التي يمكن لدولته أن تفتخر بها.

تبسّط معها، كعادته حين يكون رائق المِزاج. دعاها لأن تزوره في مكتبه متى شاءت. ولمّا سألت، بعد يومين، عن عنوان مكتبه، تاهت.

- وين مكتب نوري باشا؟

- أيًا منها تقصدين؟

كانت له ثلاثة مكاتب. واحد في البرلمان، وآخر في النادي علي العسكريّ، وثالث في رئاسة الحكومة. حيثما تقصده تجد أبواب مكاتبه مفتوحة لها. تنتظره في غرفة السكرتير، حين يكون غائبًا. يأتي مرتديًا سدارته سائرًا على عجل. يسلّم ويدعوها إليه. تدخل بدون وجل. تجلس وتشرب الشاي باستكان من زجاج رقيق مُذهّب لا يشبه استكانات المقاهي والجرائد. ينصحها ويوجّهها في كتاباتها. يتمازح معها أحيانًا، ويسخر من بقايا سذاجتها. يحكي



لها ذكريات عتيقة من أيّام فيصل والثورة العربية. يسألها عن أحوال الناس ويُسمعها تحليلات عن كلّ ما يجري في العالم. تنظر إليه مأخوذة وهو يكشف لها أحابيل الدول الكبرى: الانكليز يريدون كذا وواشنطن تريد كذا. والروس لا أحد يفهم ما يريدون. يكمنون شرقًا ويرسلون الجواسيس غربًا واليهود يزحفون مثل الجراد على فلسطين. تفتح عينيها وأذنيها وتدهشها مقدرته على تبسيط الأمور المُعقّدة. كأنّ ما يجري بين أميركا وروسيا مشاجرة عادية بين كنّة وحماة.

- سأصنع منكِ أفضل صحفية.

- أنا محظوظة يا باشا.

- أنت شاطرة وستتعلّمين.

ترفع عينيها للسماء. تبحث عن ربّ العرش لتشكره. يسّرَ لها أن تجتاز دهاليز السياسة بصحبة نوري السعيد. مَنْ مثلها؟ إرتاحت لشخصيّته ولعطفه عليها. موشور مُتعدّد الجوانب. لا يشبه الوصيّ في شيء. تتوجّه إلى مكتبه بمجلس النوّاب، بعد انتهاء عملها في المجلّة، تجلس معه وتُطيل الجلوس. لا يفوتها فحيح الأفاعي. هناك من يتقوّل ويتخيّل ويراهن. لم يُحسنوا تفسير العلاقة. ما كان لهم، في مجتمع محدود، أن يفهموا أنّها وجدت في الباشا الأب المُفتَقَد. أمّا هو، فقد رأى فيها صورة شابة عصرية جريئة، تخرج وتعمل وتعتمد على نفسها. ظلّوا يراقبون ويتنصّتُون ولا يفقهون. ولم تُعِرْهم تاجي بالًا، ولا الباشا امتلك الوقت لقيل وقال. يقول لها، دائمًا، إنّ شغله يصل لما فوق رأسه. مؤامرات تدور على يمينه، وعلى يساره، ومن بين



رجليه. تجلس في مكتبه وتُصغي. تتلقى دروسًا خصوصية في السياسة وتتعلّم فنّ التورية. كيف تكتب مقالات موالية لسياسة الحكومة دون أنّ تكون بوقًا لها.

ـ خَدٌّ وعين. لا تمنحي وجهك كلّه لأيٍّ كان.

لم تكتب ما يخالف آراءها. كانت ملَكيّة أكثر من الملك. تنشر في الرحاب ما يروقها وتؤمن به. يقرأ لها المحافظون والمتحرّرون. المعلمون وطلّاب الكليّات الذين انتشرت بينهم موضة الشيوعيّة. كلمة مهموسة. يخشى كثيرون التلّفظ بها. كأنّها تكوي اللسان. يتلافونها ويسمّونها الأفكار الهدّامة، لكنّ أغلب أصدقائها الشعراء كانوا من الشيوعيين. وربّما شكّ بعضهم فيها. ظنّها تتجسّس عليه. لم يصدّقوا أنّها تصاحبهم لمواهبهم. كنْ مُبدعًا وافعل ما شئت. تكتب عنهم وتنشر قصائدهم. تنتشي حين تُصغي للشعر. تتبارى مع الحاضرين في تخمين القافية التي سينتهي بها البيت. المعنى يقودهم والرويّ دليلهم. يسبقون الشاعر ويُعلنونها بالصوت العالي. عادة عراقيّة خالصة. شعراء بالسليقة. وهي مستعدّة للذهاب إلى جهنّم لسماعهم.

تترك رئيسة التحرير مكتبها حين يتعلّق الأمر بمادّة مثيرة. هكذا كان دأبها منذ بدأت تنشر مقالاتها في النداء. سعتْ لكي تفوز بمقابلة مع أمّ كلثوم يوم غنّت في بغداد. عرفت أنّها ستصل من القاهرة على متن طائرة خاصة، وعزمت على الذهاب لملاقاتها في صالة الشرف. لكنّ الطائرة حطت في الحبانيّة. قاعدة عسكرية إنكليزيّة بعيدة عن العاصمة. لا بدّ من لقاء المطربة الشهيرة قبل غنائها في عيد ميلاد فيصل الثاني، أو بعده مباشرة. لن يكفيها



أنّ تسمع الحفل منقولًا على الهواء من الإذاعة. لا بدّ أن ترى كوكب الشرق وجهًا لوجه. كانت تعرف أن المغنّية المصريّة حازت ذلك اللقب بعد حفلة في حيفا، سنة إحدى وثلاثين. غنّت في مقهى الشرق أفديه إن حفظ الهوى. ووقفت معجبة حيفاويّة دوّخها الطرب وصاحت: "أم كلثوم أنت كوكب الشرق»!

تركتْ تاجي لحلاوة لسانها تدبير اللقاء. فإذا عجزت الكلمات تحرّكت النظرات. أزاحت نظّارتها السوداء ورفرفتْ بأهدابها وتمكّنت من الحصول على دعوة للحفل. المكان: حدائق قصر الزهور. التاريخ: الثاني من أيار سنة ستّ وأربعين، بحضور نساء العائلة المالكة والدعوات مقصورة على أهل الحكم. ذهبت إلى الموعد وحاولت الدخول على الضيفة في غرفة داخلية. مستحيل. لا اللسان ينفع ولا الأهداب. غير أنّ تاجي لا تعرف اليأس. كانت قد استعارت ثوبًا أبيض طويلًا وأخذت مكانها في الحديقة الغنّاء، في الصفوف الأخيرة. وفي الأمام جلست والدة الملك والأميرات والوزراء والسفراء وكبار قادة الجيش. أصغت إلى أمّ كلثوم وهي تغنّي يا ليلة العيد آنستينا ... صفّقت طويلًا مع الحضور بعدما أضافت المغنية مقطعًا في الآخر: "يا دجلة ميّتك عنبر وزرعك عل العراق نَوّر... يعيش فيصل ويتهنّى نحيّي له ليالي العيد". إستمعت إلى كلّ الأحبّة اتنين اتنين وأطلقت الآهات. ختمت المغنية حفلها بقصيدة شوقي: سلوا كؤوس الطلا هل لامست فاها. تحرّك الحضور في مقاعدهم ومدّت تاجي رقبتها تبحث عن الأمير عبد الإله. وجدته يقف ويخاطب كوكب الشرق: "لو أنّي وزّعت على كلّ عراقي هدية من ذهب



لما استطعت أن أُسعده كما فعلتْ الليلة أم كلثوم".

بعد يومين من الحفل نشرت النداء مقالًا بعنوان: خمس دقائق مع صاحبة العصمة الآنسة أم كلثوم، بتوقيع مندوبتها الخاصة تاجي عبد المجيد:

"بعد انتظار طويل في رَدهة أوتيل ريجنت بالاس، تمكّنتُ من مواجهة كروانة الشرق وبلبله، صاحبة العصمة الآنسة أم كلثوم التي قصدت العراق لتساهم في عيد ميلاد جلالة الملك المحبوب. وقد كنت في انتظار عودتها من قصر الزهور الملكي العامر، مساء الجمعة، حيث كانت صاحبة الجلالة الملكة الوالدة قد دعتها لتناول الشاي. وحين جاوزت الساعة التاسعة ليلًا، جاءت سيّارة ملكيّة وقفت في مدخل الأوتيل، ونزلت منها أمّ كلثوم وتوجهت مسرعة نحو السلّم للصعود إلى غرفتها. لكنني اعترضت طريقها وقطعت عليها سبيل المرور. فدُهشت من تصرّفي واحتارت من موقفي الغريب واستعدّت للدفاع عن نفسها من هجومي المفاجئ. بادرت وقدّمت إليها نفسي، صحفية حضرت حفلتها وأوّد أخذ حديث منها. لكنّها اعتذرت بضيق الوقت وكونها مدعوّة للعشاء في المفوّضيّة المصريّة، وأنّها قد تأخّرت فعلًا عن الموعد. قلت لها إنك يا صاحبة العصمة قد تأخّرت فعلًا، فلا بأس أن تضيفي خمس دقائق أخرى على هذا التأخير. ولا بدّ أنّك تعرفين شأن الصحفيّين كزائرين ثقلاء لا يمكن الهروب منهم. فضحكت وقالت لا بأس، تفضّلي اسألي ما تريدين. لكنّني اعترضت وقلت لا يمكن ذلك على الواقف يا آنسة. فجلسنا في البهو شرط ألّا يستغرق جلوسنا أكثر من خمس دقائق.



س: ما رأيك بحفلة أمس في قصر الرحاب؟

ـ غاية في الروعة والذوق وحسن التنظيم، تشبه الحفلات الملكيّة التي تقام عندنا في قصر عابدين. وهي فرصة سعيدة ونادرة للمساهمة في أفراح العائلة المالكة الكريمة والشعب العراقي النبيل احتفاءً بمولد جلالة الملك فيصل الثاني، قرّة عين العراق والعرب على السواء.

س: هل ستتاح الفرصة للجمهور العراقيّ المعجب بصوتك الحنون ليسمعك في حفلات عامّة في بغداد؟

ـ نعم إن شاء الله، حيث إنّني قرّرتُ العودة لإحياء بعض الحفلات في المستقبل القريب.

س: هل يعجبك الغناء العراقي؟

ـ جدًّا. وخير دليل أنّني غنيت قلبك صخر جلمود مرّات عديدة في مصر وفي بغداد حين جئتها للمرة الأولى قبل أربعة عشر عامًا.

وهنا تقدّم مدير الفندق وقال للآنسة أم كلثوم إنّ الشبه بينها وبيني كبير وكأنّنا شقيقتان. فقهقهت ضاحكة وأجابت موجّهة حديثها إليّ: قد نكون متشابهتين قليلًا يا حضرة الصحفية، ولكن أرى أنّك أجمل منّي بكثير... دي الحقيقة... مش كده يا أستاذ؟" .

لم تدرِ تاجي أنّها ستلتقي الآنسة أم كلثوم مساء اليوم التالي، لوقت يزيد كثيرًا على الدقائق المعدودات. جاءها هاتف يدعوها لحضور حفل يقام في القصر لتوسيم المطربة بوسام الرافدين.



عدّلوا القانون الذي كان يقصره على الرجال. وضعوا الوسام، لأول مرة في تاريخ العراق، على صدر امرأة. فلّاحة مصريّة تُغنّي فتنتشي الأرواح بخمرة صوتها. وقف السياسيّ توفيق السويدي ممتلئًا غبطة وقال: "من حقّنا أن نقبض اليوم على أمّ كلثوم بتهمة سرقة قلوبنا!". ثمّ انسحبت السيدات إلى قاعة ثانية وتخفّفن من الحديث الرسميّ. كانت إحدى الحاضرات قد استمعت إلى صوت تاجي، فطلبت منها أن تنشد شيئًا. أي امتحان... أن تغنّي أمام "الست". لم يكن صوتها مكتملًا، لكنّ الشجن الفطريّ فيه يُخفي هنّاته.

تسألها الضيفة:

- هل تريدين أن تصبحي مُغنيّة؟

- لا... أنا صحفيّة...

حين صارت لها جريدتها، ما عاد يمكن لأحد أن يضع سقفًا لسمائها. يسّرَ لها قربها من نوري السعيد الانفراد بأخبار تميّزت بها مطبوعتها. ومن جانبها، جَهِدت للحصول على أخبار خاصّة من مصادرها، تصلها بالهاتف أو تنقلها لها آذان مبثوثة في الألوية، تدفع ثمنها من جيبها. الخبر بثلاثة دراهم. راهنت على كسب قارئ يبحث عن الغريب والجديد والمثير. قلّدت الصحافة الأجنبيّة وركّزت على تقارير طازجة يترجمها عن الانكليزيّة والفرنسيّة شابٌ صغير موهوب كان يتردّد على مطبعة الزمان. يهوديٌّ ما زال بالسروال القصير اسمه نعيم قطّان.

في الأول من نيسان ١٩٤٧، نشرت الرحاب في صفحتها الأولى خبرًا عن وصول الآنسة سارة، كريمة السير ونستون تشرشل، إلى



بغداد مع والدها. و"قد حلّ الضيفان في القصر الأبيض. ثمّ اصطحب الأب ابنته في اليوم التالي لعقد قرانها على الشيخ الجليل موحان العبد الله، النائب في البرلمان العراقي. وأُقيمت إثر ذلك حفلة أُنّس وطرب ساهرة حتّى الصباح، حضرها كبار رجال الدولة والصحفيون والوجهاء والأشراف والهيئات الدبلوماسية".

كان للخبر وقع القنبلة في المجتمع البغداديّ. كتبته تاجي بنفسها. كذبة نيسان!

١٢

سمعتُها تترنّم بتلك الأغنية، وأنا على الدرج أصعد إلى شقّتها في ذلك المساء البارد، وعرفت على الفور لماذا تَكَلْبَشتُ بها. كان ما يواصل تقييدي إلى هذه المرأة العجيبة، هو ما تسميه المرحومة جدّتي: القدر المكتوب. صمغ أقوى من أنّنا كلانا ممسوس بتلك البغداد المعشوقة الملعونة. لا أدري كيف وصلني صوتها وأنا ألتقط أنفاسي عند فُسحة الطابق الثاني. غناء تسلّل إليّ من وراء الباب، أنا التي ما عدت أصلح لالتقاط ما تشي به الجدران. لكنّ الحسّ وصلني. بَرَكة من تلك البَرَكات الصغيرة التي ظلّت تفاجئني طوال علاقتي بها.

"يا نبعة الريحان حنّي...

على الوَلهان... حنّي على الوَلهان".

وقفت عند الباب وعجزت أصابعي عن قرع الجرس. رميتُ



حقيبتي الثقيلة عن كتفي وهبطتُ جالسة قرب العتبة، أُسند ظهري للجدار وشفتاي تتمتمان معها، تحاولان التقاط ارتجالاتها الشجيّة:

"جسمي نحَل إي والله

والروح ذابت وعظمي بانْ

يا بويا وعظمي بان"!

إحتقنتْ عيناي. تلك كانت الأغنية المفضلّة لأمّي. ينزل أحد الجيران من طابق علويّ ويستغرب جلستي.

- هل تحتاجين إلى مساعدة؟

- شكرًا. أنتظر صديقتي.

خدعتني مدام شامبيون بحكاية بوليرو. أخفت عني قدرتها على أداء أغانينا القديمة. أنا التي ولدت من رَحِم الموسيقى. عزفتُ وغنّيت ودبكت وصفّقت وهلّلت ورقصت وانتحبت. لطمتُ رأسي بالكمان. كيف لم أنتبه للعذوبة الكامنة في حَنجرتها؟

"ما عندي كلّ ذنوبْ

إلا هوى المحبوبْ... وَيلي... هوى المحبوبْ

لا هوْ ذنب وأتوبْ ويغفر ليَ الرحمن...

عيوني... ليَ الرحمن".

فتحت لي الباب وصدمني منظرها. صاحبة الصوت الأخّاذ شحّاذة تتسوّل على رصيف محطّة. وجدت تاجي شعثاء الشعر، ترتدي قميصًا رجاليًا لا لون له وتنّورة تفتّقت حافّاتها. فردة نعلها



القماشيّ في القدم اليمنى واليسرى حافية.

ـ أين ثيابكِ النظيفة؟

ـ جسمي نحّل يا وديان، وروحي ذابت وعقلي راح يطير.

لم أرَ مثلها من يتماهى مع كلمات أغنية. آخذ بيدها، أعود بها إلى الغرفة التي كانت لاستقبال الضيوف. مضت أيام العزّ ولمّة الخطّار. تحوّلتْ الأريكة العريضة إلى فراش تنام عليه. تسدل شرشفًا يتدلّى ليخفي ما تحت المنام من صناديق.

بللتُ منشفة الحمّام ومسحتُ وجهها. أزلتُ القذى عن عينيها. مشّطتُ شعرها على مهل، مثلما كانت أمّي تمشّط جدائلي في الصباح. تغرس المِشط بحنوّ، في مقدّمة الرأس، ثمّ تهبط به حتّى نهايات الخصلات التي تغطّي كامل ظهري. تحترس ولا تشدّ وتغنّي لي لئلّا توذيني.

"طول طول

مِن هنّانة لباب اسطنبول

شَعر دُنْدُن نَقَر نَقَر

وشَعَر الحسود خره البَقَرْ".

أربط شعر تاجي بمنديل ملوّن. أستلّ كيس زينتي من حقيبتي. أنتف بالملقط الشُعيرات البيض عند ذقنها وحاجبيها وفوق شفتيها. أمرّ عليهما بقلم الحمرة الفاتح ذي اللمعة. أنثر البودرة على جبينها وخدّيها. ألفّ شالها الأبيض حول كتفيها وأرشّ عطرًا على رقبتها. أحتفظ في جيوب الحقيبة بالنماذج الصغيرة التي يوزّعونها لدى العطّارين. أنظر إليها بسرور. أميرة



ناخ بها الزمان. عجوز صغيرة تجرجر تاريخًا أثقل منها. تُقيم في شقّة متواضعة وتُطعم قطط الحي. لكنها حين تُغنّي تملك الدنيا.

لم أصدّق، في بداية تعارفنا، أنّها عرفت كلّ أولئك الرجال. كانوا يتغيّرون حسب الفصول. أحبّها كثيرون ولم تتجاوب مع أغلبهم. إنتقت الفاكهة التي راقت لها، من وجه السلّة. أراني فقيرة إلى قبلة من شلّال القبل التي سقت كلّ مسامّاتها. أشتاق إلى حضن حين أراها مُحتضَنَةً بالصور والرسائل وقُصاصات الجرائد وأنفاس محبوب تائه في مكان ما. ما عندي كلّ ذنوب إلّا هوى المحبوب. تحفظ اسمه وتبحث عنه وتغنّي لخياله. حنجرتها عذبة ونَفَسها طويل ولنبرتها بصمة. إذا تكلّمت تهدّج صوتها مثل سيدة مُسنّة. وإذا غنّت عاد إلى صباه. أغبطها لأنّها قادرة على أن تعود شابّة لحظة يأتيها الغناء. وجدت أمامي، في تلك الأمسية، ساحرة مسحورة تفهم أسرار الطرب أكثر مني. تُجيد ألحاننا القديمة وتعرف، إلى جانبها، موسيقى القوم الذين نُقيم بينهم. أيّ مصادفة ملغومة قادتني إلى تاجي؟

حلّت الأغاني وسيلة جديدة للتفاهم بيننا. أضع الموسيقى قيدًا في معصمها وألفّ القيد الآخر، المربوط بالأوّل، حول معصمي وأُقفله بالمفتاح. نسير مثل شرطيّ يقتاد لصًّا لا مهرب لأيّ منّا عن صاحبتها. أو كفرسي رهان فلا يعرف من يرانا من منّا اللهب ومن سارقة النار. أتردّد عليها ونشوي كستناء الشتاء على مدفأتها. تفوّضني إلقام الشعلة بالخشب وإذكائها بالمِهماز النحاسيّ. تصبّ لي كأسًا بحجّة أنّ الدنيا بردٌ.



- لن يحاسبنا على مشروب يقوّي الدورة الدمويّة.

- هذه فتواكِ أنتِ.

- هل جرّبتِ الكونياك يا وديان؟

- لا والله.

- كيف تعزفين وأنت لا تعرفينه؟

تسألني عن الفرق بين من يُسند ذقنه إلى الكمان ليعزف واقفًا، ومن يجلس ويُسنده إلى حجره، على الطريقة المغربية. أغمغم بتواضع وكأنّني لا أفقه الكثير. أحاول أن أشرح لها العموميّات عن اختلاف طرق العازفين. أتهرّب من التفاصيل. فمنذ أن ضربت مطارق الموسيقى الصاخبة رأسي تزعزعت ثقتي بنفسي. ما نفع عازفة لا تلتقط الخافت من النغمات؟ يَحْدثُ أن أُصغيَ إلى أغنية جديدة فأحتاج إلى أن أرفع صوت المسجّل. أترك التلفزيون يُلعلع بأقصى مدى. أعتمد على محفوظاتي من الأغاني القديمة والمقطوعات الكلاسيكيّة. أكتفي بما هو مخزون من قبل. اللحن الراسخ في ذاكرتي الموسيقيّة. نصف السماع يأتي من العقل. يبقى النغم محفورًا هناك مثل وشم أبديّ.

كان عليّ أن أتأقلم مع محنتي. أرتديها ثوبًا أدسّ فيه كياني حتّى لو لم يكن على مقاسي. لا تأتي العاهات على مقاس أحد. لكنّ مصاحبتها ترفع عنها، مع الأيام، حرج الاختلاف عن الآخرين. هكذا تعوّدت وضعي الجديد. قدَري وأنا محكومة به. لا حلّ مع سمعي الكليل إلّا في استعادة موسيقاي الأليفة. ثمّ يحدث، في ساعة شيطانيّة، أن يركبني عنادي. أتمرّد على قُضباني وأحاول أن أتهجّى لحنًا أسمعه للمرة الأولى. أتعب وأنا



أجتهد لالتقاط درجاته. أركّز كلّ حواسّي الباقية عليه. أنتصر وأتنفّس عميقًا وألعن الشيطان. أو أفشل وأنام حزينة في حضنه.

لم أكره ذلك الوحش لأنّني بسببه هجرتُ البلد. بلدي وأهلي ورَجُلي الذي أحببت. كرهته لأنّه أعطب سمعي وسلبني موسيقاي. مهنتي توأمي منذ وعيت على الدنيا. كان في مقدوره أن يطلق النار بين عينيّ. يشنقني على مدخل المسرح الوطني. يسحلني بين ساحة التحرير وباب المعظّم، لكنّ الموت راحة. وهو أراد أن يتسلّى بتعذيبي ويقهقه مع صحبه. يراني ميتة تسير على قدمين. صمّاء في الضوضاء لا أفقه ما يجري حولي. أتنقّل بدون حقيبة الكمان في يدي. من هذي؟ الكلّ يهزّ رأسه نافيًا. لا هوية لوديان الملّاح بدون آلتها.

في سنّ السادسة، جيء لي بآلة كمان صغيرة تناسب طول ساعدي. وفي العاشرة كانت لي آلة أُخرى أكبر منها. وفي السادسة عشرة امتلكت كماني الثمين المكتمل الحجم والمصنوع من خشب الصنوبر. خِلٌّ رافقني حتّى تعاشق مع أناملي. كبرت وصرت عازفة في الفرقة السمفونيّة مثل أساتذتي. لكنني، يوم أخذني أبي وأنا طفلة إلى مدرسة الموسيقى والباليه، لم أفهم لماذا كان ذلك الرجل الأحمر يُصفق بيديه كلّ الوقت.

ـ ماذا يريد مني "أبو صفقة"؟

ـ صفّقي مثله. كما تسمعينه.

فهمت أنّ تلك كانت طريقة البروفيسور فلاديمير في اختيار التلاميذ. لا بدّ أن يكون لي ثلاث ذاكرات. ذاكرة إيقاعيّة، يصفّق



الأستاذ تصفيقة مُعيّنة ويطلب مني أن أكرّرها وراءه، وسمعيّة، أي أن يعزف لحنًا بسيطًا وعليّ أن أُعيده بصوتي. وذاكرة حَرَكيّة تعتمد على نتيجة الاختبارين الأوّلين. وضعوا آلة بين يديّ وراقبوا تآلف أصابعي وجسمي معها. ذاكراتي الثلاثية حسمت الاختبار. أكّدت قابليتي لتعلّم الموسيقى. وجدت في المدرسة ستّ معلّمات ومعلّمين أجانب. من روس ورومان وبلغار. لا أفهم لغتهم ولا يتكلّمون العربيّة. نتفاهم بالإشارة وألبّي ما يطلبون. أحببت مدام يانا أكثر من غيرها. جورجيّة شقراء مثل شمس. شعر قصير وعينان خضراوان صغيرتان.

مثلما يصبّ معلمو البناء أساسات البيوت، صبّت يانا، بكلّ أناة، أساسي في آلة الكمان. كنا نستمع إليها في الحفلات مبهورين مفتوحي الأفواه. عازفة أولى للكمان في الفرقة السمفونيّة. تمارس فنّها الجميل في سبعينيات بغداد الجميلة. يذهب الرجال والنساء إلى قاعة الخُلد مرتدين أزياء السهرة. سادة وسيّدات كما كنا نرى في الأفلام. أغلبهم من آباء التلاميذ وأمّهاتهم. بينهم مديرون عامّون من وزارات الإعلام، التخطيط، الخارجية، وحتّى الدفاع. يأتي وجهاء معتّقون من بقايا زمن لم أعرفه، يسمّيه أبي العهد البائد، وأثرياء جدد طفوا على سطح المجتمع. ريفيّون تمدّنوا بفضل الصفقات. ينقل الواحد منهم كذا طن رمل ويقبض كذا مليون دينار. حقّقوا نقلة كبيرة حين باتوا يخرجون مع زوجاتهم الثواني والثوالث. شابّات جامعيّات سافرات مُخشّلات بالذهب. يصبغ الرجال شيباتهم وشواربهم ويسهرون في الأمباسي ومطعم فاروق. صبغة مستوردة ذات لون أسود حالك تباع في



سوق الثلاثاء. يُقبل عليها المقاولون وأعضاء قيادة الحزب. يشترك الجدد في النوادي الاجتماعيّة، ويأتون إلى حفلاتنا الموسيقيّة من باب الوجاهة. يُحبّون إيقاعات الخشّابي ورقص الكاولية ويكرهون السمفونيّات. يعتبرون الإصغاء إليها تعذيبًا. يشخرون من أول ربع ساعة، ثمّ ينتبهون عندما يعلو التصفيق.

فيديان. هذه أنا كما تنطقني مدام يانا. تنادينا كما يعجبها وعلى طريقتها. تُطوّعنا للسانها الروسيّ. تقلب الحاءات وتتجاوز الضادات وتقفز فوق القافات. يتغيّر اسمي ويصير أرمنيًّا. حاؤها هاء وقافها كاف وضادها دال. أمّا الظاء، فعقرب تخشاها. أضع يدي على فمي وأضحك من طريقتها في تحوير أسمائنا. قامتي ضئيلة تصل إلى خصرها. ليس بيني وبينها سوى لغة الجسد وتعابير الوجه. لا أعي ما تُبربر به المدام بلغة بلادها. لعلّها كانت تمتدحنا أو تشتمنا وتلعن آباءنا. هداني عقلي الصغير، وأنا بنت ستة أعوام، إلى تطوير أسلوب جديد لكي أحفظ المعلومات في مخّي. وكان رفاقي يقومون بالأمر نفسه، كلّ حسب اجتهاده. نبحث عن بديل للغة. نعثر على مفردات حركيّة خفيّة تحلّ محل الكلمات.

تطلب منّي المدام أن أعزف النوتة وتُبدي ملاحظات لا أفهمها. أتطلّع إليها مُستفهمة. تُمسك يدي اليسرى التي تحمل الكمان وتضغط على الأوتار. تُثبّت كلّ إصبع في موضعه. وسيبقى ذلك الوضع في بالي. لا خيار آخر لي سوى حفظ الحركة بدل الكلمة العجماء. هكذا تعلّمت الموسيقى. وكانت كلّها كلاسيكيّة في المراحل الأولى. أخذتني إلى دنيا مختلفة ليست من هذا الكون. لا أمهات يصرخن على أولادهن في الأزقّة. لا باعة ينادون



على بضائعهم. ولا صفّارات مجنونة لسيّارات الإسعاف أو الشرطة.

يُعطونني مقطوعة لتشايكوفسكي مُبسّطة للعازفين الصغار، أو لبيتهوفن وموزارت، موجودة في كتب أجنبية للأطفال. أتعلّم قراءة النوتات التي هي لغة عالميّة ويشتغل وعيي بفضول. يتفتّح على أفق جديد. أبدأ بفكفكة رموز اللغة الجديدة، أحاول استيعاب إشاراتها الصاعدة والنازلة عن السطور. تُشبهني حين أرقص على درج البيت. ليت الموسيقى كانت كلّ ما أحتاج إليه من معرفة. ففي صفّ موازٍ، كان علينا أن نتلقّى المناهج الدراسية العاديّة. نتعلّم القراءة والكتابة. نخطّ الحروف على سطور معتدلة لا تنزل ولا تصعد.

- غنّي اللحن في رأسك أولًا ثمّ ابدئي العزف.

تشير مدام يانا إلى رأسي وتقوم بحركة عازف الكمان. أفهم أنّها تطلب أن أعزف النوتة داخليًا، قبل أن ألعبها بأصابعي على الأوتار. أتطلّع إلى دفتر النوتات المفتوح أمامي. يكون المسند المعدنيّ منصوبًا بما يناسب قامتي. أحاول أن أنفّذ ما تريد. ثوان قلائل تشبه إلقاء نظرة شاملة على سطر مطبوع قبل التوقّف عنده كلمة كلمة. الفرق هو أنّ الجمل هنا موسيقيّة. مكتوبة بلغة النوتات لا بالحروف الأبجديّة. أتعلّم كيف أُترجم اللحن في رأسي ثمّ أُنفّذه على أوتار الكمان. أعزف وأُخطئ وأُنشّز. أُعيد وأُراجع وأنجح. تزداد التمرينات وأتقدّم في سنوات الدراسة. تترك الأوتار آثارها على أطراف أنامل يدي اليسرى. تمحو بصمة السبّابة تمامًا.

بعد سنوات، حين أردت الحصول على جواز سفر، وقف الموظف حائرًا أمام أصابع يدي اليسرى الخالية من البصمات. وعندما ذهبت أطلب تأشيرة لتركيا، رمقني مساعد القنصل بنظرة ماكرة:



ـ هل تشتغلين مع المافيا؟

قال إنّ غياب البصمات علامة كبار المجرمين وأصحاب السوابق. يكوون أطراف أصابعهم بالنار لكي يزيلوا بصماتهم المحفوظة في سجلّات الشرطة.

ـ إنها ضريبة أوتار الكمان. لكنّ إبهامي لم يتضرّر لأنّه لا يشترك في العزف.

ـ المدموازيل عازفة كمنجة؟

ـ وهل تراني من المافيا؟

الكمنجة. هكذا كان أبي يسمّي آلتي. وحينما يصل إلى كأس العرق الثالثة، يسخر من نفسه ومنّي. الأب الجيّد هو من يشجّع ابنته على أن تكون أستاذة أو طبيبة أو محامية. أمّا هو، فقد سجلّني في نادٍ لركوب الخيل ومدرسة للموسيقى. أرادها مهنة لي، لا هواية للتباهي وملء وقت الفراغ. لم يترك لي وقتًا ضائعًا. أراد أن يراني عازفة محترفة. عمل كان مرذولًا، مكانه الملاهي. وراء المغنّيات والراقصات. يكرّر أبي جملته التي حفظتها عن ظهر قلب:

ـ جدّك المرحوم كان يسمّي العازف "آلاتي"...

ـ ألف رحمة على جدّي. من حظّه أنّه مات قبل أن يرى حفيدته الآلاتيّة.

لم يُفارقني تهافت تلك التسمية إلّا يوم زارنا منير بشير، في المدرسة. وقف وتفحّصنا وأعطانا نصائحه. حذّرنا من العزف في الأعراس والملاهي وحفلات الطهور.



- لستم آلاتيّة للترفيه عن الآكلين والسكارى. أنتم فنّانون.

أنا فنّانة! لن أعزف في مطعم أمام طاولات مزروعة بقناني البيرة. تمرّنت بلا هوادة. تركت حكايات البنات ولازمت الكمان. تحسّن عزفي سنة بعد سنة. أفهم من ملاحظات الأساتذة أنّ لي قدرة سمعية لا تتوافر للجميع. أنتمي إلى أصحاب الأذن المُطَلَقة، أو القُصوى. موهبة تتيح لي التمييز الفوري بين النوتات. يكفي أن أسمع طرقة سكّين على حافة قدح حتّى أعرف أنّها ري أو مي أو سول.

كانت جريمة، أن يمحوَ الوحش بصمة أُذن قصوى. وحين يتراجع سمع العازف تضيع ذاكرته الحركيّة، بديل اللغة والكلام والتفاهم.

ثقبَ طبلتي ففقدت تاريخي.

- أين رحت يا وديان؟

- يمكنك مناداتي دُنْدُن يا تاجي، مثلما تناديني أُمّي.

- وديان أحلى. يُذكّرني بجبال العماديّة. الشلّالات وسهوب النرجس ونايات الرعاة.

تغني لي تاجي يا نبعة الريحان... أنا جمهورها الوحيد الجالس في غرفة خطّارها. تهزّ رأسها بتأنٍّ في حركة دائريّة على عادتنا، في الشرق، عندما نطرب. وكنت، حين أعزف في الأوركسترا، أختطف نظرات إلى المستمعين. أفرز من هو أوروبيّ ومن هو عربيّ. يهزّ أهلنا الرؤوس حتّى لو غنّيت لهم: إحنا مشينا للحرب.



١٣

يرث قسم من البشر الثروات عن آبائهم. كما يرثُ قسمٌ آخر أمراضًا وراثية. وكان من نصيب ابن الشيخ أنّه ورث نفوذًا على العباد. سطوة لم يعرف كيف يتصرّف فيها فراح يُبدّدها في فنون الشرّ. يبتكر أنماطًا مُستحدَثة منها لإقلاق الراحة. مُبدع في الإزعاج ومتفوّق في الانتهاك والترويع. منحته الحاشية مركز أستاذ بدون أن يطلبه. مُنافقون يتكاثرون ذبابًا في كلّ زمان ومكان. يبصق واحدهم لُبان المراوغة في فم زميله. يعلكه الثاني. يمتصّه. يمطّه وينفخه فقاعة كبيرة في وجه الأول. تنبت شجرة الخديعة في متنزّه الزوراء. أكبر حدائق المدينة. يعكف خبراء النباتات النادرة على ترقيد جذورها وتكثيرها. تمتدّ الأغصان والفروع وتغطّي حدائق المنازل في بغداد. تبلغ حقول القمح في الشمال وغابات النخيل في الجنوب. تلوّث قصب الأهوار. تظهر في البلد قبيلة جديدة: بنو نفاق.

حتّى أبوه لم يهتمّ بحمل اللقب. تكدسّتْ عليه تسميات أخرى أكثر إعجازًا. بات على الأساتذة الحقيقيّين أن يتوارَوا عن طريق الولد. تنازلوا له عن اللقب بمذلّة وطيب خاطر. وهو سعيد مُتشفّ بهم. ينادي مُعلّميه كما يحلو له، أبا أوس أو أبا تمارة. ينزِع عنهم درجاتهم العلميّة التي شابت رؤوسهم في تحصيلها. يتبوّل على شهادات الدكتوراه وهو لاهٍ وثَمِل، يلعب بالرشّاش.

كان في الثانية عشرة، فحسب، حين حار أساتذته كيف ينادونه. إنّ مخاطبته باسمه المُجرّد تعني مساواته ببقيّة التلاميذ.



وهو ليس مثل البقيّة. ليث أو سعد أو علي أو فادي. وأبوه ليس مثل آبائهم. إنه كبير شيوخ البلد، وابنه ابن كبير الكبار. وكان المعلّمون يتحرّجون حين يسمعونه يخاطبهم باللقب المعهود في المدارس. يرفع إصبعه ويصيح: أستاذ. يتلفّتون حولهم، يدفعون الشبهة عنهم. يبادلونه التسمية. أُستاذ. ينطقونها بمنتهى القناعة. تطلع من أفواههم يسيرة وطبيعية وكأنّ الأستذة وُلدت معه في القماط. كان اللقب يعجبه ويبهجه ثمّ صار يعتبره مُلكًا صرفًا. تخلّى عن مناداة مُعلمّيه به. صار واحدهم "الفيلسوف" أو "أبو الجغرافيا" أو "سيبويه" أو "الأقرع".

تصوّر الشيخ أنّه سيربّي ابنه تربية قويمة حين يُلحقه بمدرسة أبناء الذوات. ولم يكن قد بقي من ذوات أيام زمان سوى ديناصورات متكلّسة. الذوات الجدد مقاولون ولاجئون سياسيّون من دول مجاورة وحزبيّون في القيادة وضباط نالوا رُتبًا وأنواطًا بسرعة الضوء. يذهب الأستاذ المراهق إلى مدرسته التي أممتها الدولة، راكبًا سيارات تتبدّل حسب مزاجه الصباحيّ. أوستن إنكليزيّة صغيرة بمواصفات مصنوعة خصّيصًا له. أو سيارة سباق فضيّة شيفروليه كورفيت ذات زجاج زئبقيّ فضيّ. وأحيانًا عربة مُهجّنة، نصفها الأماميّ بي أم والخلفي ترانز أم، حمراء بسقف أسود من الجلد وبمقاعد بيض. يرتدي قفازات للقيادة مثقوبة عند سلاميّات الكف. يخلعها عند الوصول ويتركها على المقعد المجاور، بجانب الرشّاش. لا يملك رخصة قيادة لأنّه لم يكن قد بلغ الثامنة عشرة. يسوق سيارته مُسرعًا ويصطفّ فريق من شرطة المرور على جانبي الطريق، من بوابة القصر حتّى المدرسة. يؤدّون



له التحيّة وهم يغضّون الأبصار. لا يرفعون الأعين. يتبعه موكب رجال الحماية والإسعاف الطبي. يصل التلميذ إلى الثانويّة ولا يوقف سيارته في المرأب، بل يركنها في الداخل. أمام ساحة الإدارة. يبقى الحرّاس الذين يرتدون الزيّ المدني أمّام باب الصف، طوال ساعات الدوام.

صفوف مُشيّدة من طابوق أصفر مثل قلعة عتيقة، أسّسها رهبان يسوعيون ثمّ انتُزعت منهم. حجرات الدرس كبيرة عالية السقوف. لم تُعجب التلميذ الجديد حين التحق بالصفّ الأول المتوسّط. تطوّع بنو نفاق، بلمح البصر، وهيّأوا له صفًا خاصًا في مبنى الإدارة. يداوم وحده في الشعبة أَلِف مع المختارين والمتفوّقين من رفاقه. الأرضيّة مفروشة بالسجاد الأخضر والمناضد من الخشب الصاج. كراسي التلاميذ عاديّة وكرسيّه مكتبيّ دوّار من الجلد الفاخر. ليس للمُدرّس ما يماثله. يضعون له منضدته وسط الصف. إلى يساره مكيّف للهواء خاصٌّ به، مُوجّه نحوه فحسب، رغم أنّ للمدرسة نظامًا للتبريد المركزي. ليس من اللائق أن يتعرّق الأستاذ في أيام القيظ. العرق لمن تفوح آباطهم وهم يشيّدون الجسور ويخصّبون اليورانيوم ويزرعون العنبر ويموتون آلافًا مؤلّفة في الجبهات.

في فراشه لم يكن يشعر بحرارة ولا ببرد. أجهزة التبريد والتدفئة في قصوره مبرمجة لتتبّع تقلّبات الجوّ وتتابع الفصول. وفي الأسرّة العديدة التي تؤثّث غرف نومه، هناك مُنظّم إلكترونيّ يعمل بحسب الشرشف الذي يتغطّى به. ترتفع حرارة الغطاء عن درجة معيّنة فتنخفض درجة التدفئة تلقائيًا. وإذا فسا الأستاذ



تهرش الأجهزة المتطوّرة رؤوسها لكي تتابع حرارة فسائه وتتصرّف لتخفيفها وتطييب رائحتها. أرسل مهندسين في دورات إلى ألمانيا واليابان لكي يأتوا له بأحدث الاختراعات. إستبقى عائلاتهم رهائن حتّى عودتهم. من يهرب منهم أو يطلب اللجوء فإنّ أسرته ستُباد.

في الصفّ السادس حصل الأستاذ على مجموع ٩٩.٩٩ في المائة. نسبة أبيه ذاتها في بورصة الولاء الجماهيريّ. صار الرقم مسخرة مكتومة لأهل البلد. كانوا في أمثالهم الشائعة يصفون من يروي كلامًا لا يصدّقه العقل، بأنّه "يحكي تسعة بالشهر". صاروا يقولون "يحكي تسعة وتسعين". يتداولون النكات خلسة عن النسبة الخرافيّة. يتساءلون عن ذلك المواطن "إبن الكلب" الخائن العميل الذي خالف المجموع وكان صاحب الصفر فاصلة صفر واحد في المئة.

أنهى ابن الشيخ الثانوية ودخل كليّة الطب. لم يدخلها وحده. دعا معه كلّ رفاق الشعبة ألف. كأنّهم ذاهبون إلى حفلة أو نزهة. حتّى من كان يريد منهم أن يدرس العلوم أو الصيدلة أو الرياضيات، وجد نفسه مجبرًا على الطبّ. ثمّ انتهت النزهة. بعد شهر من الدوام وجد الأستاذ أنّه لا يحبّ الطبّ، فقرّر الانتقال إلى كليّة الهندسة. ترك وراءه من شاء البقاء، وتبعه إلى الهندسة من تبعه. فتح بنو نفاق صفًّا خاصًّا لهم لكي يلحقوا ما فاتهم من محاضرات. صار يذهب إلى الدوام بسيّارة أقلّ استعراضًا من سياراته السابقة. مرسيدس مصفّحة يقودها بسرعة جنونيّة، تحمل على بابها شعار الجمهوريّة.



لـمّا انتقلت كليّة الهندسة من موقعها التاريخيّ في باب المعظّم إلى مجمّع الجادريّة، كان يدخل بسيارته من بوابة خلفيّة خاصّة، بجانب نادي الفروسيّة. لا يُسمح باستخدام تلك البوابة لغير صديقته. تدخل بسيّارتها السبور، وتركنها في مرأب الأساتذة. لكلّ أستاذ موقفه المُرقّم. لا أحد يتجاوز على أحد. وكان الرقم واحد باسم الستّ نرمين، ابنة وزير سابق درست في الخارج وأصبحت مُدرّسة للتصميم وفنّ العمارة. مرّة أخرى، يتطوّع بنو نفاق ويصادرون مكان سيّارتها ويعطونه للطالبة صديقة ابن الشيخ.

لا أحد يدري كيف تدور دوائر الشرّ في عقل الأستاذ. تنبثق نوازعه المريضة بدون مقدّمات. دُرَرٌ سودٌ مُبتكَرة يستحقّ أن ينال عليها براءات اختراع. ليس مثله من يستنبط الوسائل للحطّ من قَذْر الأوادم. يصطفي من يروقه من مُدرّسيه لكي يضمّهم إلى حلقة الندامى. يَمَنُّ عليهم بمشاركتهم لعب الورق، أو يدعوهم لرحلات صيد. تقع عينه على العائدين حديثًا من التخصّص في الجامعات المرموقة. يفضّلهم شبابًا من الرياضيّين، أصحاب الحسّ الفكاهيّ. يتقبّلون تجاوزاته على أنّها مزاح عابر بين أصدقاء. لكنّه لم يكن صديقًا لأيّ منهم. يخشونه حدّ مقت النفس والتفكير في الانتحار. الموت هو الحل الوحيد للخلاص من مطارداته. يتلذّذ حين يُقلقهم في بيوتهم، أيام العطلة والأوقات العائلية. يتّصل المرافق هشام بأحدهم، بعد الدوام، ويخبره أنّ الأستاذ يريده. متى؟ لا أحد يجرؤ على السؤال. يبقون ساعات قيد الانتظار. مثل عسكر في حالة الإنذار. تكبس على البيت سحابة من الكآبة تخنق أنفاس الزوجة والأطفال.



نفخ الدكتور يوسف صدره يوم تلقّى أول مكالمة من هشام. كان قد التحق حديثًا بهيئة التدريس في كلّية الهندسة. يسمع عن زملاء له متكلّسين في الوظيفة، يخافون من ظلالهم، وآخرين يتحدّثون بالصوت العالي، مزهوّين لأنّهم من زمرة الأستاذ الطالب في السنة الثالثة، القسم المدنيّ. لم يكن يدري ما الذي ينتظره. لم يتوقّع أنّه سيأكل الخراء بعد فترة قريبة. ثمّ عرف أنّ هناك من يبتلعه مُرغمًا، وهناك من يُقبل عليه بشهيّة. الصنف الثاني هم أولئك الذين يطلبون العلى ولو على خازوق.

ذكّرته وديان بأنّهما مدعوّان للعشاء في بيت عمّها، فطلب إليها أن تعتذر. موعده مع الأستاذ أهم مئة مرّة من أكل الدولمة مع عمّ خطيبته. ورغم حرارة تمّوز، ارتدى بدلة وربطة عنق. أكّد له المرافق هشام أنّه سيطلبه مجدّدًا ليُبلّغه مكان اللقاء. جلس مستعدًّا عينه على الساعة. إنتظر من الرابعة بعد الظهر حتّى أوشك الليل أن ينتصف. تكرمشت سترته وابتلّ قميصه بالعرق. كاد يستسلم للنعاس حين رنّ الهاتف في الحادية عشرة وخمسين دقيقة. صوت هشام يطلب منه أن يتوجّه إلى القصر الصغير ويترك سيارته عند البوابة. ستأتي سيارة أخرى لتنقله إلى الداخل. رشّ الكولونيا على وجهه وغادر البيت على عجل. لم تتمكّن شقيقته من اللحاق به لتسأله إلى أين يذهب في آخر الليل.

تلك كانت السهرة الأولى من حلقة جهنّمية ستُطبق على عنقه بالتدريج.



١٤

يمكن للزلازل، للحروب، للمرض ولأوراق اليانصيب أو الغرام الصاعق تحريف مصائر البشر عن مساراتها. هذا ما يحدث في البلاد البعيدة الرخيّة أو حتّى التي تتسوّل المساعدات. وفي بلاد أخرى تتكفّل السياسة بالمهمّة. ينتمي الشباب إلى أحزاب سريّة. يطلبون الوطن الحرّ والشعب السعيد. وحدة الأمّة. طاعة الفقيه. ثمّ يدخلون السجون، ويأتي من يتسلّى بهم. تُقتلع أظافرهم. تُشتم أُمّهاتهم. يُبصق على لحى آبائهم. تُغتصب شقيقاتهم. يعلّقونهم في المراوح. يُجلسونهم على قناني البيرة. تتفتّق المؤخّرات وتنبعج الكرامة. أمور عاديّة لا يتوقّف عندها سوى بطرانيين ينشطون في منظّمات حقوق الإنسان.

منذ فتحوا أعينهم على الدنيا والسياسة تدسّ أنفها في أفواههم. تُشارك الناس صحن الرزّ وقِدْر البامية. يأكلونها ويشربونها ويثردون في شعاراتها خبزهم. ينتهون بفَقّاعات فكريّة وبغازات آيديولوجيّة في المعدة. أوطان لا توزّع بالقسطاس سوى القسوة. مسارات مُنحرفة ومصائر مبعثرة ملعوب بها. مرميّة مثل أحجار نرد. كاذب هو ذاك الذي يمكنه أن ينام وهو مطمئنّ إلى غده.

أغفت تاجي عبد المجيد على حرير واستيقظت على خيش. ولولا معاهدة بورتسموث بين العراق وبريطانيا لما انحرف مصيرها، ولا كانت هناك مدام شامبيون. سارت أمورها على ما يرام. جرّبت أن تكون شابة حرّة في مجتمع مأسور. لها مجلّتها واسمها وعلاقاتها مع القصر ونوري باشا. تحفظ شروط اللعبة ولا



تحاول أن تتمرّد عليها. التمرّد لعبة مراهقين. وهي لا تريد أن تفقِد ما حصلت عليه برفّة رمش. لا يزعجها أن تتسلّم بعض الافتتاحيات والمقالات التي تأتيها جاهزة من مديريّة الدعاية. تتوافق معها في الرأي. تُلقي عليها نظرة سريعة، وترسلها إلى المطبعة. هم يقومون بشغلهم، وهي تقوم بشغلها.

حتّى الابتسامة الصفراء لذلك السكرتير تعوّدتها. يزورها بدون موعد. يحمل بيده غلافًا مُغلقًا. لا يُجيد سوى بضع كلمات.

- شلون الصحّة... كلّ شي تمام؟

- الحمدلله.

- الجماعة يسلّمون عليك.

- الله يسلّمهم.

يضع الغلاف على المكتب ويغادر قبل أن تطلب له الشاي. لا ترغب في أن يُطيل الزيارة. إشارته للجماعة تزعجها. تعرف من المقصود. وهو يعرف ما تؤدّيه لهم من خدمات. قنصوها منذ اليوم الذي ذاع فيه صيتها وبلغ الأُذنين النهمتين لبهجت العطيّة. بعبع المعلّمين الشيوعيّين والعمّال وطلبة الكليّات. أمّا هي، فلم تفعل ما يجعلها ترهب جانبه. كانت ابنته معلّمتها في المدرسة. تسمع ضحكاتهم كلّما أدارت ظهرها لتكتب على السبّورة. تلتفتْ وتطرد من الصف الطالبات الأربع الجالسات في المقدّمة. تقف بنت عرمة وتعترض على طرد زميلاتها وتؤكّد أنّها سبب الشغب. لقد قامت بحركات بهلوانية لتسلية زميلاتها وهي التي تستحقّ العقاب.

- أنا المعلّمة والقرار لي.



ـ قرارك ظالم يا آنسة.

تأخذ تاجي طريقها نحو الباب، لكنّ الآنسة تُمسك بها من رقبتها وتُجلسها في مكانها وتغادر الصف. تذهب لاستدعاء المديرة. حكاية طويلة لم تنته إلّا بحضور محقّقين من الوزارة. تعاطفت المديرة اللبنانية مع التلميذة التي رفضت الاعتذار ودافعت عن موقفها بحجّة لا تُغلب.

بيد من حديد يُمسك بهجت العطيّة شؤون الأمن في المملكة. كلّما التقى نوري السعيد حذّره من هذا وذاك. يردّ الباشا بأنّ "دار السيّد مأمونة". يحمل الاثنان لقب باشا، لكنّ تاجي عبد المجيد تحتفظ به للباشا الكبير. غيره خردة .

هو الذي حكى أن فيصل الأول خرج في زيارة تفقديّة لألوية الجنوب فوقفت امرأة على الطريق تدعو له: "عسى أنك باشا يا فيصل" . كيف كان للريفيّة أن تعرف أن الملك فوق الباشوات؟ لذلك لم تشعر بالوجل يوم استدعاها مدير الأمن إلى مكتبه. دخلت عليه بنظّارتها السوداء وبدلتها الكحلية مثلما كانت تدخل على الوزراء والمتنفّذين. لها ثلاث أوراق مهمّة في يدها. صداقتها لرئيس الوزراء، وموقعها كصاحبة مجلة يرعاها القصر، وجمالها الذي يمنحها حصانة في مجتمع مغلق. الوجه الحسن سُلطة.

سلّمت على الرجل المرهوب الجانب فوجدته مُجاملًا، خافت الصوت، أبيض الفودين. ويا للعجب... به شبه من نوري السعيد.

ـ شلون الأحوال؟

ـ الحمد لله.



ـ أنتِ، يا آنسة، ترتادين الحفلات. تنشرين قصائد الشعراء وتُجاملين الرسامين.

ـ نعم. هذا شغلي.

ـ تخالطين السفراء والقناصل والملحقين العسكريين.

ـ مصادر أخبار.

ـ هؤلاء لا يهمّوننا. نعرف كيف نُداريهم. ما يُقلقنا حفنة من أصحاب الأفكار الهدّامة.

ـ هذا شغلكم.

ـ نريد منكِ أن تتسمّعي لما يقولون. يخدعون البسطاء. ينشرون كفرًا مستوردًا غريبًا علينا...

ـ بلى...

ـ فهمتِ يا بنتي؟

ـ تريدني جاسوسة، جنابك؟!

ـ حاشاكِ، بل مواطنة حريصة على وطنها ومليكها.

خرجتْ من عنده حائرة تتخبّط. خطر ببالها كلّ شيء. إلّا مُخبرة لبهجت العطيّة. خافت وارتبكت. لم تنمْ تلك الليلة. لكنّها، بعد أسبوعين، استقبلت السكرتير وأعطته مغلّفًا وأعطاها ما يشبهه. في الأول تقرير بخطّ يدها، وفي الثاني رزمة دنانير. زيارات تتكرّر وفلوس سهلة مقابل تقارير لا تقول شيئًا. تكتب ما تسمعه من نميمة على ألسنة زوجات الضبّاط. كلام عابر بين المحرّرين وزوّار المجلّة. نقاشات عاديّة حول الوضعِ في العالم. واشنطن الواقفة شوكة في حلق السوفيات. يهطلُ المطر في



موسكو فيفتح الشيوعيون مِظلّاتهم في الكرّادة. مُغنّية يهودية تعاشر وزيرًا ونائبين. غلاء السكائر المستوردة. هذر مذر وثرثرات تتسلّى بتدبيجها وهي تضحك في سرّها. ولم يكن العطيّة ساذجًا. مدير الأمن ذئب عتيق. إبن آوى. فهم مناورتها وأوقف مغلّفات الدنانير، لكنّ الافتتاحيّات المكتوبة في مديريّة الدعاية استمرت تصلها. تُلقي نظرة عليها وتنشرها بدون شطب أو تغيير.

لم يسألها نوري عن بهجت. تقاليد باشوات. كلٌ يلعب في ملعبه ولا قَدَم تدعس على قَدَم. خمّنت أنّه عرف بما تقوم به. تجاهَل الأمر وأكبرتْ فيه التجاهُل. صارت زياراتها له تجبيرات تدعم معنوياتها التي ثلمتها المُغلّفات المُهينة. أوراق بنكنوت جديدة خارجة من مطابع لندن. يعشق الكثيرون ملمسها ورائحتها. وهي الخبيرة بعطر الأحبار، تشمّ في تلك الدنانير نَتَنًا. تخاف أن تنفقها على نفسها وطعامها وشرابها. ستكون زُعافًا يُفسد وجدانها. توزّعها على عمّال المطبعة. تتصدّق بها على الدراويش والمتسوّلين عند أبواب الجوامع .

لا تتخلّف تاجي عن زياراتها لجناب رئيس الوزارة. تسأل عنه وتذهب إليه في واحد من مكاتبه. تشرب بعقلها ما يرويه لها. تركة الحرب ثقيلة والعالم ما زال يئنّ. ملايين الأمّهات والزوجات يبحثن عن جثث أحبائهن. مقابر عسكرية تنمو في أوروبا وأميركا واليابان وشمال أفريقيا. تنبع في قلوب المدن الكبرى صروح تذكاريّة للجنود المجهولين. تسجّل ملاحظات ولا تُطيل الزيارة. تعرف حدودها. مكتبه ليس غرفة للاستقبال. لم يفتح كتاتيب. تراه، بحاجبيه الكثّين الأسودين وشعره الأبيض، أقرب إلى أمير



خان، أبيها الذي لم تعرفه إلّا في الصور. يربّيها الباشا ويقدّم لها العالم على صينية. عزّ الطلب. لا تريد أكثر. وهو، ماذا يريد منها؟ لعلّه يشتاق لنفحة شبابها في مكتبه. دواوين الحكومة مبانٍ كئيبة من أيام العُصْمَلّي وهي فراشة بشّارة. يتشاقى معها بلهجة بغداديّة لم تكن تسمعها وهي طفلة في الشمال. يفطر معها ويطلب لها خبز التنّور والقيمر. يشرب الشاي ويتناول لقمة واحدة. لا غير. يتفرّج عليها وهي تأكلُ بتلذّذ. يضحك وهي تلحس الدبس. قطيطة سمراء تُسلّيه وعليه تسمينها. ثمّ ينقلب مزاجه. تسمعه يغضب في التلفون ويرفع صوته. يتفوّه بعبارات لا تليق بأصحاب الجناب. تحمل حقيبتها وتُغادر على رؤوس أصابعها.

يوم تلقّت دعوة من القصر لحضور الحفل المُقام على شرف أمّ كلثوم، أعطاها عنوان أرمنية تُدعى نونوش.

ـ باشا، نونوش إمرأة أم قطّة؟

ـ خيّاطة تتعامل معها أميرات العائلة المالكة.

ـ تريدني أن أكتب عنها؟

ـ أرى، يا خانم، أنّك تحتاجين إلى فستان لائق للسهرات.

أوّل مرّة يخاطبها بلقب خانم. كان يقول: يا بُنيّتي. يا آنسة. يا صحفيّتنا الحلوة. صاحبة النظّارة السوداء. أمّ القبّعة البيضاء. وفي مرّة من المرّات غضبت لأنّه صاح بها: يا غشيمة! أمّا وقد رفعها الباشا إلى مرتبة خانم، فهذا يعني أنّه صار يراها امرأة حقيقية. بلى، الخوانم يحتجن إلى ثياب خاصّة للسهرات. لا يحضرنها بالطقم النيلي الذي يشبه زيّ مديرات المدارس. ما المانع من أن يكون لها فستان ممّا تلبسه الأميرات؟



خاطت لها الأرمنيّة ثوبًا طويلًا من حرير بلون العشب المسقيّ توًا. لأوّل مرّة في حياتها تتردّد على خيّاطة محترفة تأخذ مقاساتها بالمازورة. تعود إليها بعد يومين لبروفة أولى، ثمّ ثانية. ينتهي الحفل ولا تكمل الخيّاطة الفستان، لكنّ تاجي تجد متعة في تلك المواعيد. هناك، في بيت نونوش، رأت مُغنّيتها المفضّلة لأول مرّة. جمدت أمام سليمة باشا والتجّ عليها الكلام. لا تعرف كيف تعبّر عن إعجابها بصاحبة أجمل صوت في بغداد. فكّرتْ في أن تطرح عليها أسئلة لمجلّتها ثمّ تحرّجت. المقابلات الصحفية لا تجري بين المقصّات والدبابيس. ستطلب منها موعدًا للقاء في مكان أنْسب.

وجدت تاجي في الذهاب إلى الخيّاطة نوعًا من الأبُّهة. فرصة للتعرّف على طبيبات ومديرات مدارس وعقيلات وزراء وسفراء. ينبوع لأخبار وأسرار ومقابلات تتصدّر مجلّتها. لذلك تمنّت ألّا ينتهي فستانها وتتوقّف زياراتها. فلمّا صار جاهزًا وارتدته للتجربة، شهقت نونوش وهي تتأمّل روعته على قامة زبونتها.

ـ ما شاء الله!

تقف بفستانها الجديد أمام المرآة الكبيرة وتعود طفلة. ترفع ذيل الثوب كأنّها تهمّ بصعود درج. تدور حول نفسها مثل المانيكانات في أفلام السينما. لا ترى أمامها تاجي عبد المجيد. الصحافية التي تحمل آثار الحبر تحت أظفار كفّيها. هذي تاج الملوك ابنة زينة السادات، وأمير خان إيمانلو ظافري. اسمها المسلوب منها. ماض لا تذكر منه إلّا ما تراه في صندوق الصور. أب واقف بثياب العسكر. نياشينه على صدره. يتدلّى سيف من حزامه إلى جنبه. جزمة طويلة حتّى الرُكبتين. ساق تتقدّم على



ساق. عينان سوداوان عميقتان، وحاجبان مرفوعان وشارب كثّ. وهي بفستانها الطويل تليق بأب مثله. هل تملك ثمن كلّ هذا؟

تلتفت إلى الخيّاطة وحيرتها في عينيها. تبتسم المرأة السمينة:

ـ الحساب واصل يا مدام.

لا، هذا كثير. كان لقب خانم أقصى سعادتها. لم يقل لها أحد يا مدام. ولا حتّى سفير فرنسا الذي كان يناديها بالآنسة رئيس التحرير، بكلّ الفذلكات الجميلة للبروتوكول. "مدموازيل لا ريداكتور اون شيف". تطرب للنداء وهي تقدّم إليه يدها يلثمها مُصافحًا. سفراء ووجهاء قدّموا إليها أوراق اعتمادهم ولم تُقدّم أكثر من كفّها الصغيرة السمراء. حتّى فستان السهرة الطويل لم ترتده إلّا أمام المرآة. ذاك الذي باخضرار العشب بعد ليلة ماطرة. طوته ورتّبته في أعلى الدولاب. خافت من أُمّها التي تهابها. ظلّت تراقبها من بعيد. ستعرف زينة السادات بأمر الفستان حتمًا. بغداد صغيرة وأخبار تاجي وصورها منشورة في الجرائد. ماذا تُجيبها إذا هي سألتها: منين؟

ضربتْ البلد، ذلك العام، أزمة طاحنة. شحّتْ الحنطة وقلّ الشعير وارتفع سعر الخبز الأهليّ الذي يباع حرّا في الأسواق. لم يعرف العراقيّون غلاءً في قوت يومهم مثل ذاك. ولو وجدوا ثمن الخبز فإنَّ الموجود منه رديء. تقدّمت الجبهة الدستوريّة التي تجمع نوّاب البرلمان المعارضين باستيضاح إلى الحكومة. كتبت تاجي في مجلّتها مقالًا في الصفحة الأولى بعنوان: أعطِنا خبزنا. روتْ في المقال حكاية ماري أنطوانيت، زوجة ملك فرنسا لويس السادس عشر.



سمعت الملكة جموع الشعب الجائعة تصرخ تحت نافذة قصرها، تطالب بالخبز، فقالت لحاشيتها: لماذا لا يأكلون البسكويت؟

بعد حفلة أمّ كلثوم، قرّرت أن تعتذر عن عدم تلبية دعوات القصر. لا تستعجل الدخول إلى دنيا الخوانم. ستشكر الباشا وتعيد الفستان للخيّاطة. كأنّه يسحبها معه إلى كهولته ويطفئ جذوة صباها. وجدت نفسها تميل إلى حلقات الرسّامين الشباب العائدين من أوروبا. تنضمّ إليهم حين يجتمعون في بيت أحدهم. يستمعون إلى الموسيقى ويُقيمون احتفالًا إذا وصلتهم أسطوانة جديدة. يجلسون حول الغرامافون في الصالون، حين يكون الداعي متزوجًا وله منزل. أو يتجمّعون تحت الدرج إذا كان المُضيف يسكن بيت العائلة. تذهب إليهم ولا تدعوهم إلى بيتها. تترك لخيال كلّ منهم أن يرسم صورة لمخدعها. شراشفها. طاولة زينتها. لا تريد لهم أن يعرفوا أنّها كانت تقيم نزيلة لدى طبيبة معروفة. فلمّا صارت لها مجلّتها والتزاماتها الليليّة، استأجرت حجرة في بيت يجمع أربع عائلات. لكلّ عائلة غرفة كبيرة. يشتركون في موقد الطبخ وطشت الاستحمام وبيت الأدب. يراها أصدقاؤها مُشرقة أنيقة بقمصانها الحسنة الكيّ، وتذهب بهم الظنون إلى أنّها من بنات العزّ، ساكنات القصور التي على الشط.

لم يمشِ معها أحد من حلقة الرسّامين إلى مكان سُكناها. تعرّفوا عليها في حفلات السفارات التي تُقام في الأعياد الوطنيّة. ينتظرون تلك المناسبات ويجدون فيها فرصة لاحتساء مشروبات أجنبيّة وعرض لوحاتهم على الدبلوماسيّين. فنّانون وشعراء في أول طلعتهم. يتجادلون ويتحمّسون للتجارب الحديثة. يملأون الدنيا صخبًا من جيب فارغ لا يسمح بأكثر من ربعيّة عرق في ليالي



الخميس. موهوبون فقراء ينتظرون أيّامًا أكثر رفاهيّة. لكنّهم سعداء. يحبّون النساء ويرسمونهنّ وتتلوّث قمصانهم بالزيت. ينحتون الطين ويزجّجونه ويفخّرونه. يوزّعون القصائد المنفلتة من قيود القوافي. وبين شطحة وشطحة، يتغزّل أحدهم بها. ولو جمعت كلّ الأشعار التي أُلقيَتْ على حافّات تنّورتها لأصبح لديها ديوان كامل. تُحبّهم وتحنو عليهم وهم على الحافّة بين السُكْر والانتباه. ترقص معهم. تشرب وتضحك وتودّ لو لا ينتهي المساء. الليل هو قارورة الأسرار والكلام الساهي الذي يمحوه النهار. وهي سمكة في نهرهم. تدافع عنهم وهم يدافعون عن فنونهم ضد كارهي الجمال.

- التشخيص حرام.

- بل الموهبة نعمة والكفر بالنعمة حرام.

- هذي أصنام...

- هل رأيتمونا نعبدها؟

تشبّث بعضهم بالتيارات التجريديّة المعاصرة. وكان بينهم من اجتهد للعثور على لوحة ذات هويّة محليّة. يستلهم الثماثيل البابلية والثيران المُجنّحة. أو يجد ضالّته في جماليّات الخطّ العربيّ والزخارف والأهلّة والرموز الإسلاميّة. كما ظلّ هناك من يرسم بريشة منقوعة بألوان النورماندي وأرياف ويلز، مأخوذًا بالمدارس الفنية في الغرب. يجتمعون ويتحدّثون عن أوروبا جنّة هذا الكون. سافروا إليها في بعثات على حساب الحكومة، ثمّ قطعوا دراستهم وعادوا عندما وقعت الحرب. لم يسمعوا قصص الباشا عن القنابل التي سخّمت وجه لندن وأحالت شيفيلد خرابًا. لا يصل إليهم صفير الريح في حطام برلين. ولا الغراب الذي ينعب فوق جثث درسدن. لم تُبتَرْ



لهم قدم تجمّدت في بسطال جنديّ روسيّ. لا يتصوّرون باريس مقهورة تحت سطوة الغستابو. تستقبل المُحرّرين الانكليز والأميركان بالزهور. تتسلّق صباياها العربات المدرّعة لتقبيلهم والتقاط الصور معهم. هذا هو الوجه الموجب للصورة. الوجه السالب جماهير منفلتة من عِقالها. تنصب المشانق للمتعاونين. تحلق رؤوس آلاف النساء من عشيقات النازيّ. تستعرضهنّ في الشوارع عرايا. ترجمهنّ وتبصق بين أعينهنّ. خائنات فتحن للألمان المقاهي والمسارح والسيقان. ولدت الفرنسيات من المُحتَل مئتي ألف طفل. وسيحملن آلافًا أخرى من الجنود المُحرّرين.

لا مهرب لتاجي من حكايات نوري السعيد. تُصغي إليه باهتمام وتتركه يُشكّل عقلها. كأنّه يعرف كلّ شيء. له حنفيّة تصبّ في رأسه أخبار العالم على مدار الساعات. يقرأ صحافة لندن والقاهرة وأنقرة. يُلقي لها بالعناوين العريضة أو الفُتات. أُذناها تلتقطان وذاكرتها نابهة. تعود، في ساعات العصر، إلى رفاقها الرسّامين. يشكّلون الجماعات الفنيّة ويُقيمون المعارض هنا وهناك. تتعرّف من خلالهم على محاولات جديدة في الكتابة، لم تكن تخطر على بالها قبل سنوات قلائل. الويل، في مجالس زوج أمّها السيد عبد المجيد، لمن يتجرّأ على عمود القصيد. وهنا شعر مُتفلّت ومسرح وموسيقى. تغرف وتفتكّ ثقافتها الحديثة افتكاكًا. تسمع عن الوجوديّة والسورياليّة والجاز وحركات الزنوج. أبناء جنيّات لهم أسماء بشر. سارتر. كامو. شابلن. أراغون. والت وايتمان. فيتزجيرالد. جوزفين بيكر. لورانس أوليفييه. بيلي هاليداي. يطيش



رأسها بشياطين طيّبين ولُقطاء متمرّدين ينالون نوبل. ترتّب عقلها لكي تجد لهم موضعًا مع البحتري والمتنبّي والمعرّي والجواهري. هؤلاء جوقتها التي كانت تُطربها وهي تتلفّع بعتمة الدرج في بيت الكاظمية. تلك دنيا وهذه دنيا أخرى تلوح من وراء الحدود. أفكار تحرّض شبابها. تُخرجها من التحنيط وتبعثها حيّة.

ـ آرمسترونغ، هل سمعتِ به؟

ـ من يكون؟

ـ عفريت أسود ستحبّين موسيقاه.

يُخرج أكرم شكري الأسطوانة الكبيرة من غلافها. يمسحها من الوجهين بمنديل ناعم. يضعها على الجلدة السوداء الدوّارة. يرفع ذراع الإبرة ويُنزلها حيث يجب. تثيرها الخشخشة التي تسبق انطلاق اللحن. تدغدغ ترقّبها. يستمعان إلى الأغنية مرّة أولى. ما هذا يا إلهي! يدير الرسام الأسطوانة ثانية. تعود الخشخشة وترتفع الإبرة ثمّ تهبط. تردّد الكلمات وتحاول تقليد البحّة. تتأمّل صورة المارد الأسود على الغلاف الكبير. تتخيّله موجودًا معها في الغرفة، يقف بالترومبيت فوق رأسها، يقرأ عليها مزاميره. لا ليست بحّة. تقول لأكرم إن لهذا المغني صدأً متراكمًا في الحنجرة. زنجار. مرض نادر تتمنّى لو يصيبها. تُعجبه ملاحظاتها العفويّة. يجد في كلامها ومضات تشبه الشعر الجديد. تعليقات خارجة على المألوف. طازجة ولذيذة.

تروقه هذه التاجي ويُحاذر الوقوع في هواها. سمع ما يُقال عنها. قدّيسة إبليسة. وهو لا يريد سوى أن يخلط على باليتته ألوان سُمرتها. يرسمها كما يشتهي. مثلما يرسمون النساء في



مخادع ميلانو وفيينا. في حجرات الخدم فوق سطوح باريس. كان قد شاهد لها لقطة لدى المصوّر أرشاك. يذهب إلى دكّانه في شارع الرشيد ويتفرّج على بورتريهات لرجال ونساء غير معروفين. لكنّ عدسة الفنان تمنحهم رخصة الخلود. كان يحتفظ بتلك الصور في دُرجٍ مقفل. أسرار المهنة. لا يعرض اللقطات الحميمة إلّا على من يعرف الفرق بين الفن والفضيحة. رآها الرسام، في الصورة، عارية بخَفَر. تدير رأسها جانبًا وكأنّها تهرب من التقاء عينيها بعين الكاميرا. تشبك ذراعيها على صدرها فيزداد منظرها إغراءً. سحبَ الصورة وتأمّلها بدهشة المعجب. صاح:

- هذي تاج الملوك!

يتكتّم أرشاك على أسماء موديلاته. لكنّ أكرم التقط ما كان يتمنّاه. من تمتلك تلك الشجاعة أمام المصوّر لن تخذلها جرأتها أمام الرسّام. بعد أسبوع كانت حاضرة عنده في المرسم. دارت في الغرفة الفسيحة دورة كاملة، ثمّ عادت وتربّعت على الأريكة الزرقاء. خلفها نافذة عريضة مفتوحة على بستان نخيل. وكلب ينبح من بعيد والمساء ينشر رائحة شبّو الليل في حدائق الصليخ.

- شاي أم...

- أم...

صبّ لها ولنفسه قدحين من الويسكي. كمش حفنة صغيرة من الفستق وبعثرها في فتحة قميصها. فاجأتها الحركة. إرتبكت والحبّات تنزلق بين نهديها وعلى بطنها. تتجمّع عند حزام خصرها. وضع إبرة الغرامافون على أُسطوانة لباخ وقال شيئًا عن كونشيرتو الفيولون. تَلامس القدحان و شهق البلّور. يشرب نخب زيارتها



الأولى وهي تمدّ طرف لسانها في جوف قدحها. تبلّله بالمشروب ولا تشرب. تمتّعت بالمذاق الحارق وأغمضت عينيها. أسندت رأسها إلى ظهر الأريكة ومالت بجسمها جانبًا .استسلمت للموسيقى ولما سيخطر للرسّام أن يفعله بها. مستعدّة لكلّ شيء. حتّى لو رام قرنفلتها. رفعت نظّارتها ودرسته بعينيها. كان مختلفًا عمّن عَرَفَتْ، حنونًا جذّابًا موجِع الوسامة. أرادته لها. عقلها ولحمها ودمها وظفر إصبعها الصغير كلّها تناديه. هجست بأنّ الليلة لن تمرّ مثل ما عرفت من ليال مجدبة. نامت مغمضة عينيها، تنتظر يدًا تتحسّس عنقها وصدرها. شفتين على شفتيها. خاب رجاؤها. إمتنع أكرم شكري عنها لأنّه يعرف قانونها. من تَنَلهُ تنبذه .

فتحت عينيها ورمقته:

- ألن ترسمني؟

- سأرسمك كما يعجبني.

يأمر وتُذعن. تمدّدت وطوّحت بذراعيها وراء رأسها. لم تنزع تنّورتها ولا القميص. أرادت لأصابعه أن تفكّ الأزرار. ليتعبْ قليلًا قبل أن ينال ملامحها. لكنه وقف يتأملها بنظرة باردة. يسحب دشداشة رجاليّة بيضاء من على المشجب ويرميها لها. يستدير ويعطيها ظهره. وهي ساكتة لا تفهم ما يدور. أيقنت أيّ مجنون هو. وأنّها مغرية بالدشداشة أكثر منها بدونها. نزعت كلّ ما عليها وارتدتها. سحبت القدح وتجرّعت جرعة صغيرة. ثمّ جرعة أطول صلتها نارًا. إنفرجت شفتاها وفحّت طاردة لهب المشروب. عادت تستلقي وهي تثني ساقًا وتشبك ذراعيها وراء رأسها. لم تعرف أيّ ريح دفعت أطراف ثوبها فوق رأسها، ولا من أغلق الشبّاك وأوقف



أنسام الخريف. أطبقت أجفانها وسافرت. لم تعد تنتظر منه شيئًا. رجل قُدّ من حَجَر. يرى فاكهتها مبذولة فلا يمدّ يدًا. تختلس النظر إليه فتجده مشغولًا عنها بالباليت، يُسندها إلى ذراعه اليسرى، يعتصر أنابيب الأصباغ ويخلطها بتوتّر الفنان. أنامله تقبض على الفرشاة بتأنّق وشغف. أحسّت بالغيرة من عدّة الرسم. ما الذي يُلهيه، المُضطجعة الضاجّة بالشهوة أم الفرشاة الخشب؟ راودها الشكّ في أُنوثتها وخجلت، لوهلة، من انكشافها أمامه.

لم تعرف الزمن الذي مرّ عليها وهي في غفوتها. غير أنّها لمّا نفضت رأسها وقامت تُلملم ثيابها، وجدت المسند مغطّى بوشاح أزرق. مدّت يدها لتزيح الغطاء. ردعها صوته:

ـ لا، ستعودين غدًا، وبعد غد.

ـ متى أراها؟

ـ عندما تنتهي.

عادت كما أراد. تسير إلى مرسمه، مُنوّمة، كلّ يوم. تفكّ أزرار ثوبها بشكلٍ عاديّ. ترفع الدشداشة وتدعها تنزلق فوق جسدها. يذهب الخَفَر مع أول نضوٍ للقميص. كلّ ما بعده ترجيعات تتساقط بالتقادم. تستلقي وتستكمل غفوة مفتعلة. تُغمض عينيها على أمنية يائسة. أن تحسّ بأصابعه على عنقها. حتّى لو خنقها. ولمّا فتحتهما في اليوم الرابع، والدنيا ليل، لم تجد الرسّام في الغرفة. كانت رائحة الأصباغ ثقيلة. وعلى المسند لوحة لم ينشف الزيت عليها. امرأة تشبهها. هي وليست هي. تستلقي عارية وأفعى مرقّطة تستر أسفل بطنها.



١٥

مثل جورب مُتّسخ خلعني يوسف ورماني بعيدًا. أبعد ما يُمكن. خشيَ عدواي. هو الذي يحمل الداء في أعمق خلاياه. جاء إلى بيتنا بدون موعد، في مساء شتويّ لن أنساه، ولم يلتفتْ إليّ. توجّه بالحديث إلى أمّي وأشقّائي. كنت أجلس جوار المدفأة، كما هي عادتي، متلفّعة بوشاح من الصوف فوق قميص النوم. لم أفهم سبب تجاهل خطيبي لي. نظرت إليه وأصغيت سمعي لكي أفهم ما يقول. تجمّدت أصابع يديّ الممدودتين فوق الصوبة.

ـ مُجبر على أن أفسخ الخطبة. فليذهب كلٌّ في طريق. هذا أفضل لي ولوديان.

لم أتطلّع لهلع أُمي. دموعها. لم أهتمّ بالكلام السخيف الدائر مع إخوتي. يتنازل عن الخاتم والهدايا ولا يريد شيئًا. وهم أيضًا لا يريدون ذهبه ولا ألماسه. يصرخون فيّ أن أقوم وأتحرّك وأذهب لغرفتي وأعود بالغنائم المُسترجعة. وأنا جامدة. البرد يشلّ مفاصلي وقشعريرة خبيثة تراود معدتي.

ـ خذْ زبالتك واخرج من هنا.

ـ أنتم تعرفون السبب.

ـ هل تتطاول على شرف البنت يا واطي؟

معدتي تنخسف. قَفَصي الصدريّ يضيق. الرجفة تستولي عليّ وتلفّني. أعين الجميع تصليني. والمرأة التي هي أُمّي تنسحب وتتركني للسكّين. مذنبة أنا بدون محاكمة. كتمتُ كلّ شيء عنهم ولم أنطق. لكنّهم سمعوا. لا أسرار في بغداد. وكان كبيرًا



على إخوتي أن يعرفوا ويصمتوا. شرفي شرفهم. لكنّهم يعتبرون الذنب ذنبي. أنا المخطئة إذ اقتربت من النار. بقيت أيامًا مريضة ومهزوزة ومُهانة وممسوحة بي الأرض. أستحقّ العقاب. عاري على عاتق خطيبي. وها هو يأتي ليتنصّل منه. ينزعه ويطرحه على أشقائي. غسله صار واجب الإخوة. مهما يتأجل فإنه آتٍ لا ريب. ستجيء اللحظة. أبتسم ببلاهة. أتذكّر، فجأة، ما كان يقوله مُعلّم التاريخ الأستاذ منذر. "حُمَّ القضاء"!

أتوغّل في بلاهتي بلا حول ولا قوة. خوفي يخلط أوراق عقلي. أستعيد نصيحة معلّمة التربية الوطنيّة. "النجاة في الصدق". أنتبه إلى أنّ اسمها كان نجاة صادق. تتّسع غفلتي وتغمر وجهي. أضحك بدون سبب، والبرد يؤذي كفّيّ. تخشّبتا من فداحة الموقف. أنزل بهما نحو الدفء. ألمس غطاء المدفأة. أحترق ولا أشعر بشيء. تفوح رائحة لحم مشويّ. يهبّ الأربعة ويسحب أخي الأصغر يديّ بقوة. يُبعدني فينسلخ جلد راحتيّ. لا تصدر عني آهة. تصرخ أمي وتتخبّط لمداواتي. مراهم ومعجون أسنان. ماء بارد فوق القروح.

يدير يوسف وجهه عنّي. يخرج بدون أن يشعر به أحد. خَتَم احتراقي الموقف وقطع الجدل. لن يستجوبوني وأنا في ذهولي. منقادة لما يفعلون بي. مستسلمة لقدري.

ـ هل نأخذها للطوارئ؟

ـ لا، نداويها هنا. كافي فضائح.

أبتسم وأستمرّ في عَتَهي وصوت الستّ نجاة يقذف عليّ نوادره: "ربّ ضارّة نافعة".



نزعني يوسف عنه واختفى مثل خفافيش الليل. كان حبيبي قبل أن يكون خطيبي. ومعلّمي الخصوصيّ للرياضيّات في الثانويّة. سافر وعاد بشهادة مرموقة في الهندسة. إنتظرته خمسة أعوام. توظّف في الجامعة وخطبني. يتباهى بأنّه اختار عازفة كمان لتكون أُمًا لأولاده. الأولاد الذين لن يولدوا.

ـ زوجتي موسيقارة!

ـ هل تريد سيكارة؟

ـ لا، خيارة.

تأخذنا القافية إلى مرابع الضحكات. الأحضان. القبلات. خفيفين كنّا ككلّ العاشقين. قلوبًا وأجسادًا. غيمتَي صيف. ساهيَين عمّا حولنا. يحبّني وأتيه به هوًى وافتخارًا. حبيبي الأستاذ الوسيم ابن الأصول. كم تبدو الكلمة الآن تافهة في فمي. لا أُصول في الغاب. ذئاب فحسب. وحش جلف ونعاج تُقاد للسلخ. ويوسف يؤسفني ويُشقيني. أجد له العذر وأُشفق عليه. أريد أن أخلعه من بالي كما خلعني. لم يكن سوى نعجة مثلي. خسارته أفدح ودمه أغمق من دمي. وقف يتفرّج على تلميذه يطأ كرامته بالقدمين. لم ينتفض له عرق. التلميذ في الغابة هو الأستاذ. والأستاذ خفّاش ليليّ. يستتر لكي يكتئب، طاويًا جناحيه على نزف الكرامة. وفي النهار ينزع عنه الخفّاش الكابي وينفش ريش طاووس. يذهب ليُلقي محاضرته على طلبة الهندسة. يرتدي مع البدلة الرمادية الفاتحة حذاءً رياضيًّا أبيض. آخر شياكة. يبتسم مُتعاليًا. يحقّ له التكبّر. بروفيسور عائد طازجًا من هارفرد.



نكون في سينما النادي، نتفرّج على فيلم جديد لروبرت ردفورد. يرنّ الهاتف في جيبه وتسودّ الشاشة في عينيّ. يطلبونه للالتحاق بسهرة هناك. أعرف أنّه سيضغط على كفّي معتذرًا. لن يتفوّه بشيء. يترك لي مفتاح السيّارة. ينهض وهو يطوي قامته الطويلة. هل يخجل من بقيّة المتفرّجين؟ قد يعرف أحدٌ منهم سبب انسحابه من السينما. يقوم خارجًا ويلبّي النداء. لا مفرّ منهم. المُرافق هشام يعرف أماكن كلّ الندامى. يحتفظ بقوائم لتحرّكاتهم ومسارات تنقّلاتهم. مطلوب من كلّ منهم، حيثما ذهب، أن يبلّغه العنوان. يتكرّر السيناريو ونحن في عرس عائليّ. ونحن في عزاء. في السوق. في المستشفى. في لحظة حميمة. في حفل للفرقة السمفونيّة. تتخشّب أصابعي على الأوتار حين ألمحه يتسلّل من الصالة. يخطر لي في جنون نقمتي أن أصرخ من مكاني على المسرح:

ـ يوسف عد إلى مكانك. أنا أعزف لك!

ترتبك عصا المايسترو ويلتبس الأمر على العازفين. يخفي برامز عينيه خجلًا، ويستلقي تشايكوفسكي على قفاه شامتًا بقانون الغاب.

محمومًا وسكران بين ذراعيّ، روى يوسف لي ما أفاض لوعتي. رنّ الهاتف وسال منه الصوت اللزج. لا أحد يعرف الرقم سوى هشام. لم تكن التلفونات النقّالة مباحة للناس. أهداهم الأستاذ واحدًا لكلّ واحد. لا يستخدمونه إلا لتلقّي استدعاءاته. وكانت التعليمات عادية:

ـ الحادية عشرة في نادي المنصور. الزيّ غترة وعقال.

إتّسع دولاب البروفيسور العائد من هارفرد لأشكال من الثياب.



سراويل وقبّعات صيد. بدلة سموكينغ. شورتات فوتبول. عباءات عرب. فروات بادية. دشاديش شتويّة غامقة وصيفيّة بيضاء. بدلة سكواتش. لعبة لا يعرفها ولم يجرّبها في حياته. لكنها أوامر الأستاذ. قرّر تعيين الدكتور يوسف رئيسًا لاتحاد السكواتش في اللجنة الأولمبيّة. كلّ الألعاب بين يدي ابن الشيخ. حتّى الرياضات غير المعهودة في البلد. السومو. السكي. سباقات الكثبان الرمليّة. الهجن. العراق موطن الحضارة ولجنته الأولمبية ليست بأقل من اليونان بلد الأولمب. كلّ ذلك كان قد بدأ قبل الحادث الذي شلّ ساقيّ الأستاذ.

يختار يوسف دشداشة أنيقة من البوبلين المقلّم بخطوط منه وفيه. يرتديها فوق الفانلّة الكالفن كلاين. يتطلّع لنفسه في المرآة قبل مغادرة البيت. يخجل أن ينظر في عيني الصورة المنعكسة أمامه. وجه أبيض أملط بدون شاربين. غترة متهدّلة على الجبين. فوقها عقال أسود عريض مُثبّت جيدًا. بهلوان في سيرك. مُتنكّر قلبًا وقالبًا. كانت تستبدّ به، في البدايات، رغبة بأن يبصق على نفسه كلّما نظر في المرآة. ثمّ تعوّد تعاقُب الأدوار والأزياء. يُقنع نفسه بأنّه ممثّل لا مهرّج. التعوّد نعمة سماويّة. القناعة كنز.

يصل إلى النادي قبل الساعة المقرّرة. يجد بقيّة الربع قد سبقته، أستاذين من زملائه في الكليّة، وصحافيّ ذلق اللسان ومعه المطرب المحبوب. هو لا يحبّه، لكنّ مذيع قناة الشباب يقرن اسمه، دائمًا، بصفة محبوب. يجلسون معًا. يضع النادل أمام كلّ منهم زجاجة ويسكي مصنوع محلّيًا. نتاج عبقريّة سنوات الحصار. طعمه نقيع سراويل قذرة. المجموع خمس زجاجات على طاولة



واحدة. وعلى مائدة الأستاذ قنّينة بلاك ليبل أصلية، لا تمتدّ إليها يد. يشربون النقيع والإهانة ويفردون وجوههم رضًا. يضغطون على أنفسهم كي لا تتقلّص ملامحهم قرفًا. ينتظرون مجيئه ويحاذرون أن يسكروا. يطول الانتظار وتفرغ القناني ويسكرون. الويل لمن يُلقي نظرة على ساعة يده. يصل ابن الشيخ في الرابعة صباحًا. يُسلّم بفتور ويجلس إلى مائدته المنفردة. يشرب من وسكيّه الخاص. يتبادل كلامًا عاديًا مع المطرب المحبوب. لا يحادث الباقين. لم يطلبهم لمسامرة. إنّ مجرد وجودهم مكافأة لهم. إرضاء لغرورهم. سيقال عنهم إنّهم من حلقة الأستاذ. وسيقوم وينصرف بعد ربع ساعة فيعودون إلى بيوتهم. كلّ عقاله في يده. وفي الصباح التالي يلتحقون بدوام الكليّة في الثامنة. يجلسون محترمين أمام طلبتهم.

ينجو ابن الشيخ نصف نجاة من محاولة اغتيال. تنخفض السماء فوق رؤوس الخلق. يضيق الأفق وتستمرّ الحياة. العيشة مطلوبة. والأستاذ عبقريّ في الإذلال. يشرب يوسف ويحكي لي كوابيسه. لم يكن كابوسي قد زارني بعد. إتصل به المرافق هشام وأبلغه أنّه وبقيّة الربع مدعوّون، في المساء، لمباراة كرة القدم بين الرشيد والزوراء. يملك الأستاذ النادي الأول، لكنّ الجمهور يشجّع الثاني. تلحق روابط المشجّعين بناديها حيثما يلعب. وخطيبي منهم. يشجّع الزوراء. كلّ أشقائه وكلّ أشقائي يشجّعون الزوراء. يجتمعون أمام التلفزيون في بيتنا ويصعد صراخهم إلى سطوح الجيران. من نقل لابن الشيخ الخبر؟ يصل



يوسف إلى الملعب فيجد مكانه محجوزًا في المنصّة، بجانب الأستاذ. يجلسان الكتف جنب الكتف. تبدأ المباراة والدكتور يوسف يتفرّج ويُنافق. يسدّد الرشيد تسديدة حلوة فيصفّق ويعلو صوته بعبارات الاستحسان. ثمّ يسجّل الزوراء هدفًا. يهبّ المشجّعون واقفين. يصفّقون ويهزجون. يشتعل الملعب رقصًا وهتافًا والمنصّة صامتة. وخطيبي يلجم فرحته ويجمد. صنم بارد تُحتضر فيه الحياة.

يبكي على كتفي. يقول إنّ مؤخّرته كادت تنشقّ من الغيظ. يمسح مخاطه بخدّي. يقبّل عنقي وأعلى كتفيّ. تتحوّل قبلاته عضّات مؤلمة. ليست مصّات غزل واشتهاء. ينهشني ويوجعني. ينفث فيَّ بخاره المحتبس فأبكي معه. تبلّل دموعي شعره. لم أتصوّر أنّني سأعيش مع يوسف موقفًا مثل هذا. كنّا في حرير الخطوبة. جديدين على الهموم. حاولنا أن نحتمي في قوقعة. القوقعة في بحر هائج. البحر يجرف بلدًا. البلد يتقهقر. الحزب يداري. الحروب تترى. مؤامرات ومشانق. جيش شعبيّ وجيش نظاميّ. فدائيو القائد. جماعات إسلاميّة مُعارضة. شعب يبتلع لسانه. عشائر تهزج في الجنوب. مُستشارون يُكرّشون في الشمال. قصائد مديح ومُعلّقات. أصدقاء القائد رتبة جديدة. حفلة زارٍ جماعية والكلّ يطوّح برأسه يمينًا ويسارًا. تلوّث شامل يغلّف الفضاء. تختنق الأنفاس. تتصدّع قوقعتنا مثل قشرة بيضة. يصيبنا الشرار مهما تحصنّا. لا حِصن يصمد في البلاد. لا رجل ينجو ولا امرأة.

يُبعدني خطيبي عنه بعنف. أبويا ما يقدر إلا على أمّي. لو



كان ركلي يُريحه لجثوت عند قدميه وتمرّغت أرضًا لكي يركلني. أعشقه وأراه مذبوحًا فيسيل دمي، مدفوعًا نحو الجنون وهو أعقل العاقلين، مُهانًا كسيرًا يائسًا. ريشة في المهبّ. في كفّ ولد معتوه. دمية من دمى كثيرة يعبث بها. سأكون أنا إحداها. ينتحب يوسف وأنا تقتلني دموع الرجال. عُصارة أرواح ديست بالأقدام. وهذي ليست أيّ دموع. ليس أيّ رجل. دموع حبيبي تقذف ماء النار في وجهي. يمسحها براحتيه ويستمرّ في الهذيان.

"بعد المباراة أخذنا لنلعب الكرة معه، تحت الجسر المعلّق. لعبنا حتّى الإنهاك. نركض بعضلات صارت خيوطًا وهو يجري بيننا بكرسيّه الكهربائي. وعند انتصاف الليل طلب إحضار السيارات السريعة العالية. ساقنا ثلاث ساعات إلى البادية لكي يرينا كيف تُشرق الشمس. حتّى الشمس كرهناها. كانت هناك خراف تُشوى وشابات جالسات مثل المخفورات. حلوات وصغيرات وبنات أوادم، بعضهنّ منكمشات. جيء بهنّ رغمًا عنهن. يصبّ زجاجات الشراب على رؤوسهن ويأمرهنّ بفتح حلوقهن. يظهر المطرب المحبوب ثملًا ويغني نشازًا. الكلّ سكارى وابن الشيخ يلعب بالمسدّس. خرجت في الصباح من بيتي إلى الجامعة ولا أعرف متى أعود. أخشى يا وديان أنّني يومًا ما لن أعود".

كنت ما زلت أحبّ يوسف. أُواسيه وأُخفّف عنه. لذلك لم أفهم أن يرميَني مثل جورب وسخ حين يجيء الدور عليّ.

سال عرق بارد على ظهري لـمّا اتصل بي المرافق هشام للمرّة الأولى.



ـ ست وديان، أنتِ مدعوّة غدًا لحفل صغير في نادي اليخوت. وحدك.

ـ بدون الدكتور؟

ـ التعليمات هكذا.

يدور المرافق على ساحات الجامعة. يمرّ بحفلات النوادي الخاصّة. يقف على أبواب مدارس البنات. يعاين ويختار. القامة. الشعر. الأسنان. المشية. يتفرّج ويكشف مثل طبيب ممنوع من مدّ يده إلى المريض. لا مشاعر له. ممنوع على هشام أن يتأثّر أو يُعجب بإحداهنّ. أن يتطلّع إليها بنظرة غير مُحايدة. الشعور والتأثّر والإعجاب من حقّ الأستاذ وحده. وهو وسيط لا غير. ناظور استطلاع. سمسار بدرجة حارس شخصيّ. قوّاد بالعربي الفصيح. لا بدّ أنّه كان يراقب يوسف عندما لمحني معه في الكليّة. لا يُمكن أن يكون قد رآني في الفرقة السمفونيّة أو في حفل لمدرسة الموسيقى والباليه. أمثاله يفضّلون رقص الهَجَع. فزعت حين تجرّأ ودعاني وهو يعرف أنّني خطيبة أستاذ أستاذه. صداع يضغط على رأسي والصورة تتّضح أمامي. لو لم يرضخ خطيبي لما تجرّأ هذا النكرة عليّ. ماذا فعلت بنا يا يوسف!

أخفيت عنه حكاية الحفلة وذهبت وحدي. حسب التعليمات. خشيت أن أُخبره فلا أجد منه ممانعة. كنت أسمع من صديقاتي عن عائلات عريقة يتوسّط أربابها للحصول على اشتراك في نادي اليخوت. إنه جواز سفرهم لعالم الصفقات وحياة الرغد والأسفار. يكفي أن يقال عنهم إنّهم من جماعة الأستاذ حتّى تُفتح لهم الأبواب. تنمو لهم هالات فوق رؤوسهم فيفزع منهم البسطاء



ويخشاهم أولئك الذين يُقال عنهم "من أهل اللّه". ملايين تمشي لصق الحائط. تدعو ربّها ألّا تقع عليها نظرة شرّ فيدخل اسمها في السجلّات الأمنيّة. يلتحقون بالحزب مؤيّدين وأنصارًا. مراتب لا تكفي لأن تفقأ أعين الخوف الذي يترصّد الجميع. وقد كان حالي من حال كلّ الناس. تلقّفتني يد الخشية منذ صغري. رضعتها وكبرتُ ولم أُفطم.

بكيت بحرقة في الحمّام. شككت في قدرة خطيبي على حمايتي. أراه يغدر بي ونحن لم نتزوّج بعد. القريب قبل الغريب. لو كان أبي على قيد الحياة لعرف كيف يتصرّف. يموت ولا يخذلني. أختنق بحرقة أكبر وأنا أحاول إيجاد عذر ليوسف. أحبّه. أخاف عليه. أفديه. أنا أشجع منه. سأذهب إلى الحفلة لكي لا يصيبه ما يمكن أن يصيبه لو رفضتُ وتمرّدت. كفيلة بما يمكن أن يصيبني. ما هذه المحنة يا إلهي؟ تتركنا وحيدين مع اللعنة. أدعوك ويضيع صوتي مع الصدى.

إرتديتُ أكثر فساتيني حشمة. ربطت شعري الطويل. لم أتزيّن ولا تحلّيت بحلية. أبقيت خاتم الخطبة في يمناي. يا لسذاجتي! لن تردع هؤلاء حَلقة. تناولت شالًا أسود ولففته على كتفيّ. قلت لأمّي إنني ذاهبة لحفل زواج زميلة لي، وقد أتأخّر.

- عرس وأنت بهدوم عزا؟

عند الشارع العامّ أوقفت سيارة أجرة. خجلى وأنا أخبر السائق بالمكان الذي أقصد. يرمقني في المرآة. أتخيّله يشتمني في سرّه. يبصق عليّ. أو يتفَهّم ويُشفق. يقودني إلى المسلخ. يخشى ألّا يعود سالمًا. يتوقّف ويتركني قبل البوّابة بمسافة. المكان



مُطوّق برجال بالزيّ المدنيّ. لا سيارة تقف قريبًا. أمشي بهدوء مُصطنع وأجتاز الباب الخارجيّ. أرفع رأسي فارسة تتسلّى بالوهم. لا أحد يعترضني. كأنّهم يعرفونني. ذاكروا وجهي. هل لديهم صور كلّ المدعوّين؟

أعرف نادي اليخوت. كنا قد التقطنا فيه صورة جماعية للفرقة السمفونية. بثياب السهرة نساءً ورجالًا. أنيقون مبتسمون نحتضن آلاتنا باعتزاز. المايسترو يدير لنا ظهره، على غير العادة، ويواجه الكاميرا. تحضر الصورة الجميلة أمامي. شتّان. الحديقة واسعة بدون أزهار. يُجلسني هشام إلى طاولة مع عائلة أكثر توتّرًا منّي. شابتان جميلتان مع شقيقهما المراهق. الأولى سمراء، والثانية شقراء اصطناعيّة. لا نتبادل الأسماء. نكتفي بالابتسام المتواطئ. الكلّ يتستّر على الكلّ. صخب ورقص وموسيقى. عطور تتداخل ببعضها بعضًا. أضواء ملوّنة تشتعل وتنطفئ مع اللحن. نُدُلٌ يتحرّكون كالنحل، وصوان فضيّة تمرّ فوق الرؤوس. تهمس البنت الجالسة بجانبي أنّ الأستاذ جالس فوق. أفهم ما قالت من حركات وجهها وإشارات عينيها. يبدو لي همسها غريبًا. الموسيقى تتكفّل بالتعتيم. أُحاذر أن أرفع عينيّ إلى فوق. شرفة يطلّ منها صاحب الدعوة على رعاياه في الأسفل. بفضول، يرفع الولد المراهق الجالس معنا رأسه. يميل على شقيقتيه وينقل لهما ما يجري في الشرفة. تعود الشقراء الاصطناعية لتهمس كلامًا لا أتبيّنه. تصرخ في أذني أنّ الأستاذ جاء قبل الجميع. هناك منصّة تتحرّك بالكهرباء، رفعته مع كرسيّه المتحرك إلى فوق.

كلّنا سمعنا بالحادث الذي تعرّض له. تصلنا الأخبار ونصمّ



الآذان. نخاف أن نردّدها. ما لنا ولهم؟ قيل إن الرصاصات التي استهدفته كادت تقتله. ثأر عشائريّ. أو جرّة أذن من الشيخ الكبير. لعلّها جريمة شرف. أو محاولة اغتيال سياسية. قيل وقال. وقال وقيل. ونحن لا دخل لنا بما نسمع. نعامات ندفن رؤوسنا في رمال خوفنا. جيء له بأطبّاء من روسيا، جرّاحين من كوبا. جهابذة أعصاب من فرنسا. لم يمت. عاش وظلّ مشلولًا. يستخدم كرسيًا مصنوعًا في اليابان خصيصًا له. يتحرّك ببرامج إلكترونيّة تُيسّر تنقّلاته وتلبّي طلباته الغريبة. تؤمّن له ممارسة هواياته. يصيد ويمارس السباحة ويركب الخيل ويتسابق بالسيارات والزوارق ويرقص على وقع الموسيقى. لا ينقصه شيء. يعاشر من يشاء ويسهر مع شلّة الأنس. أساتذته الذين منحوه أعلى العلامات. متفوّق على كلّ من عداه. طلابًا ومعلمين. يتمتّع بما لا يتاح لشابّ يمشي بساقين قويّتين. يُقيم الحفلات ويدعو إليها عائلات مختارة. يبتهج وهو يرى عليّة القوم خاضعة لنزواته. نجح في تطوير ساديّة قصوى. أسلوبه يستحقّ التدريس في مناهج علم النفس. يسبق المدعوّين ويجلس في مرتبة أعلى. لا أحد يراه منقولًا على رافعة. مثل بضاعة أو كيس إسمنت.

جارتي في الطاولة لا تتوقّف عن الهمس:

ـ لا تخافي، اخطفي نظرة إلى فوق. إنه يرتدي بدلة غريبة...

ـ هس... رجاءً غيّري الموضوع.

يأتي أحدهم ويدفعها إلى الحلبة مع أخيها. يسحب أُختها الشقراء ليرقص معها. يلتفت نحوي:

ـ إنتظري. سأبعث من يراقصكِ.



أنكمشُ ويقشعرُّ جلدي. أنظر في ساعتي فلا أرى عقاربها. الوقت طويل والموسيقى زاعقة. إيقاعها يزنّ على أعصابي. دوم! دوم! دوم! يخيّل لي، فجأة، أنّي سمعت نشازًا. أرى الراقصين يتبعثرون. بنات يختبئن تحت الطاولات. يهرع مُرافقون إلى مكاننا. يطلبون من الجالسين في وسط الحديقة زحزحة كراسيهم إلى اليمين والشمال. تتخلخل الموسيقى ويفزعني صوت صليات رصاص. أرفع رأسي بدون وعي وأتطلّع إلى الشرفة. أراه واقفًا وبيده رشاش موجّه إلى الأفق. يطلق النار فوق رؤوسنا. تئز طلقة قريبًا مني. أهلع وأُطيع المُرافق وهو يسحب كرسيي والطاولة نحو أقصى اليمين. يتداعى كأس العصير وينسكب على قدميّ. تنقسم الحديقة في ثوان إلى قسمين، وفي الوسط، يخلو ميدان الرماية لنزق الأستاذ. تعود الشقراء من حلبة الرقص وهي ترتجف. تميل عليّ:

- رأيته واقفًا مع الرشاش.
- وأنا أيضًا...
- يقولون إنه يستخدم هيكلًا معدنيًا تحت الثياب.
- ماذا؟
- جهازًا يتحرّك إلكترونيًّا، يساعده على النهوض.

أنكمش أكثر. تنطلق الموسيقى مجدّدًا ويُجبَر الجميع على الرقص. يعود المدعوون إلى طاولاتهم ويجدونها عامرة بأطباق العشاء. هناك من يأكلُ وهناك من تقف اللقمة في زوره. مددت يدي خَشيةً لا رغبة. طعام بارد بلا طعم. عقاب يناسب الموقف. يمرّ مُرافق برتبة عقيد على الطاولات. يدعو الضيوف للسلام على الأستاذ.



ـ بالترتيب رجاءً... واحدًا واحدًا.

نسير مثل صفّ مدرسيّ نحو الدرج الداخلي. ترتقي بدلات السهرة والسموكينغ السلالم الرخامية بأناة. دمى بلاستيكيّة مُجوّفة. مُفرّغة من أرواحها. رسوم مُتحرّكة. نشترك جميعنا في فيلم كرتون. يتقدم الطابور من مكان الأستاذ وأراه عن قرب، ثملًا بعينين جاحظتين، بؤبؤين مدرّبين على الهتك. يسلّم على البدلات الرجالية بهزّة رأس. يتمهّل أمّام الفساتين. يصافح من تروقه. مدّ لي يده فمددت كفًّا واهنة. لم أفهم هل ابتسمَ لي أم كشّر. واصلت السير مع الرتل. نزلت الأدراج جريًا. هواء الحديقة مكتوم. الليل مكتوم. شوارع بغداد مُكمّمة.

سأسحب شهيقي في حديقة بيتنا.

١٦

الحريّة لغمٌ.

تمرّ تاج الملوك بمحاذاة اللغم كلّ يوم. تنتظر لحظة انفجاره. حريّتها عافية لها وعلّة لآخرين، تُصيبهم بالحساسيّة. تمرّ أمامهم فيهرشون جلد نحورهم وخواصرهم. شجرة جهنّمية مزهوّة بتفتّحها وألوانها. تمتحن المدينة والمدينة تمتحنها. وبغداد، يومذاك، لا تؤخذ غِلابا. حار فيها الناس. بنت خرّيجة مدارس لا أهل لها تعود إليهم في المساء. بسيطة في ثيابها. تُخفي عينيها دائمًا وراء نظّارة سوداء. لكنها تدخل على نوري باشا والشرطيّ يؤدّي لها



السلام. تملك مجلّتها وتضع عليها اسمها. تُدعى إلى الحفلات الرسميّة. تخالط السفراء والفنّانين الطالعين، الطليعيّين، ذوي الأفكار التي لا يفهمها غيرهم. تقف للوصيّ على الرصيف، تنتظره كلّ صباح. تلوّح له وهو في السيارة، بين مقرّه والبلاط. كان قد اتّخذ من قصر الرحاب مسكنًا مستقلًا عن قصر الزهور، حيث تقيم شقيقته الملكة عالية وابنها الصغير فيصل.

رأى المعنى في عينيها وفهم ما يُمكن أن يدور في رأسها الجميل. صيّاد، لكنها ليست من نوع الغزلان التي تغريه. ترفّق بها حتّى خُيّل لها أنّه يهواها. ظلّت تصرّ على أنّ الوصيّ أحبّها. قرأت في الجرائد عن أمراء أعرق منه، سليلي عروش هجروا التاج ولازموا الحبيبة. تولّهوا براقصات. تزوّجوا خادمات. وهي ترى نفسها أحسن منهن. صحافية شجاعة. متعلّمة. تتكلّم عدة لغات. زهرة مجتمع. ينحني أصحاب السعادة ليلثموا كفّها. أين المشكلة؟ هاشميّ؟ زوج أمّها كذلك. ووالدتها زينة السادات من سلالة الأئمة، هذا نَسَبها حتّى لو نامت في قنّ دجاج. تحمل تاجها في اسمها. واسمه عبد لبارئه ومغامراته على كلّ لسان. لا تعرف ما تصدّق. تزوّج مصريّة ذات حَسَب وطلّقها بعد أشهر. قيل إنه يبحث عن أميرة. يعني لازم أميرة؟

إنتظرت خطوة إضافية منه ولم يتقدّم. تخلّت عن كبريائها. تعمّدت أن تُسمعه تلميحات عابرة. لم يشجّعها. تبتسم عيناه الماكرتان. لا يتجاوب ولا يصدّ.

ـ علينا بالواقع يا آنسة.

ـ لم أفهم سموّك؟



ـ سموّي لا يريد أن يفسد حياتك، وحياتي.

يتهكّم كلما خاطبته باللقب الأميري. تهبُّ من فراشها مُبكّرة. في السادسة تنفتح عيناها تلقائيًا. تكون قد أمضت الليل ساهرة. لكنّ الموعد لا يفوتها. تجري من بيتها في محلّة السور وتقف حيث ينتظرها. بالأحرى تنتظره، غير بعيد عن بوّابة الدفاع. الأمير لا ينتظر أحدًا. لكنّ الفكرة تسعدها. توهم نفسها بأنّ السيارة، عندما تحاذيها، تبطئ في سيرها. تلوّح للجالس في يمين المقعد الخلفيّ. يُقنعها الوهم بأنّه بادلها التحية. لوّح لها بقلبه. لم تعدْ تطمع بأكثر. ترى الجوق العسكريّ يقطع شارع الرشيد، آتيًا من ساحة الملكة عالية في اتجاه الميدان. تغمرها موسيقى بوليرو وتحلّق بها. تصبح قامتها أعلى من المارة. ولّادة أميرة قرطبة، تمشي مشيتها وتتيه تيهًا. يمضي الموكِب وتسير بحذائها الأبيض العتيق إلى مقر جريدتها وحلمها يرافقها. يَسْنِدُ خطواتها. تنزل الدرجات الثلاث إلى المستودع. تجلِسُ في السرداب. مكتبها. تنتظر استدعاءً لا يجيء.

دخل عليها، ذات يوم، حارس مطبعة الزمان يحمل بشارة.

ـ خاتون، هناك سيارة تلمع عند الباب. يريدونك فوق.

تقفز من مكانها وتصطدم بالأثاث. تلتوي رجلها ولا تبالي. ليس وقت الألم. تسوّي شعرها بيديها. تمسح وجه حذائها بورق الجريدة. تتذكر أنّها رئيسة تحرير. تتأنّى. تسحب نَفَسًا عميقًا وتصعد الدرجات بهدوء. تجد عند الرصيف سيارة صغيرة مكشوفة، بلون الحليب، وسائقًا يتقدّم منها.



ـ آنسة تاجي عبد المجيد؟

ـ نعم...

ـ تفضّلي المفاتيح.

ـ أيّ مفاتيح؟

ـ السيارة هدية من أنكرلي بيك.

يمكن، لمن كانت مثلها، أن تعيش العمر كلّه مع حلم واحد طويل. ممضّ أو بهيج. كما يمكن لبعض الأحلام أن يكون أقصر من ومضة. ولبرهة عابرة، تصوّرت أنّها هدية من الوصيّ. لكنْ من هو هذا الأنكرلي الذي يتجرّأ ويُجهض الحلم؟ كانت قد سمعت باسمه. تاجر سيّارات معروف. ولعلّها لمحته في واحدة من الحفلات. رجل يمتدّ سلسال ساعته الذهب من جيب الصديري ويتدلّى جوار كرشه. لا تحبّ الكروش وتكره السلاسل. حتّى لو من ذهب. تنفر من المجوهرات الصفراء في العنق والمعاصم. زينتها في لسانها. حجّتها ونطقها الجميل ومحفوظاتها من الشعر، عسل اللغة. لسانها حصانها. عند اللزوم تصونه في فمها. صمتها مثير بليغ في أوانه. أمّا الخفيّ من زينتها، فكامن في عينيها. تقتصد في استخدامه. تخبّئه وراء النظّارة الغامقة. ثروة طبيعيّة لا تجاهر بها في ما لا ينفع. أيكون الوصيّ هو الذي بعث لها بالسيارة بعدما رآها تغذّ الخطى في شارع الرشيد، بين الميدان ومحلّة السور؟

ـ خذ السيّارة من هنا يا أفندي. قل للبيك إنني أدوخ من ركوبها.

في سردابها، القبو الرطب الذي رضيت به مكتبًا، حاولت أن



تتمالك نفسها. هل كانت تقبل الهديّة لو جاءت من الأمير عبد الإله؟ سؤال ساذج. لن يفعلها. لعلّه يريد اختبارها من خلال تاجر السيّارات، صديقه. يحاول التأكّد من وفائها. لماذا عليها أن تُخلص له ولا شيء يربطهما؟ سترفض السيارة حتّى لو كانت منه. حتّى لو كانت مكافأة على اجتهادها. عونًا لها في تنقّلاتها. ستقودها في شوارع بغداد ولن يصدّق أحد أنّها هديّة بريئة. فليذهب هو وغيره إلى... تتلعثمُ في أفكارها. لسان لَعِين لا يطاوعها على الشتيمة. تأخذ القلم وتعود لإكمال مقالها. ترى قطرة بلل على الصفحة السمراء بين يديها. ورق الجرائد يمتصّ الحبر وبقع الشاي. لن تبكي يا تاجي على رجل. تلك كانت حكمتها في الحياة. حتّى ذلك الحين.

لولا المعاهدة لبقيت في تحليقها، فوق النخل. جاءت المعاهدة، وخسفت بها بساط الريح.

دخل اسم بورتسموث قاموسها على حين غفلة. لفظ صعب كان يلوي ألسنة السياسيين ثمّ انتقل إلى أفواه العامّة. مدينة لا تخطرُ على البال. ميناء في جنوب إنكلترا. تشاء طلاسم الأقدار أنّ يكون مكانًا لحدث سياسيّ يشغل العراقيّين. معاهدة قديمة بينهم وبين بريطانيا، يريد الانكليز تجديدها، مع شروط أكثر تعسفًا. سافر مندوبون عن المملكة الهاشمية للتفاوض مع دهاقنة صاحبة الجلالة. والتفاوض هو أن تأخذ وتُعطي. لكنّ لندن تحبّ أن تأخذ وتأخذ فتقوم القيامة في بغداد.

تستيقظ تاجي مع السادسة، كعادتها. تغسل وجهها وتمشّط



شعرها وترتدي النظّارة. تُسرع الخطو إلى مكمنها. عند سياج وزارة الدفاع. تنقضي الساعة ولا يبين موكبه. تمرّ ببائع الجرائد في الميدان وتقرأ المانشيتات: "الوصيّ في بورتسموث للتفاوض على اتفاقية مع الانكليز". إذًا هو على سفر. أخلف الموعد مضطرًا. كم سيغيب؟

حتّى نوري السعيد لم تتمكّن من لقائه في اضطراب تلك الأيام. مشغول بما هو أهمّ من فستانها الأخضر الحشيشيّ. قبضت نونوش أجرها وانتهى الثوب في بقجة منسيّة أعلى الدولاب. لا حفلات في المدينة. لا وقت لإزجائه مع صحافيّة مثلها. عرب وين طنبورة وين؟ الباشا في امتحان صعب. أخطر ما خاض من معارك. يستحضر كلّ دهائه السياسيّ ليلعبها صح. لكنّ يديه، هذه المرّة، تهتزّان في خلط الأوراق. حاول أن يشقّ صفوف خصومه، إستدعي محمد حديد وعلي ممتاز الدفتري للانضمام إلى الوزارة. كانت انتخابات البرلمان قريبة والمعارضة في فوضى بعد دخول ممثّلي الحزب الوطني الديمقراطي وحزب الأحرار، وزيرين في الحكومة. والفوضى كلمة سحريّة، يمكن أن تضمن الفوز لأنصاره من النوّاب. غير أنّ التزوير رياضة شعبيّة. انفضح التلاعب واحترقت الطبخة. ينسحب الدفتريّ وحديد من الوزارة السعيديّة. وزارات متلاحقة تتسمّى باسمه. خزّي مُرّي.

غطّت الاحتجاجات الجسور والكليّات وسطوح المنازل. غادر السعيد الوزارة. هس، اسكتوا وانتظروا. راح الباشا. رجع الباشا. كلّها تكتكات لتهدئة الشارع. يجلس صالح جبر محلّه على طاولة المفاوضات في بورتسموث والأخبار تترى من هناك. سيُجمّل



الانكليز الاتفاقيّة القديمة ببنود جديدة. الحُجّة تحسينها والقصد المزيد من تكبيل العراق. تبعيّة لا فكاك منها. يؤيّد السعيديّون سياسة الباشا. عين الصواب أن يضع بيضه في سلّة بريطانيا. إمبراطوريّة لا تغيب عنها الشمس ونحن دولة ضعيفة وصغيرة. لكن لندن عاهرة شمطاء. تنفر من سياسة "الخدّ والعين". لن تتخلّى للسوفيات عن مربط خيلها في الشرق الأدنى. ولا لحليفتها أميركا، الأفعى المُتسلّلة إلى حقول النفط. العدو الأحمر واضح. تواجهه بالعين الحمراء وبالجواسيس، لكنّ القلق من الصديق. صاحب الفضل والقنبلة النوويّة. لولاه لكانت لندن، الآن، قطعة حلوى في فم هتلر. يتذوّقها ويلتفت لتقبيل إيفا براون. تسكر العشيقة بطعم البودينغ الانكليزي المُنكّه بالجِنّ.

أصابت لوردات بريطانيا حصبة متأخّرة. يراقبون التطوّرات ويدارون بثورهم. ما الذي ذهب عبد الإله يفعله عند الأميركان قبل سنتين؟ حتّى القائم بالأعمال العراقي في واشنطن رفعوه إلى رتبة وزير مفوّض. وهم لن يسمحوا لبغداد بأن تدير ظهرها للجزيرة العجوز، تُيمّم وجهها صوب العالم الجديد. الخلاف بين الأحباب عاديّ، لكنّ الزعل يبقى داخل الجدران. هكذا هي لعبة الأمم. وهناك دائمًا خيّاطون جاهزون يُمسكون بالدبابيس بين أسنانهم. يرسمون بصابونة ناشفة خطوطًا على القماش. يأخذون المقصّات ويفصّلون الخرائط حسب المقاس. الأكمام والياقة لك، الصدر والحواشي لي. السعودية لكم والعراق لنا. أبيض إلَكْ... أسود إلي.

تصوّرت تاجي عبد الحميد أنّها قادرة على حلّ خيوط الشليلة. تكتب مقالات توقّعها باسم رئيسة التحرير وتعرف أنّها



إنّما تكتب على ماء وغدًا يفيض دجلة ويبتلع الحروف. من تكون صاحبة الرحاب أمام المُعتّقين؟ صيحاتها تبهر الصغار والمستجدّين فحسب. لا ترفع حواجب الفيلة الضالعين في المهنة. تحاول أنّ تلتزم بما سمعته من الباشا، تكتب ولا يُقنعها ما كتبت. تمزّق المقال وتدعك الورق وتقذف به من الشبّاك. آراء ستثير غضب جماعتها الأدباء والفنانين وتُفقدها قرّاءها.

كتب تشرشل إلى الرئيس روزفلت: "أشكركم جزيل الشكر على تأكيداتكم الخاصّة بعدم التطلّع إلى حقولنا في إيران والعراق. ودَعْني أُعاملكم بالمثل فأُعطيكم أوفى تأكيد بأنّ ليس لدينا أيّ نيّة لإقحام أنفسنا في مصالحكم في المملكة العربية السعودية". تسقط الوثائق والمراسلات السريّة في بئر التقادم، فتخرج إلى العلن. تصبح مُباحة لمن يريد. تفاهَم الطرفان وبات الباب مفتوحًا لتعديل المعاهدة. وحول طاولة عشاء في حدائق السفارة، ذات خريف بغداديّ حلو النسمات، يستمزج كورنواليس، سفير بريطانيا رأيَي الوصيّ ونوري السعيد. يتفق الثلاثة على أسلوب إخراج التمثيلية. الشعب العراقي هو من سيُطالب بالتعديل. سيُجبر بريطانيا عليه. يسخر الباشا في سرّه ويُترجم للسفير المثل الشعبي: "شيّم العُربي وخذْ عباته". يتناول كورنواليس مفكّرة صغيرة من جيب سترته ويدوّن المثل. كلّ الطرائف والأمثال والتعاويذ مفيدة لنشاطه. بهارات لطبخات كبيرة. المهمّ هو البنود الجديدة التي تحمي مصالح لندن. لن يسرح الشيوعيّون ويمرحوا في بلاد العرب. أرض شدّها الانكليز من براثن الرجل العثماني المريض.

في الليلة نفسها، بعد العشاء وانصراف الرجلين، يُبرق السفير



إلى وزير الخارجية بيفن يُطمئنه إلى أنّ الأمور تسير بدقّة بيغ بن. الخطوة التالية هي إقصاء رئيس الحكومة أرشد العمري وتكليف نوري السعيد بها. راح الباشا. رجع الباشا. هذه هي الوزارة السعيدية التاسعة وسنة ستّ وأربعين لم تنصرم، بعد.

يمرّ الخريف ثقيلًا وأول الشتاء. تحتفل الجالية البريطانيّة بعيد رأس السنة. تعتذر تاجي عبد المجيد عن عدم حضور الدعوة. السماء مُلبّدة ولا قلب ليفرح. لن تشارك في المراسم المعتادة. باتت مملّة. بل سخيفة. سيرقص المستشارون والدبلوماسيّون والضبّاط المتباهون ببزّاتهم الرسمية ونياشينهم. كلّ مع امرأته وصديقته. أو امرأة غيره. يشربون الشيري ويأكلون الكريسماس كيك وينتظرون تهاني الملكة. يتنكّر السكرتير الأول بثياب سانتا كلوس ويوزّع الهدايا على المحتفلين. سماجة!

ثمّ يعبر الشتاء بخطوات لصٍّ في الظلمة. ويحلُّ ربيع لطيف في بورتسموث. تتفتّح أزاهير المارغريت، وتفوح قلوبها الصفر. تُضاء الصالونات ذات النوافذ نصف الدائريّة المُطلّة على حدائق البيوت. رذاذ ومظلّات ومعاطف مطر. والشمس تَضْلي سطوح بغداد. ترفع من تأجّجها الأخبار الآتية من أرض الضباب. تُصغي تاجي إلى الراديو وهي قابعة في سِردابها. لا تعرف موقعها من الإعراب. ترى الصحف تتوقّف. أحزاب المعارضة تتعطّل. يُساق القادة الوطنيون إلى المعتقلات. تصل الاعتقالات إلى عدد من أساتذة الكليّات. يحتجّ طلبة الحقوق ويُعلنون الإضراب. يتبعهم الكلّ.

أغلقت الست أديبة إبراهيم البوّابة الحديديّة. منعت مديرة الثانوية الشرقية للبنات طالباتها من الخروج مع البنين. تخاف



عليهنّ وتسميهنّ بناتها. تصل المظاهرات شارع الرشيد وتعلن الحكومة تعطيل الدراسة. سيتفرّق الطلبة في بيوتهم ولن يخرجوا جماعات من الثانويات والكليّات. يسخر مرتادو المقاهي ويُطلقون عفطة طويلة جماعيّة. تأتي سيّارات الجيب وتعترض المظاهرات. ينزل منها أفراد هزيلون مغلوبون على أمرهم. يجمعون الهتّافين من فوق المناكب. ومن بورتسموث، يعلن المُفاوض فاضل الجمالي أنّ الطرفين على وشك التوقيع.

لا تدري تاجي هل تقلق على صديقها الباشا أم تنقم عليه. ليرة ذهب. حرام أن تسقط في جيب الانكليز. سمع مطالب الشعب وعالجها بدهائه. يخرج من رئاسة الحكومة ويعود إليها قبل أن يبرد مقعد مكتبه. رائح غادٍ. تبحث عنه في السرايا ولا تجده. تقصده في البرلمان فيمنعها الحاجب من الدخول.

ـ خير، ليش الباب مسدود؟

ـ الباشا مشغول. هواية مخبوص.

تسمع صوته من وراء الباب يتحدّث بالهاتف. تحبّ نبرته حتّى وهو يصرخ. شاطر في المداهنة. يُسايس الجميع. عربًا أكرادًا تركمانًا أعاجم وإنكليزًا. يعرف كيف يخاطب السداير والعُقُل والعمائم والطرابيش. نزَل دبلوماسيًّا من رحم أمّه. فاوض القابلة قبل النزول: إما أن أكون ثعلب الغاب أو لن تري رأسي. لا تفهم تاج الملوك لماذا يكرهه الكارهون. طلبة الكليّات والمعلّمون وهؤلاء الذين يسمّون أنفسهم الطليعة. دائمًا ما تتخاصم، حول الباشا، مع أصدقائها الفنانين.



تنتظر طويلًا قبل أن يأذَن لها الحاجب. تدخل فتجده على غير بشاشته معها. يبادرها، بدل الترحيب المعهود، بنظرة استغراب من تحت حاجبيه الكثيفين.

- إيش جابك بهذا الوقت؟

- جناب الباشا، أريد أفتهم شكو ماكو؟

- شويّة سرسريّة مَهيّجين البلد.

لا تتأخّر عنده. تتردَّد في إخباره بالسبب الحقيقيّ لزيارتها. أصحاب الأقلام المعروفة يقاطعون مجلّتها. تخلو الصفحات من الكلام الذي يقع على الجرح. ترفض الافتتاحيّات التي تأتيها من دائرة المطبوعات. القرّاء في وادٍ والمجلّة في واد. وهي تعرف الناس وتَحْسَبُ حسابهم. أصحاب العقول لا الغوغاء. ليست من أهل الأبراج. وقد اعتادت أن تعيش بين البسطاء. تتنفّس هواءهم وتأكلُ ممّا يأكلون. تُجادل الفاهمين والمحروقة قلوبهم. لا تجد بينهم من يرتاح لتمديد المعاهدة. حتّى الأميّون لن يبصموا على الخدعة. تريد تطمينات من الباشا وهو مشغول بالتلفونات. السمّاعة لا تسقط من يده. يتحدّث بالانكليزيّة ويومئ لها بأن تذهب. تنهض وتغادر المكتب. يلوّح بالسلام من بعيد. حتّى المصافحة لم يتكرّم بها عليها. كأنّه يكشُّ ذبابة.

تلك كانت آخر مرّة رأته فيها.

"تاذيني... تاذيني

يا ولفي ليش تاذيني..."

من نافذة بأعلى سردابها، يسمع المارّة في حيّ الميدان صوتًا



شجيًا يستوقفهم. تغنّي تاجي حين لا تجد مقالات تكتبها. خَلَتْ طاولتها من الملفّات. حتّى ساعي البريد يتأخّر عليها. ولمّا يأتي يكون فارغ اليدين. يهطل المطر وتعلو مياه النهر. يغطّي النزيز أرض الرحاب ويغرق لفائف ورق الطباعة. يعود الشتاء ببرده القارس. سنة جديدة لا تُبشّر بخير. ١٩٤٨. سواد سيُجلّل العرب.

خلص!

باضوا البيضة!

في اليوم الخامس عشر من أول السنة، بصم المفاوضون في بورتسموث على المعاهدة. إنكشفت البنود التي تكتّموا عليها. تركوا أرض العراق ومواصلاته ساحة مُشرّعة لتحرّك القوّات البريطانيّة. يتجمّع عمّال المطبعة ساخطين ويتناقشون بجلبة. يقرأ أحدهم تقريرًا واردًا من لندن:

ـ إسمعوا، ستنفق دولتنا من ميزانيّتها على القواعد العسكريّة المشتركة. وسيكون على بغداد أن تناصر لندن في كلّ النزاعات.

ـ شنو يعني؟

ـ يعني إذا قرّر الانكليز أن يحاربوا الأسكيمو فإنّ على أمّهاتنا في سامراء وطويريج وديالى إرسال أولادهنّ ليموتوا في القطب الشماليّ.

ـ بأيّ ذمّة... بأيّ قانون؟

ـ دفاعًا عن شرف صاحبة الجلالة.

إنتهى وقت اللغو. ضرب الأخماس بالأسداس ما عاد ينفع.



ينتفض الجميع ضد المعاهدة. من فهمها وقرأ تفاصيلها ومن لا يعرف القراءة. إحتجاجات جديدة أقوى ممّا سبق. يقودها حزب شيوعيّ محظور على الورق وأحزاب أخرى تنشط في العلن: الإستقلال، الشعب، الوطنيّ، والديمقراطيّ الكردستانيّ. بغداد تغلي على نار مُتّقدة ولا زرقاء يمامة تتطلّع إلى الأفُق البعيد، تحذّر قومها لأنّها ترى أشجارًا تتقدّم. الشرّ آتٍ. وليس هناك من يخنق النبوءة في مهدها. سيجفّ الشجر الأخضر ويشتعل اليابس ولن ينطفئ لسبعة عقود تالية. وتاجي واحدة من كلّ هؤلاء الذين تتجاوزهم الأحداث. يخافون العجلة الدوّارة لئلّا يروحوا بين الأقدام. يجرفهم التيار القوي. من سردابها رأت شعبًا يوحّده الخطر في لحظة كبرى.

كان يوم سبت. في الثامن عشر من كانون الثاني سنة ثمان وأربعين. عاد طلبة الكليّات من عطلة الجمعة وأعلنوا الإضراب السلميّ. لم يدخلوا إلى الصفوف في ذلك اليوم ولا في الأيّام التالية. إنطلقت الشرارة من دار المعلّمين العالية وسرت في هشيم الغضب. أفكار يساريَّة وقوميَّة وبينَ بين. إندفاعة وطنيّة وشباب يتهجّى لأول مرّة تاء ميم التمرُّد. قال المحافظون بل هو التهوُّر. منذ ثورة العشرين لم يرتفع صوت بمثل هذه القوّة ضد الانكليز. إضراب تَسنِدُه أحزاب الكتلة الوطنية. يحضر ممثّلون عنها الاجتماع اليومي للجنة الطلبة. ما عاد الصبر ممكنًا، ولا "مكانك سِرْ". بعد يومين تحرّك الإضراب الواقف وسار على آلاف الأقدام. جماعات متفرقّة تخرج من الكليّات بهدوء. تموّه على قوى الأمن. تأتي من دار المعلّمين. كليّة الهندسة. الطبّ.



الصيدلة. تلتقي عند ساحة باب المعظّم. ينقل الجسر العتيق جموع الكرخ إلى الرصافة. تعترضهم الشرطة فيعبرون بالزوارق الخشب والقُفَف. ينفلت طالب من مبنى المكتبة المركزية ويهتف بسقوط المعاهدة. تخرج الحناجر من الحلوق. تُردّد في صيحة واحدة: "تسقط معاهدة بورتسموث". تُتفاجأ الشرطة وهي ترى المسيرة في طريقها إلى الباب الشرقي. يلتحق بها طلبة المدارس الثانويّة. الإعداديّة المركزيّة. الغربيّة. الشرقيّة. طالبات الكلّيات يمشين مع زملائهنّ. تطير المنشورات حمائم بيضًا فوق قلب بغداد. تصل طلائع السائرين إلى تمثال السعدون. تتحوّل الأزقّة إلى مسارب للمطاردات. هلاهل. حجارة. هراوات. خطابات. الشاعر بحر العلوم يتسلّق قاعدة التمثال ويقرأ أبياتًا كتبها في الليل والجواهري يرتجل من فوق الأكتاف: فأكرِمْ بالحجارة من سلاحٍ... ابْتَكَرتْهُ ثورتُنا ابتكارا!

تخرج تاجي في اليوم التالي فترى الدكاكين مغلقة. المقاهي مقفرة. تريد الذهاب إلى الجريدة والتجوّل ممنوع. تُخفي الداخليّة فشلها بأن تحبس الناس في بيوتهم. يتحدّونها ويهبّون خارجين إلى الشوارع. لا أحد ينصاع لأوامر وزارة تخون الوطن. تأتي الجموع زاحفة من الأطراف. تَقْصِدُ قلب المدينة. تختلط بمظاهرة الطلبة. الكلّ يَهْتِفُ بإسقاط الحكومة. يعلِنُ متحدّث رسميٌّ أنّ زعزعة عرش العراق مؤامرة صهيونية. تغطية على سلب فلسطين. تصيح أصوات متفرّقة بأنّ نوري باشا وحده من يستطيع التصدّي لليهود. أخذ كلمة من الحليف الانكليزيّ. القهر يمتزج بالدهشة. هل كان بلفور، صاحب الوعد المشؤوم، هنديًّا من السيخ؟



القبو المظلم عاد قبوًا مظلمًا.

أغلقت تاجي الرحاب. أعادت مفتاح السرداب لصاحب المطبعة. العمّال هائجون والورق شحيح. المنشورات السريّة أولى بما بقي صالحًا منه للطباعة. فكّرت في العودة للعمل في النداء. ما كان مُرًا بالأمس صار اليوم شربتًا. يرحّب بها رئيس التحرير ويمنحها مقامها. غادرته كاتبة ناشئة وتعود إليه اسمًا ذا رنّة. خصّص لها مكتبًا في غرفته، قرب النافذة. موقع يطلّ على الرشيد. لو تمدُّ يدها تلمس رؤوس المتظاهرين في الشارع. الكلُّ يشجّعهم والشرفات تغصُّ برجال ونساء يطشّون عليهم الحلوى. تحاول أن تكتب لكنّ أصوات الهُتافات تحرمها من التركيز. تخرج إلى الشرفة وترى طلبة على الرصيف، تحتها مباشرةً، يتخاطفون خبزًا حارًّا يتقاسمونه بينهم. يتعرّف بعضهم عليها. يبتسمون ويلوّحون لها.

- تاجي عبد المجيد... هيّا معنا!

صبيحة ذلك اليوم البارد من كانون، سمعت العراق كلّه يهدر في بغداد. رأتْ مُقعدين ومُسنّين وأمّهات يحملن أطفالهنّ فوق أكتاف العباءات، يسيرون نحو الميدان. دار دمها دورتين. رائحة خبز التنّور تصعد إلى رأسها. تشمّ أصلها فيها. تركت حقيبتها وارتدت معطفها. نزلت إلى الرصيف وتقدّمت إلى الشارع. أحاط بها المتظاهرون مُرحّبين. لا تعرف كيف استسلمتْ لهم فحملوها على المناكب. تاجي، الصحافية الموالية للقصر، مُدلّلة نوري السعيد، تتظاهر ضدّه. يرقصون بها غنيمة ومُصوّر البلاد يلتقط الصور. تتوجّه المسيرة نحو رئاسة الوزارة.



صوت جهوريّ يلقي الشعارات والآخرون يُردّدون. وهي لم تتعوَّد الصراخ. تتمنّى لو تغنّي. لو يصمتون فتضع كفّها على خدّها وتطلق الصوت:

"يا حافر البير لا تغمّق مَساحيها...

خوف الفَلَك ينذار وأنتَ التقَعْ بيها".

يضيع صوتها في الهدير. تنجرح حَنْجُرتها. تمتدّ يد لتمسك يدها. تنظر إلى صاحبها وتلتقي عيناها بعينيه. لحيته صارت بيضاء ومقدّمة شعره منفلتة من العمامة. تفزع وتضطرب. تراه يبتسم لها. أو لعلّه يبكي. لم تصدّق أن تراه هنا. بين كلّ هؤلاء الأوادم. زوج أمّها الذي خدش براءتها وشرَّدها من البيت. تصيح به:

- سيّد عبد المجيد!

- تاجي ... بنتي تاجي...

- وين أمّي؟

- لم يفتني مقال من مقالاتك.

- وين أمّي؟

كأنّها سمعته يناديها بنتي. الأصوات تتداخل لكنّه قال إنه يقرأ ما تكتب. صبّ ماءً قراحًا على قلبها. تتلفَّتُ تبحث عن زينة السادات فلا تراها. يتحرّك الموكب وتنفلتُ يدها من يده. يبتعد تاركًا طبلًا يدقّ في داخلها. تتصاغر ضغينتها أمام حدث يهزّ البلد كلّه. جرَّبتْ الدنيا منذ أن غادرت البيت. فهمت أنّ عقول الرجال في مكان خارج رؤوسهم. حتّى لو كانوا من الأتقياء والمُصلّين. وزوج أمّها ليس قِدّيسًا. تكفيها الذخيرة الأدبيّة التي حفظتها منه. إنّ نسيان الألم صحّة. وهي لا تريد لهذا الدوّار



الجميل الذي أصابها فوق أكتاف الطلبة، أن يغادر رأسها. الطلبة أنفسهم الذين كانوا ينتظرونها وهي تغادر مطبعة الزمان في عتمة الليالي. يسير اثنان أو ثلاثة منهم وراءها يحرسونها حتّى البيت. لعلَّ شجاعتها تُلهمهم. فكّت قيودها وحقّقت معجزتها الخاصة. كانت تراهم يجلسون في مقاهي الميدان لمراجعة دروسهم. وكانوا يرونها تغادر المطبعة وعدد المجلة حارّ في يدها. يُنظّمون أنفسهم في دوريات حراسة. الحيّ مشبوه والسرسريّة كثيرون. تصل بيتها وتغلق الباب فينصرفون.

مع شروق كلّ صباح من تلك الأيام، ستلتحق فئات جديدة بالإضراب. يأتي سكّان الصرائف ويمشي المَسْطَر وعمّال الطابوق والمطابع ومعلّمو المدارس مع باعة اللبلبي والسمكريّة ونُدُل المطاعم. يزداد حضور النساء وسط المتظاهرين. سافرات وبالعباءة. تنزل تاجي وتندسُّ بينهنّ. ترى عدويّة الفلكيّ تحمل العلم وتسير في المقدّمة. حتّى حجارة الشارع ترفض المعاهدة، وأعمدة الكهرباء وكراسي المقاهي ومرايا الحلّاقين. صفوف الشرطة تسدّ الطريق. يتكهرب الجو، فجأةً، ويأتي صوت إطلاقات من جهة الجسر. هرج وتراجع وعباءات تتمزّق. تسمع من يصيح بأنّ الرصاص انطلق من مئذنة السرايا. زحفت الجموع على الجسر وقابلتها الشرطة بالنار. رأت تاجي شبّانًا مصابين. يسحبهم رفاقهم إلى زوايا آمنة. تنفتح أبوابٌ في الأزقّة لإيواء الفارّين من البنادق. أمّهات وبنات يسحبن الجرحى إلى مجازات البيوت. يطلع من وسط الفوضى من يعلن:



ـ هناك قتلى على الجسر...

يصيح شيخ مُعمَّم:

ـ قلْ شهداء!

كان موتًا صباحيًّا مُبكِّرًا. ومع الضحى اختفت الشرطة من الشوارع وتركتها للندّابات والمفجوعين. وبعد ساعات قلائل نقلت أجهزة المذياع في المقاهي بيانًا صادرًا من البلاط. الوصيّ يدعو الشعب إلى الهدوء. يعطي وعدًا بسماع مطالبه. يدعو الوزراء والنوّاب والأعيان وعددًا من رؤساء الأحزاب لاجتماع في قصره. ومع المغيب يجري الإعلان عن استجابة الحكومة الى مطالب المواطنين. إلغاء معاهدة بورتسموث. إعفاء صالح جبر من رئاسة الوزارة. تكليف محمد الصدر تأليفها. إطلاق الموقوفين وتعطيل الدوام في الكليات حتّى إشعار أخر.

هبط ليل ثقيل ولا عين تنام. أسماء الضحايا تسري من بيت لبيت. شمران. بهيجة. قيس. جعفر شقيق الشاعر الجواهري. كان يدرس الحقوق في دمشق. جاء لقضاء عطلة الربيع مع أهله وغسل دمه الجسر. تعضّ تاجي قلمها بين أسنانها والتعبير يخونها. الملاحم ليست بلاغة ولا إنشاء. أرقتْ تلك الليلة ونامت قرب الفجر. ثمّ سمعت من يدقّ على نافذتها:

ـ قومي... صورك في الجرايد.

ـ الجرايد لصور الشهداء.

ـ الخبر وصل للباشا...

ـ ليكنْ!



مشت تشارك في تشييع شهداء الوثبة. هكذا صار اسمها. الوثبة. لم تنتظر دعوة هذه المرّة. كلّ شيء كان مرتّبًا مسبقًا مع زملائها في العمل. سارت ونظّارتها السوداء على عينيها، تمسك طرف لافتة جمعيّة الصحافيين، والطرف الآخر في يد صديقتها أمينة الرحّال. الآلاف يقفون على جانبي شارع الرشيد، يُفسحون في المجال للموكب ويرافقونه حتّى المقبرة. والمسيرات الفرعية تلتحق بالموكِب الكبير.

تأتي من صوب الباب الشرقيّ زهرات بصدريّات سود، يرفعن لافتة الثانويّة الشرقيّة. والمديرة التي خافت على بناتها ومنعت اشتراكهنّ في المظاهرات السابقة، فتحت بنفسها بوابة المدرسة، هذه المرّة، وسارت في مقدّمتهنّ. ترفع أديبة إبراهيم علم العراق، وتسير معها معاونتها لميعة الأورفلي. تدمع عيون الطالبات من التأثّر. تشعر كلّ واحدة منهنّ، على صِغر سنّها، بأنّها تشارك في رسم مستقبل لها ولبناتها. يهتفن بأصوات ناعمة ضد الانكليز وترجّع الهتاف أصوات الطلاب الخشنة. يتماسك الأولاد بالأيدي في سلاسل على جانبي الشارع، يحرسون مسيرة البنات. يرسمون اللافتات، على طاولات المقاهي، ويخطّون الشعارات ويمرّرونها لهنّ.

ثمّ جاء صوته، فجأةً. سكت الكلّ وأصغى. تتلفّت تاجي إليه وتعرف صاحبه. من لا يعرف الجواهري؟ رأته عدّة مرّات في لقاءات عابرة. كلّما صافحته مرّ تيّار من كفّه لكفّها. عينان عميقتان قنّاصتان وحاجبان كثيفان يحاصران الطريدة. هذه المرّة، كانت عيناه جمرتين حمراوين. أمن بكاء أم سَهَر أم شراب؟



كتبت تاجي: "غربت شمس الشتاء. الجسر حزين وغربان تنعب فوق دجلة. تحوم حول المنائر. المنشورات المبلّلة تغطّي الرصيف. مِزَق من قمصان وبقايا لافتات ديست بالأقدام. رائحة البارود في الأنوف. وصوت الشاعر في الأسماع. ليس أُنْسيًا ولا من الجِنّ. كان كما هو. نحيلًا فارعًا عِفريتًا بعدّة أرواح. يعتلي الهامات من جهة اليمين. ثمّ يغيب ليظهر مرفوعًا على الأكتاف من اليسار. يقفز إلى مقدّمة سيارة ومنها يتسلّق الأذرع إلى سطح حافلة خشبيّة. صوته أعمق من هدير الموكِب. يفتح شفتيه فتخرس الهُتافات وتشرئبّ الأعناق. تتدفّق جواهر الكلام من فمه، أمام المشيّعين، فلا تعود مُلكًا له. يُعربد ويتجلّى ولا يخشى شياطين الأرض. يمدُّ واو الموت على طريقة أهل النجف. يكزّ على حروف القصيدة فتكاد تسمع صرير أسنانه. يتلقّف السامعون الأبيات بدون عناء. مولودة حارة تُطلق بخارها وهي تنزل إلى برد كانون. يُلقيها ويستعيدونها. يكرّرونها وراءه وتحفظها الذواكر في اللحظة".

وصلت مواكب المُشيّعين إلى المقبرة. وقفت تاجي ورفاقها عند الحفرة الجاهزة. لحظات لا تُنسى سجّلتها الصور. مثلما سجّلت أربعينيّة الشهداء في جامع الحيدرخانة. أخذوا جعفر الجواهري إلى النجف ليرقد في وادي السلام. وقف شقيقه الشاعر في حفل التأبين ونطق عجبًا. مئة بيت حلّقت وحطّت على شفاه العراقيّين في مقاهي العاصمة. ميناء البصرة. أهوار الناصرية. مصافي كركوك. مآذن كربلاء ومراقد النجف. حفظوا الميميّة نشيدًا وطنيًّا:

" أتعلم أم أنت لا تعلمُ

بأنّ دماء الضحايا فمُ"؟



لم يكن ينقصني إلّا هذا. دور الوسيطة التي تُقرّب ما بين القلوب المتباعدة. تستلّ، من ضبّة ورق اللعب، الشايب ذا التاج الأسود وتضعه بجانب العجوز ذات القلب الأحمر.

حاولتُ أن أتهرّب، دونما جدوى.

ألقت عليّ تاجي الدور الأصعب في حياتها. إختفت من بيتها وهجرت باريس كلّها. تلفلفت بوشاحها الأبيض وركبت تاكسيًا ومضت إلى محطّة القطار. طلبت مني أن أتدبّر أمره. ذلك العاشق الذي جاء من فنزويلا. غاب نصف قرن وطلع لها في اليانصيب. وأنا اللي أستاهل كلّ اللي يجرالي. ساعتان وأنا أنتظره. أُتابع في اليونسكو الطقس المملّ لافتتاح الجمعيّة العامّة. يتعاقب الموفدون على المنصّة. أتعب من الخطابات الطويلة. المسرح بعيد وأنا في الصفوف الأخيرة من القاعة. سمعي يخونني واهتماماتي في مكان آخر. لكنني، لمّا جاء دور شافيز، وضعت سمّاعتَي الترجمة الفورية على أُذنيّ واستدعيت الصوت إليّ. أرفع المؤشّر إلى أقصاه. يصير الخطاب داخل جمجمتي. كلامه سريع يتدفّق صَليًا. والمترجم يلهث وراءه. لم أكن معنيّة بالشأن السياسيّ. الشمال والجنوب. المعسكرات المتضادّة. يكفيني أن أتفرج على الاستعراض المثير الجاري في القاعة. ثيران تتصارع. وفنزويلا تنزل إلى الحلبة بثقل نفطها وكاريزما رئيسها الشاب. رجل بمقياس جدار. لا يشبه المُكعّبات المتينة ذات الجلود اللامعة. أجداده من قبائل الأنكا. خدّاه عاليان وبشرته قاتمة



متوَهّجة. عريض الصدر مثل ربّاع. ثائر يشاكس الإمبرياليّة. خرج من السجن إلى الرئاسة محمولًا على أصوات عشرين مليون فقير. الفلاشات تلتمع على وجهه. تزيد من وهجه. أرى سطوته على القاعة وأفهم لماذا كرهته مدام شامبيون. تضحك وتقول إنه ضرّتها. شريكها في قلب الحبيب المخضرم.

خطاب جميل. لا بدّ أنّ البروفيسور الفلسطيني، صديق تاجي، هو من كتبه لشافيز. عرفت منها أنّه مستشاره للشؤون الدولية. القاعة تصغي والمُصوّرون يتحرّكون مثل الدبابير. لم أكن أفهم، قبل ذلك اللقاء، ما تثيره شخصيّة الرئيس الفنزويليّ من هياج. أحاول أن أشرئبّ بعنقي باحثة عن منصور البادي. أنا هنا من أجله، لا للإصغاء إلى الحصان الجامح. صديق رئيسنا وشبيهه في الاقتحام. أنتظر انتهاء المراسم لأقول للمستشار كلمتين وأنّصرف. لست سوى رسولة من تاج الملوك. وضّبتُ عباراتي وحفظتها جيدًا. إنها تعتذر لك، يا سيدي، ولن تحضر للقائك. كانت تنتظرك يومًا بيوم. تتلهّف لرؤياك. لكنها جَفلتْ في اليومين الأخيرين. خافت أن تراها وقد تقدّمت بها السن. أنتم الرجال لا تفهمون وسواس النساء. تشيخون بلطافة. وهي تريد أن تبقى في عينيك كما كانت في الصورة التي أخذتها لها على الباخرة. وردة ربيعيّة.

هل تذكر نظرتها الوَلهى وهي تتكّئ على جدار الباخرة؟ تودادعتما على أمل لقاء قريب. تركتْك وحيدًا في كراتشي ومضت إلى طهران. يا لعذاب الفراق من عذاب. أنا ذقته، أيضًا، يا سنيور البادي. لكن ليس من الضروري أن أحكي لك كلّ هذه



الهوامش. أعذرني لأنّني ثرثارة أحيانًا. رومانسية دائمًا. لا أفتح شفتيّ لكنني أقيم حوارات طويلة مع نفسي. والآن معك. إنتظرتك حتّى انتهت الجلسة وغادر الحضور مقاعدهم. رصدتك بعينيّ لئلّا تضيع في الهرجة. قمت وتبعتك إلى البهو. تلمحني وتومئ لي. ننسحب من الزحام. تضع كفّك تحت مرفقي وتأخذني خارجًا. كأنّني واحدة من معارفك، أو سكرتيرة من وفد بلادك.

ـ الجو حارّ، ألستِ عطشى؟

ـ بلى.

ـ فلنذهب ونشرب شيئًا.

مضينا إلى فندقه القريب. مكان متواضع لا يليق بمستشار دولة نفطيّة يحكمها قبضاي. جلسنا في البار. أنظر إلى ساعتي. ما زال المساء في أوّله. يمكنني البقاء معه لنصف ساعة. هذا ما حدّدته لنفسي. لكنّ الساعات مرّت من وراء ظهري، دون أن أشعر بها. ورغم يومه الطويل، لم يبدُ على منصور البادي تعب.

ـ كم ساعة بالطائرة بين كاراكاس وباريس؟

ـ لم نأت من كاراكاس...

فاجأني أنّه جاء من الهند. رافق شافيز في زيارته الأولى للشرق الأقصى. على أن يطيروا من هناك إلى باريس لحضور الجمعية العامة لليونسكو. وقد كان هو أسعد أعضاء الوفد لسببين. سيقابل حبيبة سنوات الشباب، وسيوزّع على الوفود كتابه عن سيمون بوليفار، مُحرّر القارة اللاتينيّة من الاستعمار. شحن



معه مئتي نسخة من الكتاب بالطائرة. لكنّها تعطّلت في بومباي.

ـ ماذا فعلتم؟

ـ أنقذَنا أمير قطر. أرسل طائرة خاصة لنقلنا مع شافيز إلى هنا.

ـ المهمّ حمدًا لله على السلامة.

ـ سلامة مع غصّة. ترك عمّال الشحن كتبي في الطائرة العاطلة.

كنتَ تتحدّث بسرعة ولهفة. تريد الانتهاء من المجاملات لتدخل في المُهمّ. سألتني إن كنت أُمانع في طلب الكحول. آلكوهول. قلتها كما يلفظها الأجانب. وكذبت عليك.

ـ لا أبدًا... خذ راحتك.

ـ ماذا تشربين؟

ـ أيّ مشروب خفيف على ذوقك.

تذوّقت المارتيني روسّو ولم أجد، في الرشفة الأولى، فرقًا بينه وبين عصير التفاح. كشفت سرّه بعد الكأس الثانية. نتحدّث وتقشّر لي الفستق وتحتسي الويسكي، لا تكسره بماء. تقطّر لي عمرًا من الممانعة في قدح صغير أكرعه في ثلاث جرعات. يمضي الوقت وذكرياتك لا تنتهي. يخلو المكان إلّا منّا. يغلق البارمان العجوز ثلّاجاته ويذهب لبيته. نتسامر مثل صديقي سَفَر. وحيدَين وثالثتنا تاج الملوك.

لم أسهر في حانة، منذ مجيئي إلى باريس. لكنّني، تلك الليلة، لم أكن وديان. أنا رسولة مدام شامبيون. انتدبتني مثلما يُنتدب



السفراء والمفوّضون: ستذهبين لملاقاته وإبلاغه اعتذاري. لن أقوَى على مواجهته. لا أحبّ أن يرى تجاعيدي وبياض شعري.

- سنحتال على شعرك بالصبغة يا تاجي.

- وبِمَ سنموّه تقوّس الظهر يا صغيرتي؟

لم أحبّ يومًا مناداتها لي بصغيرتي. جاهدتُ حتّى لا أكون صغيرة أحد. تحمّلت الصدمات والكدمات وأشكال الظلم لكي لا أنحني مثل انحناءة عمودها الفقري. لكنّها، رغم سنّها، كانت تسبقني بنشاطها. تنزل من بيتها، في المساءات الباردة، لكي تُطعم قطط الحيّ. لا تتخلّف عن الموعد حتّى لو كانت مريضة. تعرفها الكائنات الضعيفة السائبة وتنتظر مجيئها. تتجمّع في زاوية فسحة مُسوّرة بسياج معدنيّ أخضر. طلبت تاجي من البوّاب أن يصنع لها مِلقطًا طويل الساقين. تُمسك بمواعين البلاستيك الصغيرة وتهبط بها من فوق السور إلى أرض الفسحة. وحين تنتهي القطط من ازدراد عشائها تسحب تاجي الصحون الفارغة، بالمِلقط، وتعود بها إلى شقّتها. تصعد الطابقين متحايلة على وهن ركبتيها. أحاول، أحيانًا، أن أسندها فتبتعد. تستعين بمحجر الدرج. لا تتّكئ على أحد. لن يؤلمها شيء طالما أنّها أدّت مهمّتها اليومية. تنام مستريحة.

لن أكذب. بهرتني تاجي منذ البداية. أعجبني اسمها المُركّب وأحببت أن أُناديَها بالجزء الأول منه. تركنا اسمها الفرنسيّ للرسميّات، حين نكون مع آخرين من جيرانها أو أطّبائها. أليس من لطف البخت، أن تنزل إلى الدنيا طفلة لا حول لها ولا قوّة، فيسمّونها تاج الملوك؟ وحتّى هذا السنيور المحترم الجالس أمامي، أصابته



دهشة اسمها. ردّده في قلبه سنة بعد سنة. عَقدًا بعد عقد. لم يُخطئ فيه أو يُجزّئه. زرعه في لسانه ولم يُسقطه من ذاكرته. أراه مثلي، يعتنق اسمها العربيّ ويُفضّله على مدام شامبيون أو مدام دوبون أو بوربون وغيرهما من ألقاب تُزحم دليل الهاتف.

طوى منصور البادي التاريخ والجغرافيا وجاء لملاقاتها. لكنّها، في عزّ الفيلم، خانتها شجاعتها. تهيّبت من مواجهته وفرّتْ بعيدًا. هربت من الحلم الورديّ الأثير الذي يجدّد خلاياها. أيكون انتظار اللقاء ألذّ من اللقاء؟ تذرّعت تاجي بألم مزمن في الظهر. قالت إنّ ألعاب الغرام لا تناسب سنّها بل تناسبني. تلومني لأنّني خالية. أنانية. لا أُظلّل رجلًا بفيء أُنوثتي. وكنت أتقبّل تعليقاتها وأبتسم. أو أنجرح. أنطوي على همّي وأحسدها على اخضرار روحها. إنّ قلبها أشبّ من قلبي. وأنا الآن أستعدّ للدفاع عنها بمساعدة... ما اسمه؟ المارتيني روسّو.

ـ أين تاج الملوك خانم يا وديان؟

ـ هربتْ منك ومن باريس وذهبت عند ابنتها.

ـ معقول؟

ـ سافرت إلى تونون.

ـ غدًا نذهب إليها.

ـ مستحيل. مكانها بعيد. على حدود سويسرا.

ـ سويسرا شمرة عصا...

ـ لا أعرف عنوانها.



يبحلق فيّ بنظرة استنكار. أعرف أنّه لا يُصدّقني. يغمض عينيه كمن ينام وهو جالس. مُرهَق وحزين. أنتهز الفرصة وأتأمّل ملامحه. رجل أنصفته السنوات. شيبه وقار وقد رأف به العمر. لم يُجِلْ وجهه محفورات. أتكلّم معه فلا يسمع. أرفع صوتي فينتبه. يضع كفّه وراء صوّان أذنه اليسرى. يستجمع ما يفوته من حروف. أنامله رشيقة مثل عازف. هذه شغلتي. يشبه تاجي في معاندة الزمن. لو رآها لوجدها أفضل ممّا توقّع. ما زالت تقبض على مفاتيح جمالها. روح وثّابة في جسد يتضاءل. تأتي على سيرة عشّاقها دون أن يرفّ لها جفن. لكنّ الخَفَر يتلبّسها حين تذكره. وحده دون غيره. هو الذي لم ينل منها قطرة ممّا سفحتْ. كما لو أنّ في حبّه خلودها. ثمّ حدثت المعجزة. ظهر العاشق اللاتينيّ في الأفق. يحضر من آخر الدنيا، فتخذله وتدخل تحت الأرض. ويكون عليّ أن أداوي الفراغ.

بأناقة مرسومة بالفرجار، كان يقرّب الكأس من فمه. لا يعبّ المشروب عبًّا مثل من أعرف من العراقيّين. يسابقون الساعة ليسكروا. يتمهّل منصور البادي ويعطي للسهرة حقّها. يزمّ شفتيه ثمّ يحتسي قبلة الويسكي. يبتسم بوداعة اليائس وأنا أُشاغل الكريستال بطرف لساني. ربع عقلي معه والباقي مع المارتيني. يخبرني أنّه طاف الكثير من البلاد. حمل عدّة جنسيّات. تزوّج مرتين. رُزق من كلّ زوجة ابنتين. ولم يتمكّن من نسيانها. ضحكتها ما زالت في أذنه. ينزع سمّاعتيه فيسمع غناء تاج الملوك. كبرت بناته وصرن نساءً رائعات. يُخرج من محفظته صورهنّ. يتدرّع بالتصاوير. مثل تاجي. هي وثائق المهاجر لإثبات



انتمائه إلى مكان غاب عن يوميّاته. لست مثلهما. كرهت المكان ومزّقت الصور.

يخفت صوته وهو يتحدّث عن زوجته الأولى:

- إنفصلنا بسببي. كنت غارقًا في النضال الفلسطيني.

- والثانية؟

- تزوّجتها بالعقل. أستاذة جامعيّة تفهمني. في السنوات الأخيرة أقعدها المرض. أرعاها وترعاني.

يصمت فأصمت. يعيش مع امرأة أجنبية ويحلم بالعراقيّة التي رآها في كراتشي.

- خَلَبَت لبّي تاج الملوك!

- كيف لم تنسَ حتّى هذه التعابير؟

- حبّها جعلني أديبًا.

- قالت لي العبارة ذاتها. أطلعتْني على رسائلك.

- معقول؟ أما زالت عندها؟

- تكوّمها تحت الفراش وتنام فوقها.

- سأقول لكِ شيئًا لم أعترف به لأحد. بعد تاج الملوك خانم، عجزت عن ملامسة امرأة عربية.

يخلع شيخوخته في حضرة المسامرة ويرتدي صباه. عاد ذلك الابن الذي أرادت له والدته أن يتزوج بنت خالته. رأته مهمومًا وقد طوى صفحة كراتشي. قدّمتْ إليه عروسًا صغيرة وبريئة. مَقدسيّة لها ذلك الحسن الطريّ لبنات الدلال. راقته سذاجتها. سيربّيها على يديه. لكنه لمّا انفرد بها وسمعها تتلعثمُ



بلهجتها المُنغّمة، تذكّر هديل تاج الملوك. تجسّدت له وهي تلصق شفتيها بميكرفون الراديو. تَشتّتَ ذهنه وباختْ رجولته. ليس سواها من توقظ القنفذ اللابد في حضنه.

يخفت صوته والنعاس يُذبل جفنيّ. غدًا سيندم على هذا البوح. وسأندم على المارتيني. يهمس وعلامات الأسى على وجهه:

ـ الشرقيّات فخّ عميق.

ـ سينيور البادي، لا أسمع ما تقول، عندي صمم جزئي.

ـ معقول؟ صرنا اثنين. أنا أيضًا أطرش!

يدير لي صفحة وجهه لأرى شريط السمّاعة في أُذنه اليسرى، ثمّ اليمنى. نضحك بتواطؤ. أطرشان في الزفّة. نصمت ونترك للأفكار أن تحوم فوق رأسينا. يشرب ويطلب المزيد. يكتسي وجهه بذلك الحزن الموصوف الذي نشاهده في الأفلام الكلاسيكيّة. كلارك غيبل وهو يحتضن فيفيان لي. ريد بتلر يقبّل سكارليت أوهارا. ترفع إليه ذقنها المثلث الدقيق. تحسّ بوخز شاربه على طرف شفتها. قبلة تسكنني ولا تذهب مع الريح. ملعون أبو المارتيني. أسند رأسي إلى ظهر المقعد كأنّني في السينما. سنحتاج إلى مانعة صواعق لو جاءت تاجي الآن ورأت تجلّيات عاشقها. له إهاب راقص تانغو. يُقطّب الجبين ويقطّر أحزانه في خطواته. يدحرج قلبه تحت قدميها. يسحبها وتُطيع. يقودها وتنقاد. يلفّها حول نفسها فتتظاهر بأنّها بوغتتْ. تفترق عنه فيشدّها إليه. تنجذب نحو صدره ثمّ تنفلتْ. تميل تاركة ظهرها ينساب فوق ذراعه.



يا لقسوتها حين أخلفت الموعد وتركته في غمامته، هذا السنيور العربيّ اللاتينيّ!

هل تستحقّ هذا الوَلَه؟

أغبطها، لا أغالط نفسي. أتمنّى لو كان لي مثل قصّتها. رجل سَهَت عنه سنوات طوال ولا يزال متيّمًا بها. عشقتْ قبله وبعده. راسلته ووعدته ونكثت بالوعد. حملتْ من غيره وولدتْ بنتًا. تزوجتْ آخر ولدتْ منه ابنًا. وهو ما زال يقاوم النسيان وينتظر لفتة منها. لن أُداري ذبابي الأزرق حين يزورني ويقف على وجه غيرتي. وهذا الكهل الثمل الجالس أمامي جدير بعاطفة ما. ليس عجوزًا تمامًا. لعلّه في السبعين وخطوتين. وأنا يُشجيني فراغي. قالت لي إنني خالية. ما الذي تدريه عني؟ لا تعرف أنّني أتحرّق لأحبّ. أنغرم وأتولّع وأهوى وأعشق وأذوب "وعلى المكتوب ما يفيدش ندم". هكذا تجري الأغنيات على أفواه السكارى. تهدهد السَهَر. تفضح ما أواريه من حسرة واشتياق. كأنّ الدنيا خلتْ من الرجال بعدك يا يوسف.

إنفضّت الجمعية العامة لليونسكو وعاد منصور البادي إلى كاراكاس. لم ترجع تاجي من تونون. تأخّرت وقالت لي في الهاتف إنها في حالة نفسيّة سيّئة. أنتظرها لكي أحكي لها ما دار بيني وبينه. أقدّم التقرير بالمهمّة التي انتدبتني لها. أنقل ما أوصاني به:

ـ أمَانة، قولي لها إنني مسامحها هذه المرّة. لكنّني سأعود لأراها ولن تُفلتَ منّي.



١٨

ليس في حياة تاجي عبد المجيد موجة متهاودة. لا سواحل رملّية أو ضحالات. دائمًا في قلب اللُجّة. نشرت الصحف صور تشييع شهداء الوثبة. تتأمّل صورتها وهي تتقدّم حاملي لافتة جمعية الصحافيّين. لا تخفي نظّارتها السوداء ملامحها. شكلها مميّز ولا محلّ للالتباس. بدلتها الغامقة وحقيبتها البيضاء الصغيرة المتدلّية من كتفها. لا شكّ أنّ الصحف موجودة على مكتب الباشا. أو ستؤخذ له إلى بيته على الشطّ، يطالعها مع شاي الفطور. هي منذ الآن مرصودة. مسحوب عنها الغطاء. مثلما رسمها أكرم شكري في تلك اللوحة. مكشوفة. ناكرة جميل. تبصق في الطبق الذي أكلت فيه. وسيأتي من ينصحها بمغادرة البلد. الهروب عبر الحدود الشرقية وإلّا...

- وإلّا ماذا؟

- السجن بتهمة الشغب.

- والحل؟

- يمكنك أن تعودي إلى إيران.

فكّرت في طلب العون من الأمير عبد الإله. لعلّ في قلبه بقيّة منها، لكن الوصيّ مشغول بالأحداث. لا وقت له للتدقيق بصور الجرائد واستذكار عاشقة "بوليرو". من تكون تاجي عبد المجيد ليهتمّ بما فعلت وما لم تفعل؟ هو الآن يجمع زعماء الأحزاب وشخصيّات البلد. المؤيّد منهم والمعارض. الكلّ يتداول أسماءهم. الصدر والمدفعي والباجه جي والعمري والشبيبي



والقصّاب وحكمة سليمان والبصّام والمنتفجي وكبّة والجادرجي والدفتري والراوي نقيب المحامين... بستان الخسّ لا ينقصه سوى رأس صالح جبر. ظلّ رئيس الوزراء في لندنْ. يرتّب اللمسات الأخيرة مع الانكليز.

أصدر الحاضرون بيانًا يتبرّأون فيه من معاهدة بورتسموث. قالوا إنها لا تحقّق أماني العراقيّين. يتنفّس الشارع الصعداء. تصبيرة لا أكثر. ثمّ ينتفض من جديد. أرسل صالح جبر تصريحات تسبق عودته. قال إنّ المعاهدة تحقّق الأماني القومية بالكامل. لن يرفضها سوى نفر منْ الشيوعيّين والنازيّين. وهو سيعود ليسحق رؤوس العناصر الفوضويّة. خطّة مدروسة ولكلّ لاعب فيها دور مخطّط على الأرض بالطباشير. تحطّ طائرة رئيس الوزارة في مطار بغداد والمدينة ساحة حرب. المظاهرات أقوى ممّا كانت. الشرطة تفتح النار عند جسر المأمون. دماء. دماء. دماء. يضطرّ الوصيّ على العرش إلى إقالة جبر وتكليف محمد الصدر تأليف الحكومة. تموت بورتسموث في مهدها ويحاول الصدر توليد غيرها. ولندن تتدلّل وتمانع. لن تقبل مفاوضات جديدة. سيعاقبُ العراقيّون على جحودهم. وتبقى المعاهدة سارية حتّى ربيع ٥٦. وقبل انتهائها جاء حلف بغداد... يا أمّ حسين كنّا بوحدة صرنا اثنتين.

لجأت تاجي إلى أصدقائها الطلبة. أحاطت نفسها بهم. تحضر حلقات الفنّانين وتجد أغلبهم يصطفّ مع الشارع ضدّ القصر. تسمع أنّ قادة الشيوعيّين يُديرون المظاهرات من السجون. إعتقل بهجة العطيّة زعيمهم فهد. أخذوه إلى أبي غريب. حقّقوا



معه. حكم عليه قاض بالإعدام. دافع عن نفسه. زاد سعر الجريدة التي نشرت دفاعه من عشرة فلوس إلى مئتين وخمسين. بيعت في السوق السوداء. والحكومة في ورطة. جلسات المحكمة تصبح مغلقة. المؤبّد بدل الإعدام. يُنقل المحكوم ورفاقه إلى سجن بغداد المركزيّ. ثمّ سجن الكوت. يزعم أنصاره أنّه حوّل الحبس مدرسة حزبية. يبعث بالرسائل إليهم مكتوبة بماء البصل. أوّل مرة تسمع عن الكتابة بالبصل. يكسب الفكر الهدّام المزيد من الأنصار. والباشا لا يغفل عن مياه تجري تحته. عينه على نشاط اليهود في الحزب المحظور. لديهم علاقات مع الخارج ولغات أجنبية. يقرأون صحفًا فرنسية غير مُرخّصة، تصل بغداد باشتراك خاصّ أو بالتهريب. لا يفهم الرقيب منها شيئًا. يترجمون كرّاسات مشبوهة على أنّها فلسفة وروايات. نار تنتشر في هشيم وهو ينتظر أن تطفح الكأس. يؤمن نوري السعيد بأنّ آخر الدواء الكيّ.

سألته تاجي يومًا عن بهجت العطيّة:

- لماذا يُرهبونه؟

- رهبة الكرسيّ، لا الرجل.

يرمقها بنظرة طويلة. يتردّد في الكلام. ثمّ يختصر لها الحكاية. كان العطيّة رفيقًا لفهد في الصفّ وهما تلميذان في البصرة. تجاورا على مِنضدة واحدة في مدرسة الرجاء العالي. إرساليّة مسيحيّة أميركيّة. حتّى اسماهما كانا متشابهين. بهجت سلمان ويوسف سلمان. الأول تربّى برفاهيّة، والثاني حسبما تيسّر. لمّا كبرا صارا عدوّين. سار كلٌّ في طريق. دخل العطيّة ثانوية الشرطة، تدرّج في



المراتب وصار مديرًا للأمن. وسافر يوسف سلمان إلى موسكو وعاد ليشارك في تثبيت الحزب الشيوعي. إتّخذ لنفسه اسمًا حركيًّا: فهد.

ليست هي المرّة الأولى التي تسمع فيها بالأسماء الحركيّة. كانت تظنّها بدعة من بدع المقاومة الفرنسيّة. غطاء للإفلات من ملاحقة الغستابو. لم تتصوّر أن يستخدمها الشيوعيّون في العراق. يلجأ بعض الصحافيّين والفنّانات إلى إخفاء أسمائهم الحقيقيّة. ينشر زملاء لها مقالات باسم قرندل، حبزبوز، فتاة العرب، كنّاس الشوارع، خجه خان، أمّا تاجي، فلا تفهم تواضع الكاتب. أن يكتم هويّته ولا يتباهى بما يكتب. تفتح مجلّتها، كلّ أسبوع، وتتأمّل اسمها في الترويسة فتنتشي. ترضى عن نفسها. تبتسم حتّى لو كانت مهمومة.

- وأنت يا باشا، ما اسمك الحركيّ؟

- ربيب الانكليز!

يُقهقه بصوت مجلجل تخنقه بحّة السكائر. يغرغر كأيّ بائع لبلبي في سوق الشوّاكة. يسعل ويغصّ ويواصل الضحك. يسحب نفَسًا عميقًا. تدمع عيناه ويبحث عن منديل. يفتّش في جيوبه ثمّ يمسحهما بكمّ بدلته. تتابع حركاته ولا تُصدّق أنّ هذا المخلوق الأريحيّ هو نفسه الباشا ذو الجناب. يهدأ ويرمقها بمَكر. يقترح أن يطلق عليها اسمًا حركيًا. تبتسم بأسى وتهزّ رأسها. لديها ما يكفي. ولديه من هموم الحكم ما يكفي ويزيد. لا تعرف إن كان خصومه يكرهونه أم يحسدونه على مكانته. ضابط سابق يحسب العرب حسابه، والإيرانيّون والأتراك والانكليز وحتّى الألمان الذين



حصدوا الخراب. سألته يومًا عن عائلته، عن أهله، فدعاها لأن تزورهم في البيت. كانت تتحرّق فضولًا لرؤية المرأة التي تستحوذ على نوري باشا. تصوّرت أنّها ستدخل قصرًا وتلتقي خاتونًا مُثقلة بالجواهر. ظلّت يومين تبحث عن ثياب لائقة. ولمّا تخطّت عتبة بيته ورأت الستّ أمّ صباح، شعرت بارتياح وبعض خيبة. رأت بيتًا لا يختلف عن عيشة غيره من البغادة.

راح شتاء وحلّ صيف، وبغداد في غلواء وثبتها. الشائعات تملأ المقاهي والحلقات السريّة. يقولون إنّ الحكومة تفاوض فهد. وإنّ زميله القديم مدير الأمن يحاول تليين رأسه. يتحاور معه بالعيني والأغاني مرّة، ويهدّده بالمشنقة مرّات. حتّى نوري السعيد زاره في الزنزانة. يُقسمون إنّ الباشا عرض عليه أموالًا ومناصب:

ـ أترك المبدأ الهدّام وخذ ما تريد.

ـ أريد توزيعًا عادلًا لثروة البلد على العراقيّين.

ـ حتّى الدين لا يقرّ هذا. الإلحاد لا يناسبنا.

يزداد الوضع خطورة. ولندن تراقب بعين الثعلب. لا بدّ من إنهاء فوضى الهدّامين. قطع رأس الأفعى. لن يحلّها سوى مستر السعيد. الحليف الوفيّ الغامض. مَرِن وجبّار. هكذا وصفته غرترود بيلّ، صانعة الملوك. نصحتهم قبل موتها: "إما أن نعمل معه يدًا بيد أو نشتبك وإيّاه في صراع يصعب إحراز النصر فيه".

هاتوا نوري!



١٩

تأمّلت تاجي بدلتها الكحليّة المرتّبة على علّاقة فوق المشجب. كم مرّة ذهبت هذه السترة والتنّورة إلى المكوى وعادت نظيفة؟ حتّى ستّار الأوتَجي ضاق بها. تدور على الصحف لتنشر مقالاتها هنا أو هناك بعدما فقدتْ مجلّتها. ليتهم يقبلون تطوّعها للدفاع عن فلسطين. ذات نهار حارّ من حزيران سنة ثمان وأربعين، ذهبت وسجّلت نفسها بين المتطوّعين. ظهر اسمها في القائمة الثانية منهم.

"تقدّمتْ يوم أمس إلى إدارة جريدة النهضة الأستاذة الآنسة تاجي عبد المجيد صاحبة مجلّة الرحاب وطلبت منّا تسجيلها في قائمة النساء المتطوّعات. ولا يسعنا في هذه المناسبة إلّا أن نُشيدَ بهذه الروح الوطنيّة لدى المرأة العراقيّة، وهذا الوعي القوميّ العظيم، فعسى أن تهتديَ باقي الفتيات بها، ويتقدّمن للجهاد من أجل فلسطين العزيزة". عراقيّة ذات روح وطنية ووعي قوميّ؟ لماذا يضيّقون عليها عيشتها إذًا؟

حاولت أن تعود إلى الساحة. نشرت نداءً بعنوان: "يا نساء العرب هيا للجهاد"، فيه شيء من أفكار نوري السعيد. هل كان الباشا يمرّر نقمته على الانكليز الذين خذلوا الثورة العربية، من خلال تاجي؟ كانت قد تشرّبت أفكاره واستفادت من دروسه ومعلوماته. وتلميذ الأستاذ أستاذ ونصف، كما يقول المثَل. كتبت في ندائها:

"حالفْنا الانكليز في الحرب العالمية الثانية، وحملنا علم الثورة



ضدّ الأمّة التي عشنا معها مئات السنين. شهرنا السلاح بوجه العثمانيّين وضحّينا بشبابنا وصبغنا أديم الصحراء العربيّة بدماء أبطالنا، كلّ ذلك في سبيل نصرة الانكليز والحصول على استقلالنا وحرّيتنا. ولكنّهم لم يرعوا لنا حقًّا، ولم يعترفوا لنا بحُرّية، إذ قسمّوا بلادنا إلى دويلات وشرّدوا رجالنا تحت كلّ نجم. ثمّ قامت الحرب الثانية ودارت الدائرة على الانكليز. وأخذت طائرات أعدائهم تهدم دُورهم وتخرّب معاملهم وتقطع عن شعبهم الطعام. إستنجدوا بنا واستجاروا بشرفنا، فأنجدناهم وجعلنا بلادنا مطارات لطائراتهم ومعسكرات لجيوشهم، ووضعنا تحت تصرّفهم وسائط نقلنا البرية والنهرية والبحريّة، ومن ثمرات بلادنا وخيراتها قدمنا طعامًا شهيًا لجيوش الانكليز. عشنا سنيّ الحرب في عوز وفاقة وعري في سبيل نصرهم. لكنّهم خانوا العهد الذي قطعوه لنا، ونكثوا المواثيق والوعود، وكفروا بنعمتنا، وأنكروا إحساننا، وجحدوا حقوقنا، إذ قد بهر أنظارهم الذهب الصهيونيّ... إحتاجوا إلى القرض الأميركي فسدَّ الصهاينة بوجههم أبواب المصارف الأميركيّة. وتحت ضغط القوّة الاقتصاديّة الصهيونيّة العالميّة، سمحوا بدخول مئة ألف صهيونيّ إلى فلسطين العربيّة الإسلاميّة، وجعل ثالث الحرمين الشريفين ومهد المسيح وطنًا قوميًّا لشعب الله المختار. ولمّا كان الحقّ للقوّة، والقويّ لا يفهم غير لغة القوّة، فقد قرّر العرب استعمال لغة القوّة التي يفهمها الانكليز، والجهاد المقدّس في سبيل فلسطين والحرية والكرامة والحق والعدل، مهتدين بهدي دينهم: وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم لعلّكم تُفلحون.



فيا نساء العرب، ويا كريمات أولئك الأبطال الذين فتحوا البلاد والأمصار، تهيّأن للكفاح، وعمّا قريب سيدقّ طبل الحرب. سارعن يا أخواتي إلى ساحات الشرف. إحملن الماء والزاد للمقاتلين الأبطال. زغردنَ للشباب المجاهد. وآسين الأرامل والأيتام الذين شَرّدهم المستعمر. ضمّدن بأيديكن الكريمة جروح المصابين في ساحات الشرف. قطّرن في حلوق المحتضَرين قطرات الندى، كفّنّ الشهداء بأكفان عفّتكن ونبلكن، وشجّعن الشباب على خوض المعارك بعطفكن وحنانكن. حطّمن يا سليلات المجد الغابر قيود الجهل، وشاركن آباءكنّ وإخوانكنّ في هذا الجهاد".

كأنّ الباشا رفع لسانه من فمه وأعاره لتلميذته النجيبة!

ذهبت تزور اللاجئين الفلسطينيين الذين وصلوا إلى العراق. تريد أن تؤدّي مهمّة الصحافيّة حتّى النهاية. ستستمع إليهم وتكتب عن مأساتهم. ومرّة أخرى تجد نفسها وقد أصبحت هي الحدث، بدل أن تكون ناقلة له. نشرت النداء تقريرًا على عمودين بطول صفحتها الثانية، عن قيام الآنسة تاجي عبد المجيد الصحافيّة المعروفة بزيارة كلية الملك فيصل في الأعظميّة، حيث يقيم اللاجئون من فلسطين ضيوفًا على البيت العربي، الذي أسّسته نخبة من المدرّسات وفاضلات السيّدات والأوانس، وها هي تنقل إلى القرّاء نتيجة استقصاءاتها:

"دخلتُ كلّية الملك فيصل فرأيت في رواق واسع جماعة من الرجال الفلسطينيّين وقد أطرقوا ساكتين، كلّ غارق في بحر من التفكير، لست أشكّ في أنّ كلًا منهم يفكّر ببلاد تركها، وأهل وأقارب لا يعرف ما حلَّ بهم، وأموال ذهبتْ لا يدري كيف



يعوّض عنها. وقد ذُهلوا حين دخلتُ فحاول كلٌّ أن ينسحب إلى غرفته بتأثير تقاليده القرويّة، ولكنّ حارسًا عراقيًّا أُنيطت به رعايتهم أفهمهم بأنّني جئت لأتحدّث إليهم منتدبة من صحيفة عراقية. قلت لهم: جئت لأرحّب بكم باسم كلّ عراقيّ، فأنتم هنا في بلدكم وبين أهلكم وأحبّائكم، وكلّ بيت في العراق هو بيتكم، وكلّ قلب عراقيّ يخفق لكم ويهلع لمصابكم، وسيفتدي العراق أرض فلسطين بالنفس والنفيس، ولن يرجع السيف العربيّ إلى غمده إلّا بعد تحرير فلسطين".

سلااااام خُذا

مقالات نارية لن تغفر لها خطيئة اشتراكها في وثبة كانون. لا مكان للندم. لقد تصرّفت وفق ضميرها. وضميرها مرتاح. وإذا ضاقت عليها الدائرة في بغداد فستذهب إلى أخوالها في طهران. لكنّ المكان هناك أكثر ضيقًا، وهي لا تعرف أولئك الأخوال. ذهبت إلى الخيّاطة وأوصت على فستانين صيفيّين تبدأ بهما حياة جديدة تحت أيّ سماء في أرض اللّه الواسعة. لم يعد لها مكان في المدينة التي منحتها شهرتها. تحبس نفسها في البيت، وتفكّر في الهروب إلى الشمال والاختفاء في السليمانية. لزوج أمّها معارف بين أغاوات الأكراد. وهي ستتنازل وتطلب مساعدة السيد عبد المجيد. إنها، رغم كلّ شيء، ما زالت تحمل اسمه.

ثمّ جاء الخلاص من حيث لا تتوقّع، على يد غضنفر علي خان.

قدّم إليها سفير باكستان دعوة من حكومته للعمل في راديو كراتشي. أنا الحكومة والحكومة أنا. كان المجاهدون الباكستانيّون



يتجوّلون في البلاد العربية باحثين عن تأييد لقضيّتهم. لكلّ شعب في الشرق قضيّة. ومنذ رسم بطليموس، في الاسكندريّة، خارطته الأولى للعالم، ومطالب الشعوب لا تنتهي. وكان من طبعها أن تبحث عن القضايا لتكون أوّل من يدبك في الحلْبة. أجرت تاجي مقابلات مع موفدي باكستان، وفتحت لهم صفحات مجلّتها. صارت من أشدّ المناصرين لانفصالهم عن الهند. لكنّها لم تبذل جهدًا لكي يهيم بها لياقة غضنفر علي خان. كان جاهزًا للهيام. تدفّأت صداقتهما على نار هادئة. سفير في الشرق الأدنى، يتنقّل ما بين طهران وبغداد، يرعاها بحنان يتأرجح ما بين الأبوّة والتمنّي. كهل آخر يشتاق لطزاجتها. وطازة كلمة فارسيّة في الأصل. وهو مثل غيره ممّن تُذيقهم ريقًا طيّبًا وتُصبّرهم بالنظرات. سألتها أمينة الرحال، ذات ليلة بغدادية مطيرة:

ـ لماذا تنقعين الرجال في الخلّ كالطرشي؟

كانتا تشويان الكستناء على المنقلة في غرفتها البائسة. ولم تغضب من كلام أمينة. صديقة يُعتمد عليها. مُحامية شابّة عنيدة تثير الإعجاب. تلتقيان رغم أنّ كلًا منهما في واد. تمنّت تاجي لو كانت لها شهادة في الحقوق مثل أمينة، أو أبًا ضابطًا مثل أبيها، كان مديرًا للمدرسة الحربية في اسطنبول. أو سَيّارة بيبي فورد مثل سيّارتها الانكليزيّة. حصلت صديقتها على رخصة القيادة سنة ستّ وثلاثين. كانت أوّل مسلمة تسوق سَيّارتها في شوارع بغداد. يراها المارّة ويتصوّرونها موظّفة أجنبيّة. يلوّح لها من يعرفونها ويصيحون: "المحاميَة". وهي مثل أيّ امرأة، يمكنها أن تكون عسلًا في مواقف، وخَلًا في أخرى.



أمينة، الشيوعية، أوّل امرأة في اللجنة المركزيّة للحزب، نأت بنفسها عن تاجي المحتمية بمظلّة نوري السعيد. دقّت الأحزاب أسافين بين العراقيّين. باعدت الأصدقاء وخرّبت ما بين الإخوة. خفّت لقاءات الصديقتين، وظلّت تاجي على علاقتها بسفير باكستان. يدعوها لجولات طويلة بالسيّارة. يعبر بها جسر فيصل الثاني، ويتوقّف بها عند جرف النهر. يتحادثان بالانكليزيّة قليلًا، ويصمتان طويلًا. تتركه يتأمّلها وأحيانًا يمسّد على شعرها. تُطرِق وتخجل منه ولا تعرف ماذا تقول. ليس من عادتها أن تجرح رجلًا يتودّد لها.

تتلاعب أنسام دجلة بشعرها في شرفة فندق سميراميس. إنتهى العشاء وأمر النادل برفع جميع الأطباق. طلب مفرشًا نظيفًا للمائدة. كان يضع زهرة رازقي في عروته، وخيوط فضّة تلتمع في سواد شعره. لا يمكن للرومانسيّة أن تتجلّى بأكثر من هذا. فتح كفيه السمراوين أمَامها على القماش الناصع. رفع عينيه العميقتين إلى السماء، كأنّه يبتهل. رمقها بنظرة حنون وكانت تعرف ما سيقول:

ـ هل تقبلين بي، ماي سويت، زوجًا؟

ـ لكنك في عمر أبي...

ـ أنا بين يديك شابّ غرّ.

ـ ثمّ أنت متزوّج...

ـ ومن قال لك إنني أبحث عن زوجة؟

ـ سأغضب منك يا لياقة السفير...



- أنا مواطن باكستانيّ مُتحمّس. أريد سفيرة مدهشة لدولتي الناشئة.

أدارت وجهها نحو الجدار. تهرب من عينيه اللامعتين ببريق الشغف. رأت سحلّية رماديّة على الطابوق الأصفر. تكره السحالي وتتقزّز منها. مدّت يدها تتحسّس رقبتها وقرطها المتدلّي طويلًا. كراتشي. إسم حميم. ينتهي بعطسة مكتومة. مثل "التراجي" التي تضعها الطفلات في آذانهنّ. ستذهب إلى هناك، وبعدها ستتدبّر أمرها. قَدَر مكتوب أن يكون لها في كلّ مدينة اسم وعمل ومغامرة ورجال. كلّ ذلك وهي تشعر بقلبها بِكْرًا لا يزال. نخلة تنتظر صاعودًا يهزّ جذعها .

تتحرّك السحليّة من مكانها وتهرب لتندسّ بين الأغصان المتسلّقة وجليسها ما زال يرطن بالانكليزيّة بلكنة هنديّة وهي تسمع ولا تجيب. لا تدري ما بها. عقلها ناعور يدور ويصبّ ماءً في ساقية وعيها. تتّخذ قرارها في دقيقتين. ستذهب إلى باكستان. تعمل في إذاعة الدولة الناشئة الحديثة الاستقلال.

- أنا جاهزة للسفر!

ذات صباح غائم من أوائل تسع وأربعين، ومن راديو كراتشي الناطق بالعربية، ستذيع تاجي عبد المجيد خبر إعدام الشيوعي العراقي يوسف سلمان يوسف، المعروف بفهد، ورفيقيه زكي بسيم وحسين الشبيبي، المعروفين باسميهما الحركيّين حازم وصارم.

صوتها عميق مُحايد غريب على أذنها. خلعت من حنجرتها رنينها الطبيعيّ. قرأت الخبر بدون روح. بنبرة خشنة مثل حبل



مشنقة. نفرت دمعتها بعد انطفاء الميكرفون. مسحتها قبل أن تخرج من الاستوديو. التأثّر شُبهة. وشُبهاتها تكفيها. مضت إلى المغسلة وصوبنت كفّيها عدة مرات من دماء لا تُرى بالعين المُجرّدة.

٢٠

كاملة.

بحواسّي الخمس.

هكذا ولدتني أُمي.

أُبصر وأسمع وألمس وأتذوّق وأشمّ.

لكنّ الأستاذ أحبّ أن يسلبني إحداها. هكذا، بقرار منه، أو برعونة، فقدت سمعي. أصبحت على حافّة الصمم. أستعين بلوزتين إلكترونيّتين أدسّهما في كلّ أذن، تكبّران لي صوت التلفزيون ورنين الجرس وأحاديث من حولي. أسمع أبواق السيّارات ويفوتني حفيف الشجر ونقيق الضفادع وهسهسة النار وهمسة أشتاق إليها. أرى الموج يتكسّر على جرف النهر ولا تصلني طبطبة الموجة على الموجة. ترفرف أجنحة الحمام، خرساء، فوق رأسي. وغطاء إبريق الشاي يطفو فوق فورة الماء بسكون. لا نحاس يقرقع. لا منبّه يوقظني. صار عليّ أن أسمع العالم بعينيّ، بالأنامل. أتذوّق الأحاديث وأنا أُلملمها بأهدابي عن شفاه المتكلّمين.



الحمد لله. محنة أهون من محنة. لست كفيفة البصر. أتوتّر حين أضيق بسكون العالم من حولي. أنا التي كنت في طفولتي أتمنّى لو يصمت كلّ حسّ في الدنيا إلّا الموسيقى. في الخامس الابتدائي، أثناء الحرب مع إيران، كنّا منهمكين بتعلّم معزوفة لخاتشادوريان حين انطلقت صفّارة الإنذار. غارة! يصرخ الأولاد والبنات بصوت واحد. مدرسة الموسيقى والباليه قريبة من مطار المثنّى العسكريّ. تعرّضت المنطقة للقصف عدة مرّات. نضطر لترك آلاتنا ونهرع إلى الملجأ. أجري بسرعة وأنا أتلفّت نحو قاعة الدرس. أحبّ كماني ويشقّ عليّ أن أتركه خارج صندوقه. سيخدشه نثار الزجاج. أظلّ أفكّر فيه طوال الغارة، لا بروحي. تبتعدُ الطائرات وأجري صاعدة الدرج. أحتضنه وأمسح الغبار عنه.

لم يحتضنّي ابن الشيخ لكنه عاملني مثل حشرة. وكان المرافق هشام قد افتعل مناسبة غريبة لكي يأخذني مرّة أخرى إليه. بعد أسبوع من الحفل التنكّري للمعوّقين. جاءني، عصرًا، إلى نادي الفروسيّة، أوّل مرّة أراه هناك. كنت أركب الفرس الصهباء سماسم. إعترضني بإشارة من يده. طلب مني أن أترجّل ليكلّمني في أمر مهمّ.

ـ إخترناك في اللجنة المنظّمة لعيد ميلاد الأستاذ.

ـ أيّ أستاذ؟

ـ ما بك يِا ست وديان... كم أستاذًا عندنا؟

طلب منّي أن ألحق به إلى غرفة الإدارة. لجمتُ فرسي ولم أعرف كيف أتصرّف. كان عليّ أن أمثّل السرور والاعتزاز



بالمفاجأة. هي، حقًّا مفاجأة. لكنّ ناقوس خطر قرع بين أضلاعي وفكّرتُ في يوسف. هل يعرف بالموضوع؟ لم أجد وسيلة للاتصال بخطيبي. يجب أن أخبره بأنّني سأتأخّر عن موعدنا. التلفونات النقّالة لم تكن قد دخلت البلد والثابتة لا حسّ ولا خبر. يُلصق الناس أسلاكها بالبصاق. سلّمتُ سماسم للسائس وتوجّهتُ إلى غرفة الثياب. غسلت وجهي لعلّ الماء البارد يرشدني إلى التصرّف السليم. لحقت بهشام إلى غرفة الإدارة ووجدت هناك عشرين سيدة بالانتظار. تعرّفت على بعض الوجوه. أسماء من عائلات معروفة. نساء ممّا يُسمّى المجتمع المُخمليّ. وبدا لي أنّهنّ يعرفن المهمّة. أنا الطارئة الوحيدة.

جاءت سيّارات من النادي وركبنا فيها. بعد مسيرة عشرين دقيقة توقّفت بنا. طلب هشام منّا الانتقال إلى سيارات مرسيدس مظلّلة الزجاج. توقّفت بنا ثانية لتأخذنا سيارات غيرها. نزلنا أمام قصر في منطقة لا أعرفها. إنتهزت الفرصة واقتربت من المرافق.

ـ أهلي سيقلقون عليّ.

ـ لا تشغلي بالك. نعطيهم خبرًا.

شهقتُ أمام بوابة القصر. أسدان رخاميّان على جانبي المدخل. البوابّة هائلة وحجم الأسدين هائل. كلّ شيء هائل. أجواء خرافية لم أرَ مثلها من قبل. ولم أكن ساذجة ولا خارجة لتوّي إلى العالم. رافقت الفرقة السمفونيّة للعزف في بلاد كثيرة. دخلت قصورًا ومسارح تاريخيّة. رأيت الصالة الرخاميّة في فلورنسا. الثريّات الفاخرة في لينينغراد. المقصورات الموزّعة على ثمانية



صفوف في أوبرا برشلونة. سقف القاعة الذي يُفتح على السماء في ساو باولو. كلّ ذلك لم يرهبني. على العكس. الجمال يشرح صدري ويهدّئ روعي. لكنّ ذلك القصر أخافني بمقاييسه. كان فاقد نسَبٍ. كلّ شيء فيه ضخم وعملاق. حتّى المقعد الذي غصت فيه وكدت أضيع.

لا أدري ما ننتظر. بلغت العاشرة ثمّ انتصف الليل. والنساء اللواتي جئن معي يتهامسن بأحاديث قلقة. يتثاءبن وأتثاءب. تدور علينا صواني العصير. علب الشوكولاته. مثلّجات بكلّ النكهات. أوشكنا على الإغفاء حين تسارعت الحركة، فجأةً. دبّت الحرارة في أسلاكنا المقطوعة. وصل الأستاذ!

دار بكرسيّه المتحرك دورة كاملة. تلفّتَ وسأل:

ـ أين وديان؟

ـ أنا...

أرفع إصبعي مثل تلميذة في صفّ دراسي. صوتي ضعيف ونفسي ذابلة. أحاول أنّ أستمدّ من ضعفي قوّة. رمقني كأنّه يراني للمرّة الأولى. لمحت في نظرته خيبة. لا شك أنّ الفرق كبير بين شكلي في الحفلة، بفستاني الأسود الطويل، ومنظري بعد نهار شاقٍّ من التدريبات الموسيقيّة. أرتدي جزمة ركوب الخيل وقد أطفأ العرق رونق وجهي وشعري وقميصي.

أعاد السؤال ليتأكّد من أنّني هي. القطّة ذات العينين الملوّنتين التي رقص معها، جالسًا، ونفث بخاره في أذنها. إقترب وصافحني واقفًا. مستندًا إلى عكّازين. كان هناك طبيب يرافقه. يرتدي صدريّة الأطبّاء. طلب أن نبدأ الاجتماع. أمضينا ساعتين



وهو يناقشنا في ترتيبات عيد ميلاده. المطرب. قائمة الأغاني. نوع العشاء. عدد صحون المُقبّلات. كأنّه متعهّد حفلات. وبعد أن انتهينا أعطى لكلّ منّا مهمّة خاصّة. على كلّ امرأة من الحاضرات دعوة خمسين شابّة وشاباً من معارفها. وتتحمّل الداعية مسؤوليّة ضيوفها. نوعيّتهم. مستواهم الاجتماعيّ. إخلاصهم. وخلوّهم من الأمراض ومن شوائب المعارضة.

في الرابعة صباحًا انتهى اللقاء. تصوّرت أنّني سأعود إلى البيت. بدأت أرتّب ما سأقوله لأهلي عن سبب تأخّري، لكنّ الأستاذ ساقنا لنزور حديقة حيواناته الشخصية. ينطلق أمامنا بكرسيّه الكهربائيّ ونلحق به في ممرّات بين الشجر والأقفاص. رأيت نمورًا وكلابًا مدرّبة، أفاعيَ وطواويس وكناغر وبطّات وبجعات ولقالق وسناجب بيضًا، جملًا صغيرًا، أحواض أسماك نادرة. كنت أفرك عينيّ من النعاس حين وجدته أمامي:

- إدفعي لي الكرسيّ.

أدفعه وساقاي تهتزّان. أركّز عينيّ على رقبته من الخلف. لا أتطلّع أمامي. أخشى أعين الحرس والمرافقين. صقور جاهزة للنهش. أخذنا مصعدًا فسيحًا. ثلاثة أمتار في ثلاثة. أنا والكرسيّ وهشام. لا أدري إلى أيّ طابق. أظنّنا نزلنا إلى سرداب سفليّ. شعرت بجسدي هابطًا لا صاعدًا. حاولت، فيما بعد، أن أتذكّر مواصفات المكان وعجزت. كأنّ فرشاة إلكترونية مشّطت محتوياته وقامت بتصفيرها. كانت الغرفة بيضاء. بكرًا. لكي ينطبع عليها ما سيأتي. ذاكرة خام تحتفظ بالمشهد. الساعة الرهيبة التي أسدلت ستارًا بيني وبين موسيقاي.



لم يكن ابن الشيخ رحمانًا رحيمًا. تلك صفات خالقه. فلأيّ هدف، يا إلهي، خلقته؟

ألتمس ربّي فأراه مُشيحًا بوجهه. أتمتم في سرّي بصلاة معتوهة. لا تتراصف الكلمات على لساني. غابت عنّي ابتهالاتي والأدعية التي أحفظ. لكلّ موقف دعاء. دماغي بليد نظيف مكنوس جيدًا. مجزوز نمرة صفر. معصوم من التفكير. ليس خفيفًا ولا مُرتاحًا. رأس مثقل بطنّ حديد. في غرفة ليست بغرفة. ولا هي مكتب. ولا صالة رياضة. مساحة كأنّها بلا سقف. صعبة الاستيعاب. تنسحب أرضيّتها وتتركني مُعلّقة. أخطو على هاوية. أبحث عن زاوية تحتويني في مكان دائريّ بدون أركان. يقترب الكرسيّ منّي وصوت أجشّ يخلخل اللاموجودات.

ـ جئت لحفلي متنكّرة بزيّ طرشاء؟

ـ عفوًا أُستاذ، كانت مزحة.

ـ عظيم. أنا أيضًا أحب القشمرة.

ـ حاشاك منها...

ـ سنمزح سويّة. ها؟

ـ مثل ما تشوف...

ـ هل تحبّين فعلًا أن تكوني طرشاء؟

يمدّ يده فأجفل. يضحك بفرقعات متتالية. يصهل مثل حصان ضخّوا في فمه لترات من الويسكي. يصرخ بهشام:

ـ هات الكذا...

كلّ الاحتمالات تهجم عليّ. ما هو الكذا؟ يخرج المرافق.



يغيب دهرًا. أتوقّع أن يأتي بسوط يجلدني، أو بحبل يشنقني به. يعود مع سمّاعة كبيرة ذات قوس معدنيّ. نوع فاخر لا يُستخدم إلّا في استوديوهات الإذاعة وشركات التسجيلات. يأمرني الكرسيّ المتحرّك بأن أضع القوس على رأسي. يشير لكي أجثوَ أمامه. يقيّد هشام يديّ وراء ظهري. لا أقاوم. كلّ ما أرجوه أن أموت بسرعة. يضبط المرافق السمّاعة على رأسي. كلّ إسفنجة على أذن. يثبّتها بشريط عريض لاصق. يلفّ الشريط الأسمر عدة مرّات. يمرّ به حول جبهتي وعلى فمي. تصبح جمجمتي طردًا جاهزًا للشحن بالبريد. لا أعرف ما المقصود. مُستعدّة لكلّ شيء إلّا الانتهاك. فكّرت في أن أتوسّل وأستعطف. لا فائدة. الشريط يكمّم فمي. الأنين يقلّل من قيمتي. تندفع دفقة من عناد في دمي. لن أتذلّل فوق المهانة النازلة بي. فإمّا حياة... وإمّا ممات يغيظ العدا... كلّ محفوظات الستّ نجاة صالحة لتسكين ارتعاشي.

يتناول الأستاذ الريموت كونترول. أسمع موسيقى إلكترونيّة صفيقة. قرقعات تبدأ خافتة ثمّ تعلو. يرفع درجة الصوت بالتدريج ثمّ يخفضه بسرعة. يعيد رفعه إلى الحد الأقصى. يصبح دويًّا مؤذيًا. قنابل ودمدمات جَهنّميّة لا تُطاق. عيناي تستنجدان بهشام. أرى المرافق صنمًا جامدًا وسيّده يقهقه كالمخبول. يدور بالكرسيّ حولي مثل طقس لقبيلة بدائية. قلبي طبول في غابة. موسيقى كريهة تخترقني وترجّ دمي وعظامي. تستفزّ كلّ حواسّي. تفلقني. شعلة لا تُحتمل تثقب أذنيّ. عيناي تغيمان وهو يضحك. يصفّق بيدين كبيرتين. فم كبير. أسنان متفارقة



كبيرة. عينان كبيرتان تتلذّذان برأس آدميّ على وشك أن ينفجر.

هززت رقبتي بعنف، أنفُض عنّي الجحيم الذي يطوّقني. سحبت يديّ بقوّة وفشلت في تحريرهما. تحرّك الصنم هشام وخبطني على ظهري. رفع السمّاعة من جانب واحد وأولج شيئًا حادًّا في أذني. إنطويت على نفسي وضربت رأسي بالأرض. أعوي بحنجرة ذئبة متوحّشة. أتداعى جانبًا ولا أشعر بكتفي. أرى ظلالًا شاحبة تبتعد. كأنّ الغيبوبة يد امتدت من السماء لانتشالي.

صحوت في غرفتي. على سريري. في بيتنا. أتذكّر فتتدفّق دموعي نبعًا في صخر. تصعد حرّاقة من أعماق سحيقة في روحي. وجه أمّي مُنكبّ فوقي. كأنّها قُدّت تمثالًا على تلك الهيئة. جلدها أبيض مثل الشمع. شعرها أكثر بياضًا من قبل. سأبقى أذكر وجهها ذاك حتّى ونحن نكفّنها في ساعة موتها. كان وجهها أقلّ شحوبًا يوم لفظت أنفاسها. رأت أجفاني تتحرّك فشهقت. لم تقوَ على النطق. سالت دموعها فوق دموعي. تحرّك التمثال الشمعيّ وأخذني في حضنه. اختبرتُ، في تلك الساعة، معجزة حضن الأُم. هزّتني بين ذراعيها يمنة ويسرة. هدهدتني مثل طفلة. همهمت شيئًا ولم أسمع ما تقول. عادت تسأل بدون صوت. شفتاها تتحرّكان ولا يصلني ما يطلع منهما. هل أمّي خرساء؟

تلك كانت اللحظة التي اكتشفت فيها صممي.

ينشف شلّال دمعي وتنبع في بالي الغزالة. تلك الشريحة



الرقيقة من الخشب التي تقف بين شقّي صفحة الكمان. مُسنّنة من الأعلى لكي تستقرّ الأوتار بين أسنانها. إرتاح بالي لأنّي تذكّرتها. الشلل المتحرّك على كرسيّ لم يُفسد عقلي. ما زلت أعي. أشعر وأشمّ وألمس وأرى. لا أسمع. وحين يعلو العزف ويشدّ العازف على الأوتار، فإنّ الغزالة الضعيفة قادرة على تحمّل الضغط بما يساوي خمسة وعشرين كيلوغرامًا.

٢١

لا بدّ من بغداد وإنْ طال السَفَر!

وصلها منصور البادي على أمل دراسة الحقوق. تصوّر أنّه سيحقّق فيها الفتوحات. إبن أكابر مزهوّ بأعوامه العشرين. قامة نحيلة مثل رمح. شعر سَرِح لامع مُمشّط إلى الوراء، خصلة على الجبين على طريقة روبرت ميتشوم، الممثّل الصاعد المنشورة أخباره في الصحف. يرطن مثله بالانكليزيّة ويحفظ عشرات الأبيات من المعلّقات. يردّدها بلهجة شاميّة. يصغي إلى كلام العراقيّين بانتباه. يلتقط المفردات الشعبيّة. يطرب لها أو يستهجنها. يسأل عن معنى القريولة. الجفجير. الجامللُغ. الخاشوكة. البَرْدَة. الكذلة بستّ طيّات. بيض اللكلك. كان صبيًا حين رأى بيوض اللقالق ولم يمسّها. تركها في أعشاشها. وها هو يشتريها في بغداد حلوى هشّة سُكّريّة المذاق.

أراد أن يغرس رايته في المدينة ذات الأصداء العريقة،



ويؤسّس بيته. ولو خيّروه يومذاك، وبعد ذاك، وفي كلّ عام تالٍ من أعوام عمره، لما اختار غير بغداد ولظلّ يستطيب المكوث فيها. جدّه كان على حقّ. عجوز عَرَك الدنيا واستخلص عُصارتها. سَحَبَها من روحها مثلما يسحب البغاذدة العَرَق من تمْر النخيل. يسكرون به ثمّ يتعشّون ويتجشّؤون وتأتي أنفاسهم برائحة المستكي. جدّه، الشيخ الحكيم، كان يجلس في ظلّ تينة أكبر منه عمرًا، يعبث بحبّات سبحته الطويلة قرب بيتهم القديم في حزبون. يمسّد لحيته البيضاء ويجدلها ويحلّها. لولاها لما عرف ما يصنع بيديه. تأتيه أخبار فلان وعلّان ممّن هاجر يطلب الرزق في القارة الجديدة، شمالها أو جنوبها. يقولون له:

ـ يا جدّو رجع إيد من ورا وإيد من قدّام.

ـ يا جدّو من لازَمَ أرضه ما ظَلَم.

مئة ليلة. هي كلّ حصّة منصور البادي من مدينة ألف ليلة. مضت سراعًا وفارق صدرها قبل أوان الفطام. وبغداد لا تفطم مُحبّيها ولا تبخل على شارب في حاناتها. لا يعرف المُتنزّه في شوارعها الملل. ولا المُرتاد مجالس أدبائها ومرابعها. دار على مكاتب الصحف يُسلّم على أسماء كان يقرأ لها. دخل مقهى البرازيلية والتقى وجوهًا يعرفها وشعراء يحفظ أشعارهم. يقصد شاطئ دجلة، في العشيّات، ويرى الرجال يدسّون ربعيّاتهم في جيوب ستراتهم. تلك الأقرب إلى القلب. تتكفّل روائح المسقوف باستكمال الجو. كم مرّة عبر جسر المأمون وهو يناجي عيون المها...

كلّ بقعة في المدينة تحفّز محفوظاته. يرى البنيّات ماشيات في



بارك السعدون، سافرات بالتنّورات الكْلوش، مع أُمّهات متسربلات بعباءات تتلاصف. يحضر النابغة الذبياني على الفور:

بمُضطَجِباتٍ من لَصَافٍ وثَبْرَةٍ
يَزُرْنَ إلالًا سيرُهُنَ تَدافُعُ

ما اللصاف وما الثبرة وما الإلا؟ يغضُّ ابن الأوادم عينيه حين ترفع الريح طرف العباءة. تنفرج عن نفنوف أحمر أو دشداشة صبغ النيل. سمع الأغنية، لأول مرّة، من يهوديٍّ عراقيٍّ كان يبيع الكعك عند باب مدرسته في القدس. يسند البائع ظهره إلى الجدار، يتفرّج على راهبات شابّات، أجنبّيات بعيون زرق، ويترنّم بها. يمطّ كلماتها. يُقطّعها على إيقاع مُتمهّل. يهزّ رأسه ويحرّك حاجبيه حين يصل إلى جملة مكشوفة منها. تزجره الراهبات بلغات لا يفهمها. يردّ عليهن بجملته الأثيرة: صَدَقَة لألّله.

في مقهًى بغداديّ شعبيّ، جايخانة، تناهت الأغنية لمنصور من الراديو. كان يشرب الشاي مع رجل من معارف أبيه ويراقب الشارع. يكتشف غوايات العباءات لحظة تنزلق من فوق الشعر وتتهدّل على الأكتاف. لم يخفِ دهشته وهو يرى نساء يمشين مكشوفات الشعر، أو مرتديات قبّعات كبيرة تقي من ضراوة الشمس. كنّ يشبهن المقدسيّات اللواتي نشأ بينهنّ. البنت هناك تتكلّم الفرنسيّة والإيطاليّة، وتلبس ثيابًا غربية وتقصّ شعرها قصيرًا. هكذا كانت شقيقاته الأربع. لم يذكر أنّه شاهد حجابًا على وجه امرأة من عائلته، ولا العائلات الصديقة. تغطّي السيدات الكبيرات رؤوسهنّ بوشاح رقيق. يقرأنَ المجلات التي تصل من القاهرة. المُصوّر و روز اليوسف. يتفرّجن على أحدث الأزياء. يسمعن عن



زعيمات نسويات. ملكات جمال. عارضات أزياء، راقصات وممثّلات سمراوات أو زي القشطة. دخلت مفردات المانيكان والمانيكور والروندیفو إلى لغة بنات البيوت.

وقع بيده عدد من جريدة قديمة وهو ينتظر دوره لدى حلّاق في شارع غازي. لفت انتباهه عنوان المقال: "المستر إيدن وحديثه الصحافي في آخر لحظة في بغداد". إستهلّه كاتبه بالقول "إن من المعروف عن أنطوني إيدن، وزير خارجية بريطانيا السابق، كتمانه وامتناعه عن الإجابة عن أسئلة الصحفيين. وهو لم يقابل أيًا منهم خلال اليومين اللذين أمضاهما في بغداد ضيفًا على الوصيّ وولي العهد في القصر الأبيض. لكنّ الآنسة تاجي عبد المجيد، تمكّنت من مقابلة السياسيِّ البريطانيِّ قبيل سفره. فقد طاردته ما بين مقرّ إقامته والمعهد الثقافيّ البريطانيّ، وأخيرًا المطار المدني، بالرغم من عدم السماح بالدخول سوى لفئة محدودة جدًا من المودّعين. إلا أنّ تاجي، بجرأتها، لبست طاقيّة الإخفاء وتمكّنت من اقتحام الأبواب والوصول إلى معاليه، وفاجأت السياسيّ الكبير بأسئلة محرجة عن خطاب العرش وما ورد فيه بشأن جلاء إنكلترا عن فلسطين. وهنا استغرب إيدن وألقى على الصحفية نظرة عتاب لطيفة وقال: لقد قضيت في بلدكم وقتًا هنيئًا، وإنّي لمسرور بما قوبلت به من حفاوة وتكريم، فلا أريد أن أعكّر صفو هذه الهناءة في هذه اللحظة الأخيرة التي أغادر فيها العراق. وعلى كلّ حال، لا أستطيع الاجابة عن أسئلتك يا آنسة، فاتركيني في نشوتي ومرحي. والتقط المصوّر أرشاك صورًا للمناسبة الفريدة".



تاجي عبد المجيد. إسترعى اسمها انتباهه. أثاره سؤالها عن الوضع في فلسطين، بلده المنكوب. تمنّى لو يذهب إلى الجريدة ويقابل تلك الآنسة. يريد أن يتعرّف عليها ويعطيها تفاصيل عما حدث في القدس لتكتب تقارير تنفرد بها. لكنّ منصور البادي، وبدون تخطيط مُسبق، وجد نفسه في الكويت. يومان قصيران هناك عبرا مثل سحابة صيف. قبل أن تستدعيه كراتشي إليها.

أحبّ باكستان قبل أن يراها. إقتنع بأنّ رزقه ينتظره في إذاعتها. ثمّ كان من أيامه هناك ما كان. كلّ شيء مُدوّن في مفكّراته. أوراق وصور يزرعها علامات في دروب ذاكرته. يستعين بها على البَدَد. جعبة ثقيلة من الرسائل والمقالات تتنقّل معه. يقلّبها حين تغيم الدنيا في عينيه. يقع على قُصاصة لكاريكاتير نشرته الفكاهة القاهرية على غلافها. شاب يصدم بسيّارته سيارة تقودها حسناء. تزجره:

- إزاي أوطمبيلك يصدم أوطمبيلي؟

- يا ستّي ده ما بيصدموش... ده بيبوسه.

٢٢

"هنا دار الإذاعة العربية من كراتشي".

بصوت المذيعة العراقية تاج الملوك عبد المجيد دشّنت إذاعة باكستان برنامجها الجديد. حنجرتها الصدّاحة بَضمَتُها. إرثها الوحيد من زينة السادات. تتغيّر الملامح، مع العمر، والنبرات، إلّا رنين



إلقائها. أوتار صيغت من ذَهَب ليرة. مضت تقرأ أول نشرة أخبار يسمعها الأهالي بلغة القرآن.

سمعها غضنفر علي خان وصفّق طربًا. كان يقف مع عدد من المسؤولين في غرفة البث. يتابع الحدث التاريخيّ. حين أنهت نشرتها سحبها خارج الاستوديو وقبّل كفّها.

ـ لم أعرف أنّ البلابل تجيد إذاعة الأخبار!

ـ الفضل لكم.

قالها بالانكليزيّة. بلابلز. بلابل تستشهد بالمتنبّي. تحبّ رباعيّات الخيام. خمريات أبي نوّاس، وأشعار سعدي. تفتتح البثّ وتُلقي السلام على المستمعين. لغتها سليمة، نقيّة من الهفوات. لم تُطقْ زوج أمّها لكنّها تدين له بتقويم لسانها. تأخذ تاجي بلابل غضنفر وغير غضنفر وترمي بها في كيس وراء ظهرها. تجمّع لها غَزَل بكلّ اللغات. الكلمات ثروتها. "أنا الغنيّ وأموالي المواعيدُ". لم تنم ملء جفنيها تلك الليلة. عادت من حفل صغير لمناسبة انطلاق الإذاعة ولم تكن سعيدة. فكّرت في أنّها يمامة وحيدة في قفص للصقور.

لم تكن وحيدة تمامًا. معها فريق من الإذاعيّين جاء من بغداد. نشرت جريدة النهضة في ١٣ آب من ذلك العام خبر سفرهم:

"غادر صباح أمس بطائرة الخطوط الجويّة العراقيّة قسم من الموظّفين الذين اختارتهم المفوضيّة الباكستانيّة في بغداد للقسم العربي من إذاعة كراتشي التي ستُفتتح رسميًا بمراسيم خاصّة يوم غد، لمناسبة ذكرى استقلال البلد، وهم: كاظم الحيدري رئيس



المذيعين في دار الإذاعة اللاسلكيّة للحكومة العراقية، وقد عُيّن مراقبًا للمناهج براتب شهريّ قدره ٧٥ دينارًا، والآنسة تاجي عبد المجيد، وقد عُيّنتْ مساعدة للمراقب براتب شهريّ قدره ٢٥ دينارًا ونصف دينار. نتمنّى لهما سفرًا سعيدًا، ونرجو أن يوفقّا إلى أداء واجبهما على أحسن ما يرام".

لن تبقى وحيدة. إنضمَّ إلى البعثة، في كراتشي، مترجمون ومذيعون من مصر والأردن وفلسطين. كلّهم في كفّة وهو في كفّة. محرّر شابّ ذو شارب خفيف أشقر وشعر لامع. أليف الطباع. تشعر أنّ محنةً ربّته وأنضجته مثلما ربّتها. راقبته يترجم نصوصًا من الانكليزيّة، إنتبهت أنّه يبثّ فيها تفاصيل مشوّقة من عنديّاته. يُعَرّب القصص الأجنبية ويكتب مسلسلات غير مألوفة للمستمع الشرقي. كانا صغيرين ومتشابهين. أصغر من الآخرين. كلاهما غريب عن الأهل والدار. هي مطرودة من بغداد، وهو غادر بيتًا صار بيد اليهود. يلتقيان في أرض بعيدة، ويتقاربان وتتناسج حولهما شرنقة خفيّة، لكن تاجي بركان ومنصور سلسبيل.

جاءت إقامتها في بيت جميل، غير بعيد عن مقر الإذاعة. وكراتشي، يومذاك، مجتمعان. العامّة والنخبة. وبحثت المذيعة العراقيّة عن موقع لها بين المكانين. كان من الطبيعيّ أن تتبنّاها النخبة. أجانب من الانكليز في الغالب، وباكستانيّون درسوا في الخارج، يحلمون بتحويل دولتهم الناشئة إلى هايد بارك. حديقة خضراء تسمح بالحريّات. تعال عندنا وقلْ ما تشاء. لن يعترضك شرطيّ ولا شيخ جامع. صدرنا رحب وديننا سَمْح. نقبل كلّ من يمدّ لنا يد المصافحة. صدّقت تاجي ما رأته في اللافتات.



شعارات متفتّحة تسمح لها بأن ترفرف بأجنحة الحريّة التي تمتّعت بها في بغداد.

يأتي أصدقاؤها الجدد، نهاية الأسبوع، يأخذونها إلى بيكنيك على ساحل البحر. يمضون يومي العطلة في العراء. أمان ورخاء بجوار الموج، تحت النجوم. تنام متأخرة وتوقظها شمس اعتادت التبكير. تفرك عينيها وتسمع أصداء ضحكات. ترى سابحين وسابحات يركبون الموج بما خفّ من ثياب. لم تعرف شيئًا مثل هذا في بلدها. نساء بالمايوه. كان الصبية ينزلون إلى دجلة بسراويلهم التي تغطّي الركبتين. يتسابقون في عبوره من صوب الرصافة حتّى الكرخ. تتكرّر حوادث الغرق طوال الصيف. تمكر فاتولات الماء بأشجع الشباب. يعودون بالغريق محمولًا إلى أمّه، يهرولون به في الأزقّة والبلل يقطر من شعره. تشقّ الوالدة زيق دشداشتها ويعلو الصراخ. النهر أحزان وأعياد وزوارق وغناء بعيد ذو ترجيعات. مواعيد ونذور وشموع وطوّافات من كرب النخيل. تشتاق لدجلة. وبيكنيك كراتشي لا يشبه النزهات في أصياف بغداد. تخرج العائلات لتخيّم في جراديغ الأعظميّة والكرّادة. عشش متباعدة من الحصير على النهر، أبرد من قيظ البيوت. يلعب الرجال النرد، أو يشوون السمك. يتسابق الفتيان في السباحة. من لا يجيدها يتعلّق بالجوب. لمّا تعلمّت الانكليزيّة فهمت أنّها لفظة جاءت من تيوب. عجلة مطّاطية سوداء منفوخة تترك صاحبها عائمًا فوق الماء. تجلس النساء بأنصاف عباءاتهن على الجرف، مع المغيب. يبرّدن بالماء أقدامهن الحافية. يدحرجن فيه الرقّي لتتحوّل الفاكهة الحمراء إلى دوندرمة. رائحة



المسكوف تفتح الشهيّة وتُشرّع نوافذ الرغبات. يلتهب الخيال عمّا يمكن أن يدور بين الرجال والنساء وراء جدران الحصير.

البحر هنا لا يشبه النهر هناك. لكنّ الموج جميل حيثما كان.

لم تتعلّم تاجي السباحة. تجلس تحت الشمسية تقرأ وتدندن بما في بالها من مواويل. تتفرّج على أصحابها وهم يلوّحون لها لكي توافيهم. تضع نظّارتها القاتمة على عينيها وتنفصل عنهم. لديها القدرة، عندما تشاء، على أن تعيش وتتنفّس داخل نفسها. تسافر مع طبطبات الموج. لا تعرف مصيرها في هذه البلاد. قد تتزوّج أحد المهراجات. أو تترك مشاعرها تتفتّح نحو الفلسطينيّ الصغير. أعجبها لأنّه مثلها، يحفظ الشعر القديم.

- من أين؟

- من الدواوين في مكتبة أبي العامرة. وأنتِ؟

- من السماع في مجلس زوج أمّي.

يتباريان في القصائد والمعلّقات. يتفقان على دسّ أبيات الشعر في تقارير الإذاعة. تخفّف الاستشهادات من جفاف نشرات الأخبار. تتأمّله وهو يقرأ بصوته الرخيم أمام الميكرفون. وسيم دون أن يتوافق وذوقها في عشّاقها. تميل إلى السَمار وهو أبيض على شُقرة. نحيل بالغ التهذيب. سألته عن عمره وزاد تحفّظها. في العشرين فحسب. يصغرها بحفنة أعوام. لكنّ شيئًا ما يشدّها إليه. تطمئنّ لصحبته. الوحيد الذي لا يغازلها. لا يرمي لها كلمات ترميها، بدورها، في كيس التأوّهات المُلقى وراء ظهرها.



العمل إطار مناسب للصداقة. لم تتصوّر أن تتطوّر إلى هوى مستحيل يشغلها للباقي من عمرها. النجمة التي يتقرّب لها الشباب ذوو الشهادات الطويلة، العائدون من كمبريج، لن تتعذّب لاقتطاف قمر صغير في متناول اليد. في محيط تاجي رجال أكثر جاذبية. يوقظون شغفها وعدوانيّتها. يغريها أن تختبر على جلودهم سطوتها. تلعب الندّ للندّ. غالب أو مغلوب. والغالب يفوز بكلّ شيء. أو قد يعود بخفّي حنين. أمّا هذا الولد الطريّ، زميلها الفلسطينيّ، فلا يريد أكثر من أن يسمعها تُغني. لهجتها العراقيّة تفعل فيه المفاعيل. تتحوّل الحروف الخشنة على لسانها إلى "مايع شلغم".

يئس غضنفر علي خان من إقناعها بالزواج. عرض عليها أن تقترن بابن أخيه. كان بحكم منصبه كممثّل لباكستان في العراق وإيران، يتنقّل ما بين البلدين. تلبّي تاجي دعوته وترافقه في بعض رحلاته. ينطلق موكب من السيّارات الفخمة وأطقم المساعدين والخدم، مجهّزين بكلّ احتياجات الرفاهية. حتّى كرات الغولف. يُجلسونها في موقع الصدارة. يقطعون الطرق الطويلة، ويتوقّفون في همدان. كرمنشاه. يصلون إلى طهران. تدوم السفرة يومين وثلاثة أيّام. ينزلون في الفنادق، ويتشارك الموظّفون والسكرتيرات كلّ اثنين أو اثنتين في غرفة. ينحشر السائقون كلّهم في حجرة واحدة. وتكون الغرفة الأفضل من نصيبها.

لكنّ الأعمار مراتب. والعصور والظروف أشكال. وقد كان ذلك عصرها الذهبيّ.

تمتّعت تاج الملوك بنفوذ يندر أن يتأتّى لغيرها من النساء.



امرأة في العشرينات من العمر، شرقيّة لها حرية رجل، لكنّها لم تحصل على شيء مجّانًا. سؤال زينة السادات ما زال يرنّ في سمعها: ما الثمن؟ قررت ألّا تنقاد إلّا لما تمليه عليها رغباتها. تجد هوايتها في الغواية والصدّ. تتلوّن كما تحبّ. يحاول بعضهم كسرها فتتلذّذ بتعذيبهم. تعاملهم مثلما اعتادوا معاملة النساء. من تتمكّن منه ينقضي أمره لديها ويُطرد من جنّتها. تُمرمره مثلما مَرْمَرَتها الحياة. حاولت أن تمدّ رقبتها أعلى من قامتها، وسمعت طقطقة عموها الفقريّ. ظلّت العصيّة والنبيذة وعلامة الاستفهام. لم تجد مُستقرًّا في أيّ بلد. يسألها غضنفر:

ـ لماذا أنتِ قلقة مثل زئبق؟

ـ ألم تسمع بحكاية علي الزيبق في ألف ليلة... أشطر الشطّار؟

يقول لها منصور إنها رجراجة مثل طبق الجيلي. وتخشى أن تُلقي له بالجواب الوحيد الصادق. ليس ذنبها أنّها وُلدت قنبلة جنسية موقوتة في مسوح راهبة. تبدو عاشقة مُزمنة. ويمكنها أن تكون جافّة المشاعر. غادرتها طيبتها منذ أن غادرت بغداد. تقمّصتها اللعنة.

في مجتمع كراتشي المختلط وجدت ملعبًا يناسبها. حفلات استقبال لا تنتهي. عشاءات راقصة لا تتخلّف عن أيّ منها. لها مائدة محجوزة في المطاعم. أخذت دروسًا في الرقص الغربيّ، وتجلّت مواهبها في السامبا والرومبا. تتلوّى على هوى الإيقاع. كأنّها ولدت في قبيلة غجر. البنت الصحافيّة، رئيسة التحرير التي



لم تعرف دروب المراقص والملاهي في بغداد، تعلّمت كلّ شيء في البلد الجديد. تدهن أطراف شعرها بالمسك فيتخدّر من يحاذيها. درّبتها على الرقص معلّمة مولودة من أمّ بريطانية وأب يونانيّ. لم تكن دوروثي راقصة محترفة، بل موظفة مهمّة في وزارة الخارجيّة. تفكّ رموز الشفرة السرّية. صارت صديقتها المُقرّبة. أول من لاحظت علاقتها الغريبة مع منصور البادي، المترجم الشاب الذي يعلّق كاميرا في عنقه حتّى وهو يأكل. يلتقط الصور لزميلته العراقية دون غيرها.

ظلّت تعامله بلطف، مثل ولد طيب، لولا أنّ كهرباءه مسّتها على حين غفلة. حركة عابرة كان لها وقع الصعقة على مسامّها. نهار صيفي ساخن وهما في الإذاعة. واحد من تلك النهارات التي ترتدي فيها النساء فساتين بدون أكمام. قدّم إليها تعليقًا كانت قد طلبته منه. إنّ عملهما مترابط. يتبادلان أوراق التقارير ومسوّدات الأخبار. مدّت يدها لأخذ الورقة ولمس رسغها ذراعه. لم تعرف ما الذي حصل. كأنّ برقًا ضربها. لقد أملت عليه عشرات النصوص، من قبل. لم تكن تجيد الطباعة على الآلة الكاتبة. ينقل كلامها ويطبعه ويعيده للمراجعة. تناولت منه أوراقًا لا حصر لها. ولم تنفجر زوابع ولا رعود.

رفعت عينيها بسرعة ونظرت إليه. هل أصابته الصاعقة مثلها؟ رأت وجهه مخضّبًا بحمرة مباغتة. أدركت أنّه مغرم وممسوس. جاهز للاحتراق مثل عود كبريت. ولم ترقّ له وتتجاوب بل أحسّت بإشفاق. خافت عليه من غوايتها. كان صغير السن ونقيًا وابن أوادم. ولم تكن تنوي تلويثه. لن تضيفه إلى ضحاياها. فليَبْقَ



البريء على براءته. لكنّها صارت تنظر إليه بعينين جديدتين. تتغافل أيامًا ثمّ تغدق عليه اهتمامها. لا تريد للصاعقة التي اندلعت بينهما أن تنطفئ. لم تكن تحبّ الرماد. ولا فكّرت في أنّ شرارة يمكن أن تتّقد لنصف قرن آت.

رآها ساهمة، ذات صباح، بعدما أطفأت الميكرفون ولم تغادر كرسيّها في الاستوديو. كانت قد انتهت من إذاعة نشرة فيها خبر عن خطوبة ملك العراق الشابّ. إقترب منها وقرأ على ملامحها تلك الخيبة التي يشعر بها المرء حين لا يتلقّى دعوة لعرس قريب من أقاربه.

- ما بكِ؟

- إشتقتُ لبغداد.

- سنعود إليها معًا.

- وسأكون دليلتك هناك.

- وسأكون دليلك في القدس... إذا...

أضغاث أحلام والطريق إلى المدينتين مقطوع عليه وعليها. تركا كراتشي على أمل اللقاء في مكان ما وبقيا متباعدين. بقرار أو خضوعًا للظروف، لكنّه سيسعى للقائها في باريس، بعد جبل من السنوات.

كان القرن العشرون يلفِظ آخر أنفاسه.



٢٣

كما يُنزع الضِماد الملتصق بجرح متقيّح، توجّعتُ وأنا أكشط حبّ يوسف من مساماتي. لم أكن قد اقتربت من رجل قبله.

ـ أويلاه على حظّك يا وديان... كان فتحة عينك يا مكرودة.

تظن أمّي أنّ وَلوَلتها علاج شافٍ. دواء يُلطّف من بَهَظ القسوة. لا تدري أنّ تذكيري بحظّي أبهظ من الشَفَقة وأقسى. أتحاشى الخروج من البيت لئلّا أعود إنسانة طبيعية. لست مثل غيري من البنات. واختلافي يستحوذ عليّ. لن أدع الضحكة والنسمة الصافية ونور الشمس تجرفني في مجراها. أغلق باب غرفتي عليّ وأفتح علبة الكمان. تجافيه أصابعي. أعرف أنّني، في اليوم الذي سأمسكه فيه، أكون قد تعافيت. لا علاج لي سواه. لكن بيني وبين ذلك اليوم برازخ.

تتحرّك يداي في الهواء بدون كماني. في أيّ فيلم رأيت المشهد؟ أبتئس وأسخر من نفسي لأنّني لست بيتهوفن. لن أتعانق مع موسيقاي كما كتب سمفونياته وهو أصمّ. أشتاق إلى رجل يعانقني بقوة. لم يُخرس الصمم باقي الحواس. حبيب أو حتّى غريب يحتضن حاجتي. يُشبع الشبق الذي كنت ألتمس مساربه على صدر يوسف. ألتصق به وتتكفّل أنامله بالباقي. ندور داخل سور مرسوم. أخشى على نفسي ويخاف عليّ. أتلوّى وتتهدّج أنفاسي. أتملّص من بين ذراعيه وأطلب منه الصبر. أصبر من أجله لا من أجلي. حفظت له زهرة عذريّتي. سذاجة تُشقيني بعدما فقدت ألقَ صباي، وبدأت خيوط الشيب تباغتني.



"يا الزارع البزرنكوش إزرع لنا حنّة". أحمل عذريتي وأفكّر في أن أخرج بها إلى الشارع. أسير على أرصفة مدينة مُنتهكة. كان الحصار الخارجي يخنقنا. والضغط الداخلي يُزهق الأرواح. أقرأ كلّ وجه أمرّ به. هل كسروا كرامته أم ما زال على قائمة الانتظار؟

أخاف أن أقترب من الكمان. أتلاعب بشبحه. أسند ذقني إلى الفراغ. أرفع يمناي وكأنّني أمتشق القوس. أترك اليسرى تلاعب الأوتار. بدونها لا يكتمل عزف. أتذكّر وصايا أساتذتي. القوس هو الذي يُحدّد لون الصوت. تعلّمتُ أنّ للصوت ألوانًا. مفتوحة أو مكبوتة ومُنكتمة. بهيجة أو كئيبة. واطئة أو مرتفعة. بالقوس يجري اللعب كلّه. أتمعّن فيه ولا أتحسّسه. شعيرات مُستلّة من ذيل فرس. عالجوها وحنّوا عليها. دهنوها بمادّة شمعيّة من صمغ الشجر. ليست أيّ شجرة. صنعوا مكعّبات نحكّ عليها أقواسنا حتّى يخرج مسحوق أبيض يلتصق بها. يرفع مستوى التفاهم بين شعيرات الخيل والوتر.

لا أدري بأيّ مادّة أحكّ دمي الملتصق بيوسف. ينظّف البشر آذانهم بطرف السبّابة أو بأعواد القطن الطبيّ. وحين يريدون طهارة أعمق يذهبون للطبيب فيغسلها لهم بمحلول قَلَويّ. يُسلّط رشّاشًا من الماء يقتلع القذارة المترسّبة هناك. أحكّ صوّان أذني اليسرى. أقرصه وأفركه بقوة. أدسّ خنصري عميقًا في التجويف لعلّه يستجيب. أكرر الأمر مع اليمنى. هناك رَمَد في مكان ما منهما. خثرة وتكلّس وغشاوة. طين يسدّ مجرى الساقية. ماذا أفعل بأُذنيّ حين ما عدتُ من فئة الناس الطبيعيّين؟ أهزّ رأسي بقوّة لأطرد استيهاماتي. لا قذارة فيهما، لكنّه التفكير الفالت من



عقاله. لا بدّ من أن انّظفهما ممّا أقحم فيهما، من قرقعة موسيقى فاجرة. قيّدوني واقتحموني بدون إرادتي. لم تمتدّ يد إلى جسدي لكنّني أحمل عبء امرأة مُغتصبة. أحتاج للوقوف طويلًا أمام الحوض وشطف أذنيّ عشرات المرّات. أغسلهما لكي أطرد أصوات الصدأ من مخّي. أذعَك لعلّ سمعي يعود كالسابق وأتطهّر من وسخ الأستاذ. أنكفئ وأُسلّم مقاليدي لذاكرتي. تأخذني إلى أيام بعيدة هانئة. إذا ضاق خُلقُك فتذكّري أيام عرسك. أستسلم للأمثال والحكَم الشعبية ناشدةً عندها سلواي.

تأمرنا مدام يانا بأن ننظّف الآلات بعد كلّ تمرين. تقول إن حرص الموسيقيّ على تلميع آلة العزف مثل حرص الجندي على تسليك سلاحه وجاهزيّة بندقيّته. لم أكن أفهم الكلمة وهي تقولها بالانكليزية. "ردينيس". عندما قامت حرب إيران فهمتُ كلّ شيء. فهمنا كلّنا ما كانت براءتنا تُخفيه عنّا. حتّى الصغار منّا حفظوا مصطلحات الجنديّة. تعلّمتها ولم أتآلف معها. لم تكن لعبة موسيقيّة. لم أحبّ بدلة الطلائع. ولا صفّارات الإنذار. ولا دويّ الصواريخ. كلّ يوم جنازة في بيت من بيوت الحي ولافتات سود. تباغتنا الغارة ونحن في الصف. نفرّ ونلتصق بالمعلّمة. الدجاجة وكتاكيتها. تصرخ بنا بلغة لا نفهمها وهي تقودنا إلى درج النزول نحو الملجأ. تفقد مدام يانا إنكليزيّتها في لحظة الخطر. تعيد الغارة لسانها إلى أصله.

كنت في الخامس الابتدائيّ عندما بدأت الحرب.

تجلّت لي المدام، يومذاك، إنسانة شجاعة. تجيد التصرّف في مواجهة الشظايا والنزيف. كانت أقوى من أمّي. أمّي مثل كلّ



أمّهاتنا. تخاف من المجهول. وَجِلة ودمعتها سهلة. لا رادّ للقضاء، في عُرفها، سوى بالصلاة والتمائم والأدعية. ترتجف كلّما رأت سيارة بيكاب عسكريّة تدخل شارعنا. أين سيهبطون بالنعش الملفوف بالعلم؟ تشقّ المساء صرخات ملتاعة فنعرف أنّ قلوبًا جديدة تفطّرت في منزل قريب. صار الأسود زيًّا موحّدًا لنسائنا. تتحايل المفجوعات على الأسى المحتوم. يؤجّلنه ساعة. تهزج الثكالى ملوّحات بالعباءات فوق الرؤوس. يهلّلن ويرقصن وهنّ يشيّعن الشابّ الوردة. تستحيل الجنازة زفّة. تبكي البنات بصوت مسموع. يمسحن مخاطهنّ بأحجبتهنّ. بأكتاف بعضهنّ بعضًا. ينهرهنّ رجل ناشف الملامح:

- خُشّن جوّه!

وأمّي لا تحتمل المشهد. تبقى وراء سور حديقتها. تلعن كلّ من تهلّل في جنازة ابنها. ثمّ تستغفر ربّها وتقول إن الحرب أماتت قلوب الأمّهات. كلّ هذا ونحن في البدايات. قبل الكويت وبوش الأول. قبل الاحتلال وبوش الثاني.

كنّا، في تلك الحرب، نعوم فوق صناديق الموتى. نرى الرايات الخفّاقة ونسمع بيانات الإذاعة. "وطن مدّ على الأفق جناحا". أعزف بلا صوت وأصنع آلتي داخل رأسي. نجّارة محتالة. تجتهد لتملأ فراغ السكون المطبق عليها. أختار خشب صنوبرة وأتركه في المخزن. أصبر عليه حتّى يجفّ. سأنجُرُ منه صندوق كماني. تجويف محدودب بدرجة مدروسة. بالمقاييس التي أعرف. لكلّ صانع مقاييسه، ولكلّ مدرسة من مدارس الكمانات أسرارها. سأزرع في الوسط خشبة تقف عموديًا. تسند باطن الآلة إلى



ظهرها. ليس عبثًا أن سمّوها "روح الكمان". ثمّ أضع في الرأس أربعة مفاتيح. مفتاح لكلّ وتر. بعدها أنجر الغزالة، تلك الخشبة المُسنّنة التي تستقرّ بينها الأوتار. رقيقة لكنّها تتحمّل الكثير من الشدّ. كلّما خسفت معنويّاتي أتذكّرها. أغنّي لها فتلهُمني الشجاعة:

- "يا غزالي كيف عنّي أبعدوك

هل طلبتَ البعدَ أم همْ أجبروك"

غنائي يرتّق جرحًا غير مرئيّ. أسمع نصف صوتي صادرًا من داخلي. والنصف يضيع في الخارج ولا يصلني. ليت لحبال الصوت أزرارًا تسمح برفع درجته، مثل الراديو. أسرح مع سعف النخلة، من نافذتي، أرى عصرًا يخترعون فيه ريموت كونترول للحناجر. أتشجّع وأمرّ بأطراف أصابعي على أوتار الكمان من بعيد، مُمدّدًا في علبته. أتسامر معه ويؤنسني. أتونّس به. أتذكّر يوم انقطع وتر، قبل الحفلة، أثناء الدوزنة. ويوم انبطحت الغزالة أثناء العزف. كلّنا مُعرّض للعطب، آلات وعازفون، لكنّ واحدنا يُنجد رفيقه ويداري عليه، فلا ينتبه جمهور المستمعين للخلل. كمانٌ يستر على كمانٍ ولا يفضحه.

في فرقتنا عدّة كمانات. حسب الريبرتوار وحاجات التأليف الأوكستراليّ. تكفي أربعة كمانات أولى في أعمال موزارت وأربعة ثانية. تتكامل الأولى مع الثانية في العزف دون أن ينطقا اللحن ذاته. أدير في رأسي كونشيرتو البيانو الرقم ٢ لرخمانينوف. نقول لمدام يانا إنه رحمانينوف، بالحاء. واسمه مُشتقّ من العربيّة. تعجز عن مجاراتنا، تغضب منّا وتصرّ على الخاء. مقطوعة تحتاج



لأكثر من ثلاثين عازفًا أولًا وثانيًا للكمان. مثل كابريتشو إيتاليانو لتشايكوفسكي.

لم أعد إلى الفرقة السمفونيّة. ولا إلى أيّ مجموعة موسيقيّة غيرها. لم يمنعني أحد، لكنّني كنت أخشى عيونًا تراقبني. ضغط الهلع على روحي. أنا أخاف. أنتَ تخاف. أنتِ تخافين. هم يخافون. نتظاهر كلّنا بالشجاعة ونسخر من رعدة الجبان. وكلّنا يرتعد تحت جلده، ويقلق على نفسه وأحبابه. يدور في حلقة زار تهيمن على البلد. الشهداء أشرف منّا لأنّهم ماتوا وما عادوا يخافون. خفت على أبي وإخوتي. على أمّي التي تبكي وهي تضحك. كان الشعراء مقرّرين علينا في التلفزيون. الخطابة فنّ الفنون. فصيحة وشعبية. "يا حوم اتبع لو جرّينا...". والحوم يتبع ويتبع ولا يتعب أو ينثني. ومثل مدمن يوقد سيكارة جديدة من أخرى منتهية، هبّت علينا عاصفة أعتى. تغطّى كماني بغبار أشدّ سوادًا.

صحوت ذات صباح وقلت سأكسر شرنقتي. قرّرت العودة إلى المركز الثقافيّ الفرنسيّ واستكمال دروس اللغة. لم يخطر ببالي أنّ الملحق الثقافي سيتعرّف عليّ وأنّ خلاصي سيكون على يديه. كنت معتادة رؤيته في حفلات الفرقة السمفونيّة. يجلس مع زوجته في الصف الأوّل. أكون على المسرح، وأنحني مع العازفين لتحية الجمهور. أراه ينهض ويصفّق بحماسة شديدة. يقف الحاضرون في آخر الحفلة ويواصلون التصفيق لبضع دقائق. يلفت مسيو آرمان نظري بطول قامته وقصر قامة زوجته اليابانيّة. رأسها يصل إلى خصره.



نتمرّن، في سنوات الحصار، وقلوبنا على أوتارنا. نعزف ونخشى أن ينقطع وتر منها. سلعة ثمينة لا تتوافر بدائلها، قضمتْ لجان التفتيش لحمنا الحيّ. لم تنفع تأوّهات عشرين مليونًا من البشر. ولم نفقد الأمل. بحثنا عن أي بارقة ولو عجفاء. نزرعها عسى أن تخضوضر. لن أنسى اليوم الذي صرخ فيه منير بشير بمراسل التلفزيون الفرنسيّ:

ـ هل يعرف العالم أنّ العقوبات الاقتصاديّة تحظّر استيراد أوتار الآلات الموسيقية؟ الأوتار تقطّعت وآلاتنا خرساء. عازفونا لا يعزفون. هل أوتار العود والكمنجة سلاح حربيّ؟

نقلت الكاميرا صرخة عازف العود المعروف عالميًا. وقعت في أذن أناس يحترمون الفنون. يقدّسون الموسيقى. وبعد أقلّ من أسبوع، استدعاني مسيو آرمان إلى مكتبه. أبلغني أنّ بلاده قررت استضافة ستة فنّانين من الشباب، أنا منهم. يريدوننا ألّا ننقطع عن موسيقانا. سنواصل تعليمنا وتدريباتنا في باريس. رجوته أن يكرّر عبارته بصوت عال لأنّني لم أفهم ما قال. غصصتُ بدمعي وأنا أتطلّع إلى اليد التي امتدت لانتشالي. بأيّ أذنين أواصل تعليمي وتماريني؟ كنت أنتحب وكان يتأثّر لبكائي. يتصوّرها دموع الفرح بالمفاجأة. يقدّم إليّ منديلًا. حتّى المناديل الورقية شحّت في السوق. سلعة كماليّة. فكّرتُ في أن أزوره في بيته وأشرح له الأمر. حيطان السفارات والمراكز الأجنبية لها آذان. ثمّ خفتُ أن تراني العين الخفيّة وأنا أدخل بيت دبلوماسيّ . كتبت رسالة شرحت فيها، باقتضاب، مأساتي، ودسستها في يد زوجته.

سارت الأمور بسرعة. وصلتُ باريس، وكنت أنتظر أن تلتئم



أذناي تلقائيًّا، لكنّ الثقب كان أخطر. توقّعت أنّني سأواصل دراستي الموسيقيّة، مثل رفاقي الخمسة. لا أدري ما كتب المسيو آزمان إلى مسؤوليه في الخارجيّة. وجدتهم يستقبلونني باهتمام خاصّ، ويعاملونني مثل لاجئة اضطهدتْ في بلدها. ألحقوني بدورة لتقوية لغتي الفرنسيّة خاصةً بالصمّ. تنظر المعلمة نحوي وتحرّك شفتيها على نحو واضح. جاؤوا لي بمترجمة تتكلّم بأناملها، لكنّني لا أتقن لغة الإشارة. فهمت منها أنّ لكلّ شعب إشاراته المستقاة من ثقافته. لم يتّفق فاقدو السمع على لغة واحدة. سأرفع شعار: يا طرشان العالم اتّحدوا. كنّا نتفرّج في بغداد على المذيع المحصور في الزاوية اليسرى للتلفزيون، يقرأ الأخبار ويقوم بحركات غريبة. نحاول أن نرصد الكلمات والإشارة الدالّة على كلّ منها. يرفع كفيّه فوق رأسه عند ذكر اسم الرئيس. يقف أخي الصغير ويحاول تقليده. يمرّر سبّابته أمام رقبته. تنهره أمّي وتضربه على يده. تتلفّت لتتأكّد أنّ الستائر مسدلة. لا عين تتلصّص.

أحببت زيارة برج إيفل، لكنّهم أخذوني إلى عيادة في شارع أسّاس. قرأت الاسم وتصوّرت أنّه مأخوذ من العربية. "عسّاس". كانت لنا زميلة تونسيّة في الجامعة تسمّي الحَرَس والرُقباء عسّاسين. تشير إلى ممثّلي الاتحاد الوطنيّ للطلبة وتقول:

- جماعة الحزب يعسّوا علينا.

- هشْ يا معوّدة...

ندير الرؤوس ونكتم ضحكاتنا. نتصنّع التجاهل. من يسمع ولا يقدّم وشاية يصبح شريكًا في الجريمة. تسير الوشايات بيننا، وتشاركنا في صحن العدس في مطعم الكليّة. ولكي تغيظنا البنت



التونسيّة وتلهو بمخاوفنا، كانت تسخر من شعاراتنا القوميّة. تقارن بين هوَسنا بالعروبة وبالأمّة ذات الرسالة الخالدة، واتهامنا للتوانسة بأنّهم فرانكوفونيّون، لا يجيدون لغتهم الأمّ. تقول إنّ عسّاس، على الأقل، عربيّة قح. من عَسَّ يَعُسُّ. وهي أفضل من صفرطاس وكْلاص وبُطَل.

في الفترة الأولى من العلاج، رافقتني بلانشين. شابّة لطيفة متطوّعة في جمعية تهتمّ بضحايا التعذيب. لا أدري كلمة السرّ التي كانت تستخدمها فيفتح لنا سمسم كلّ الأبواب. توشوش كلمات قليلة وتتغيّر السحنات المتجّهمة. تنساب من الأعين نظرات حنوّ تحطّ على وجهي. تدمع أعين الممرضات ويتقلّص وقت الانتظار. أنا حالة مستعجلة. الفيولونيست الموهوبة التي ثقب البورو العراقيّ أذنيها. فهمت أنّ البورو تعني الجلّاد. تدور بي بلانشين من عيادة إلى أخرى كمن يقتاد طفلًا ذا عاهة ليشحذ معه. وأشهد أنّ القوم كانوا كرماء.

في اليوم الثالث لوصولي كنت أجلس أمام بروفيسور أحمر الشعر متخصّص في الأذن والأنف والحَنجرة. أنفي بارع في الشمّ، وحَنجرتي قابلة للعلعة، لكنّ العتب على السمع. راحوا يتنقّلون بي من يد ليد. فحصني كبيرهم وقرّر أنّني أحتاج إلى عمليّة جراحيّة بسبب ثقب في غشاء الأذن اليسرى. تذكّرت أنّنا نسمّيها الطبلة. ضحكت ببلاهة لأنّ الطبلة فرد محبوب في عائلة التخت الشرقيّ. كان لنا قريب طبّال يتحرّج من مهنته. يصرّ على أنّه ضابط إيقاع. شرّ البليّة ما يُضحك. أضحكُ هاربة من قلقي، وأمضي في تهيّؤاتي. المثّقفون يسمّونها تداعيات. "أدعي عليك وتدعي عليّ".



أترك البروفيسور يعزف على طبلتي. العمليّة ليست صعبة ولم تؤلمني كثيرًا. إنتهينا بقليل من القطن الذي يمكن إخفاؤه تحت الشعر. تحسّن سمعي بعض الشيء. سأحتاج إلى سمّاعات مثل تلك التي كنت أراها خلف أذن حماتي. حماتي السابقة. والدة خطيبي السابق. قلت له يومًا إنّ طرش أُمّه مفيد لي. لا تسمع مغازلاتنا. مصائب قوم عند قوم... عاقبني ربّي وصرتُ مثلها. لو تزوّجني يوسف لضاع في غابة السمّاعات، بيني وبين والدته. يروق مزاجي حين يأتي اسمه على بالي في سياق طريف فلا أتوتّر. ما زلت أضبط نفسي مُتلبّسة بشوقي لحضنه. عليّ أن أجتهد لأرميه وراء ظهري وأتخطّاه بمرور الوقت. أحبّ أن أستعيد حسّ فكاهتي. لن أسمح لنصف عاهة بتدميري.

أدخلني خبير السمّاعات إلى كابينة صغيرة مغلقة ليقيس درجة عَطَبي. الجدران مُبطّنة بالجلد. مُدَوشمة بأزرار مثل كنبات التشسترفيلد. يأتيني صوته ضعيفًا، ويتعمّد ألّا يرفعه. يتفاهم معي بالإشارات وبالكلام الصامت. يحرّك فكّيه مدًّا ولملمة وهو ينطق كلّ كلمة. تعلّمت كيف أقرأ على الشفاه. أتبعه وأجلس حيث أشار. أمامه شاشة وأجهزة إلكترونيّة دقيقة. يمدّ يده ليثبّت قوس مكبّر الصوت على رأسي. أجفل وأدفعه. السمّاعات الكبيرة تخيفني. أتصوّرها أجهزة تعذيب. تتواتر ضربات قلبي وتتعرّق كفّاي. أحتاج إلى دقائق لكي أهدأ وأطيعه. يناولني جرسًا صغيرًا أضغط عليه حين أسمع أيّ حسّ. تتوالى الخرخشات. أكبس على الجرس حالما يصلني الصفير. تتوالى الهمهمات. الحمحمات. الوشوشات. النبرات الرفيعة أو الحادة. الخشخشات والبسبسات.



ينتهي اختبار الأذن اليمنى، ويبدأ فحص اليسرى. ثمّ يجرّب الاثنتين معًا. لا أعرف كم مضى من الوقت وأنا رهينة الكابينة. تصعد الحرارة إلى وجنتيّ. يرفع الجهاز عن رأسي وتسترخي أعصابي. أتطلّع إليه لأتلقّى أملًا. أيّ بارقة. لكنّ نظرات الإشفاق في عينيه تنبؤني بالنتيجة. أتماسك وأتهرّب من دور الضحية. علّمتني المحنة كيف تكون النملة أقوى من الفيل. الأمل الأبيض ينفع في اليوم الأسود. أعود إلى وهدة السكون فلا أسمع تمتمات الخبير. لماذا يتمتم السامعون ولا يحسبون حساب الصُمّ؟ كتب على ورقة أنّه أجرى لي فحص البيرفوراسيون تيمبانيك. هذه وحدها تحتاج إلى قاموس.

لم أستعد سمعي الطبيعيّ، لكنّ الحمّى أهون من الموت. واصلت جلسات الترميم. تركت نفسي لهم يصنعون بي ما يشاؤون. قياس استدارة الصوان. تقطيع أنبوبتين رفيعتين حسب المقاس. حشو التجويفين بعجينة شمع ساخنة. صبّ لوزتين من البلاستيك على القالبين. إستخراج بصمة لكلّ أذن. كلّ عجينة ولها خبّاز. أبتسم بمرارة وأتذكّر أنّ أصابع يدي اليسرى بدون بصمات. أروي الحكاية للدكتور فلا يضحك. أقول له إن الأمّيّين في بلادنا يبصمون بالإبهام. أنا سأبصم بالأذن. يبدو أنّ فرنسيتي هزيلة لأنّه يواصل التجهّم. وبعد أسبوع كنت قد حصلت على سمّاعتين ثمينتين دون أن أدفع فلسًا واحدًا. دسستهما في جحريهما وتركت الخبير يضبطهما على شاشة الكومبيوتر. لاحظت أنّه يشتغل بالدقّة التي أدوزن بها أوتاري. وفي النهاية ابتسم. صافحني ونزلت من عنده مرفوعة الرأس. وحالما فتحت البوابة



الخشبيّة الثقيلة ووضعت قدمي في الشارع، نكصتُ وعدت خطوات إلى مدخل العمارة. إقتحم رأسي ضجيج السيارات والمارّة وصفير الإسعاف مضروبًا في خمسة.

إكتشفت أنّ الطرش نعمة.

٢٤

لطالما تساءل عن السبب الذي دفع بها إلى كراتشي. صحافيّة ناجحة، لفت اسمها انتباهه لدى مروره ببغداد، تترك فضاءها الأليف في المدينة الناهضة، لتحطّ في باكستان. رآها لأوّل مرة مع مراقب القسم العربي في الإذاعة. المدير العراقيّ وزوجته الأوزبكيّة. كانت هناك مجموعة صغيرة من العراقيّين في كراتشي، مثقّفين وصعاليك. يختلفون أكثر ممّا ينسجمون. قصدوا باكستان بروح المغامرة. أمّا هو، فحكايته مختلفة، لأنّه سليل النكبة التي فرّقت عائلات كثيرة. حمل أبناؤها العديد من الهويّات في هجراتهم. وظلّت شهادة ميلاده في القدس ذخرًا يعتزّ به. مكتوب فيها أنّه رأى النور في الساعة الثانية إلا خمس دقائق من صباح الجمعة، السابع من سنة تسع وعشرين. الابن البكر لعبد الله البادي ونعيمة ديوانجي. ما أدراك من نعيمة؟ عروس لبنانية المولد. تتحدّث الانكليزيّة والفرنسيّة، وتطالع الكتب. تسجّل مذكّراتها يومًا بيوم وتحفظ وثائق العائلة. كأنّها كانت تعرف ما ينتظرها من محوٍ للأماكن وسلب للحقوق. عادة نقلتها إلى ابنها، قرّة عينها.



بعد ولادته، راحت نعيمة تنجب البنات. ولدتْ خمسًا وفقدت واحدة. أفسد مخاضها بالولد سهرة الخميس على زوجها. بدأت تَطْلُق وتصيح فنزل مسرعًا من بيته، في البقعة الفوقا، يبحث عن سيارة أجرة. والفوقا لا تفصلها عن البقعة التحتا سوى سكّة القطار الذاهب إلى يافا. ذهب إلى منزل المسز تاونسند وعاد بها معه. قابلة بريطانيّة تحمل عدّتها في حقيبة عتيقة، تفوح رائحة جلدها. أنجزت مهمّتها بمهارة كأنّها وُلدتْ لتولّد. لا صوت يعلو على صوتها، يعني صمتها. صار عبد الله البادي يُدعى أبا منصور. وكان منصور دون الشهرين من العمر حين تطفّلت السياسة على حياته. جاء خاله، أخو نعيمة، يزورهم في القدس ويبارك بالمولود. حمل الرضيع بين يديه وخرج به إلى الشرفة. يجب أن يرى الشمس وتراه. لكن رصاصًا انطلق فجأةً. صرخت الأم ملتاعة:

ـ دخيلك خيّي هات الولَد!

كانت تلك أوّل مواجهة دمويّة بين العرب واليهود. "ثورة البُراق". حائط يعتبره الفلسطينيون وقفًا إسلاميًا. هنا ربط نبيّهم دابّته البيضاء، البُراق، ليلة الإسراء. يقول اليهود لا، هذا حائط المبكى، يقع تحته هيكل نبيّهم سليمان. وكان اتفاق شفاهيّ بين الطرفين قد قضى بألّا يشيّد اليهود بناء قريبًا من الحائط وساحته. وظلّ التقليد ساريًا لسنوات. ثمّ حلّ الانتداب البريطانيّ وهطل المهاجرون اليهود من أوروبا. ما عادوا يحترمون الاتفاق. يضعون الكراسي في الباحة ويصلّون أمام الحائط.

ـ يا جماعة الخير خذوا كراسيكم وانصرفوا من هنا.



- لا يا جماعة. الجدار كان مصلّى لأجدادنا قبل قرون.

في منتصف آب من سنة تسع وعشرين، مع احتفال المسلمين بالمولد النبويّ، وصل عشرات اليهود وهم يصيحون: الحائط لنا. مسيرة رتّبتها حركة بيتار، يوم الحداد على خراب هيكل سليمان. ردّ عليهم العرب بمسيرة اتجهت نحو حائط البُراق، وخطب فيها الشيخ حسن أبو السعود. بدأ الطاخ والطيخ من يومها ولم يتوقّف. نشأ الطفل على إيقاع الرصاص. كبر وشبّ والخلاف قائم. سافر إلى لندن للدراسة، وعاد والأمر كما هو. بل أسوأ. تاريخ فقير الخيال. يكرّر نفسه ولا يملّ. يحمل الصرّة الثقيلة ويعبر بها السنوات. يهترئ القماش وتخبو التطريزات. ينقلها من قرن إلى قرن. يذهب بها إلى الجامعة العربيّة. الأمم المتحدة. مجلس الأمن. كامب ديفيد. البرلمان الأوروبيّ. الكيلو ١٠١. طابا. وادي عربة. جنيف. مدريد. أوسلو. حول العالم في مئة عام. نَفَق بلا ضوء. لا يدري منصور البادي كيف سيشرح هذه المتاهة، وماذا يكتب لشبابٍ وبناتٍ يبتعدون عن النكبة. يولدون في جهات الأرض ويسمعون من آبائهم أنّهم فلسطينيون. لا يعرفون فلسطين. كم تمنّى لو يكون له حفيد مقدسيّ، يعود ليفتح البيت القديم. أيّ بيت؟ تحزن بناته حين تدمع عيناه كلّما سمع تلك الأغنية. لا يفهمن كلام فيروز وهي تصلّي لزهرة المدائن.

تأكّد له، بعد عام من إعلان دولة إسرائيل، أن لا عودة قريبة تُرتجى. ما تركوه خلفهم سيبقى خلفهم. صار عليه الإمساك بمصيره الآتي. أن يؤسّس حياته في الأرض التي تفتح له ذراعيها.



قرّر أبوه، بعد النكبة، أن تأخذ نعيمة البنات وتذهب إلى أقاربها في لبنان. هناك سيذهبن إلى مدرسة في الجبل. والولد؟ كانت إمكانات الأسرة قد تراجعت بعد مغادرة القدس. زادت تكاليف الاستقرار في المكان الجديد، وانهارت أحلام منصور في أن يكمل دراسته العليا في بريطانيا. أبى أن يطلب العون من أبيه. يعرف أنّه وثيق الصلة بالعائلة الهاشميّة، لكنّ عبد الله البادي ليس بالرجل الذي يستجدي وظيفة لابنه من الملك عبد الله.

قرّر منصور أن يعتمد على نفسه. ذهب وطرق باب سفير سعوديّ من معارفهم، وعد بتعيينه في مفوضيّة بلاده في عمّان. لكنّ الفكرة لم تلقَ قبولًا لدى الأب.

ـ لم أبعثك تتعلّم في لندن لتصبح سكرتيرًا ثالثًا في مفوضيّة.

ـ سأذهب إلى العراق إذًا!

لم يكن السبب في نوع الوظيفة. كان الأب يُناصر الملك الهاشميّ، وليس من جماعة منافسه ابن سعود. ولعلّ منصور ارتاح لموقف أبيه. عمّان مدينة صغيرة وهو يريد أن يبدأ حياة جديدة في بغداد. لقد تأثّر بمُدرّس التاريخ الذي كان يتغنّى ببوادي الرافدين. تسمية تشبه عنوانًا لقصيدة، تطرب لها نفسه. يجلس الساعات منكبًّا على مجلّد أمين الريحاني: "قلب العراق". تنظر شقيقته الكبرى، من وراء ظهره، لتعرف الكتاب الذي يسرق اهتمام أخيها، يُنسيه الموعد المقدّس لاجتماع الأسرة على مائدة العشاء.

ـ أخي، كأنّك تُخطّط للسفر إلى هناك؟

سؤال وضع اليد على ما في روحه من هواجس. إبتسم لها



وأنكر ما يفكّر فيه. العراق مملكة هاشميّة. إختيار يُرضي عبد الله البادي، لكنّ نعيمة ديوانجي ترفض كلّ المقترحات. يُشقيها أن يذهب ولدها بعيدًا ليأتي ببعض المال. بكرها الذي يسهر على شقيقات أربع، الذي صبرتْ، مُرغمة، على غيابه في لندن لإكمال الدراسة الثانويّة، لا تريد أن تفارقه، مرّة أخرى، حتّى لو ذهب إلى بلد قريب.

في قرارة نفسه، كان منصور متيقّنًا بأنّ بغداد لن تخذله. يتكتّم وهو يخطّط للسفر إليها. يبدأ التحرّكات مع حلول أيار. كان الأوّل من الشهر يوم أحد وبيروت في عطلة. والاثنين، الثاني من الشهر، عيد ميلاد الملك فيصل، وقنصليّة العراق في عطلة. وحال بداية الدوام، يوم الثلاثاء، تقدّم بطلب التأشيرة. كان واثقًا من حصوله عليها. المملكة العراقية تسهّل معاملات اللاجئين الفلسطينيّين.

كلّما سمع كلمة لاجئ شعر بلسعة سوط على جلده. يمدّ يدًا يمسّد بها موضع كرامته لعلّه يخفّف الحرقة. كان عليه أن يبقى منتصبًا رغم اللسعات. يواجهها مرفوع الرأس. شدّة وتزول. الكبار في العالم كلّه يعكفون على حلّ. لن يبقى لاجئًا إلى الأبد. وبتلك الجرعة من التفاؤل، استقبل منصور البادي أنوار الفجر في الرُطْبة، على الحدود بين سوريا والعراق. مدينة تنام وتستيقظ على مواعيد شاحنات النقل والمسافرين. يتسترّ ليلها على أشباح الهاربين والمُهرّبين. لا تملك سوى الشاي الساخن تقدّمه للواصلين إليها قبل شعاع الشمس. يحتسونه بتلذّذ، بشفطات مسموعة، وهم يحرّكون أجسادهم التي أصابها الخَدَر من طول الجلوس.

قبل توقّف حافلة شركة نيرن، سجّل منصور في دفتره الصغير



أنّه عبر البادية من نقطة البوكمال، عند انتصاف ليلة الثامن من أيّار، سنة تسع وأربعين. لم يصدّق أنّه يقف على أرض العراق. زرّر سترته ولفّ وشاحه حول رقبته حال نزوله من الحافلة. الريح باردة، وبغداد ما زالت بعيدة. وللسكون في الصحراء رهبة. قفر ممتدّ شاسع لا يشبه هضاب فلسطين ومزارع زيتونها. ولا جبل لبنان ومدرّجاته الخضر وغاباته. مدّ عينيه نحو الأفق المبهم ثمّ أغمضهما على مرأى النجوم. قبلها بساعات، كان يجلس في مقهى النوفرة بدمشق، يكتب رسالتين، واحدة لأبيه في عمّان، والثانية لأمّه في راس المتن. النصّ نفسه: "أطلب البركة وأنا في طريقي لمصير جديد مع فتاة اختارها قلبي وتزوّجنا حديثًا. رجاءً لا تقلقوا عليّ. حالما أستقرّ أبلّغكم بالتفاصيل".

ردّة الفعل كانت فوق التصوّر. أخذ الأب أوّل طائرة إلى بيروت. وهناك في المطار التقى زوجته وبناته وتباحثوا في موضوع الابن الذي هاجر في غفلة منهم. ثمّ عاد إلى عمّان. كان أبو منصور ممنوعًا من دخول الأراضي اللبنانيّة لأنّه يدعم عبد الله ، ملك الأردن. ولم يدم قلق الوالدين طويلًا. حال استقرار الولد المهاجر في بغداد، كتب لكلّ منهما رسالة ثانية، مع عنوانه الجديد. شرح لهما سبب إخفائه سر السفر. إستعينوا على قضاء حاجاتكم بالكتمان. فرح الأب لأنّ ولده اختار العراق. وانبسطت ملامح نعيمة وكتبت تدعو له بالتوفيق. تأكّدتْ أن لا عروس في الموضوع، وأنّ وحيدها لم يتزوّج من وراء ظهرها.

في الطريق الصحراويّ الموحش إلى بغداد، وجد نفسه يقفز في الفراغ. ثمّ زاغ من مخاوفه، وتذكّر أنّه ذاهب إلى مدينة أحبّها قبل



أن يراها. عاصمة أدب وفن وحضارة. شعر أنّه سيكون آمنًا فيها أكثر من أيّ مكان آخر. وكان قد تعرّف، في حافلة نيرن، على مسافر في مثل عمره من عائلة شاتيلا. فلسطينيّ من مواليد لبنان. تصادقا وتقاسما غرفة تقع في كرّادة مريم، استأجراها من عجوز آشوريّة. ولم يمرّ أسبوعان على استقراره في بغداد حتّى عثر على وظيفة طيّبة. شهادته الطازجة من بريطانيا فتحت له الأبواب. عيّنوه مساعدًا لمدير المصرف الصناعي العراقي. سجّل اسم المدير في دفتر يومياته. الدكتور عبد الغني الدلّي. وجيه من وجهاء بغداد، حسب تسميات ذلك الزمن. وسيصبح وزيرًا للمالية في إحدى الحكومات السعيديّة.

عاد من يومه الأوّل في العمل متعرّقًا وسعيدًا. إغتسل وخرج يبحث عن مطعم كباب. كلّ يوم يأكلّ في المطعم نفسه. قبض أوّل مرتّب له وأرسل بضعة دنانير إلى والدته في لبنان. صار، بالفعل، الابن الكبير الذي يمكنه أن يرعى شقيقاته، ولو من بعيد. ولم ينسَ الواجب الآخر. زار سفارة الأردن وسلّم على السفير الذي كان صديقًا حميمًا لأحد أعمامه. قادته الزيارة إلى التعرّف على النجل الأصغر للسفير، شابٌّ صاحبه في بعض النزهات. لم يتصوّر أنّ ذلك الشاب نفسه سيصبح، بعد سنوات، صهره. زوج أصغر شقيقاته.

بغداد، تلك الأيام، مثل نيويورك للآتين إليها من خارجها. لم تكن مباهجها تسمح بالتوفير. جرّب منصور، لأوّل مرّة، أن يعيش معتمدًا على نفسه. يحسب نفقاته ويفرك الدينار قبل أن يصرفه. يدخل مكتبة ماكنزي ويقف أمام رفوف الكتب



الانكليزيّة يفلّيها. مذكّرات سياسيّة وروايات حديثة الصدور لمشاهير المؤلّفين الأميركيّين. ينظر إلى الأسعار، ويبرمج ما سيقتنيه من الكتب، شهرًا بعد شهر، حسبما يُتيحه المُرتّب. ويحدث، أحيانًا، أن يتَبَرْمك ويدعو صديقًا لتناول الأطباق اللبنانيّة عند عمّو الياس. أشهر مطعم للوجبات السريعة في شارع الرشيد.

لا ينسى ذلك اليوم الذي هزّه وكاد يشلّ ساقيه. كان يمرّ فيه أمام مَخْمر للموز حين سمع الراديو، داخل المحلّ، يعلن قبول إسرائيل عضوًا في الأمم المتحدة. إستند إلى الجدار خشية السقوط. والشمس التي كانت تضرب رأسه صارت لها قبضات إضافيّة. عاد إلى غرفته وجلس ليكتب مقالًا حول الموضوع. ذهب إلى جريدة الزمان وأعطاه إلى محرّر يجلس إلى مكتب في صدر الغرفة. كان اسمه صبيح الغافقي. دنيا عجيبة. ربطت صداقة بينه وبين الصحافيّ الذي استقبله ونشر مقاله. وكان الغافقي، في تلك الفترة نفسها، زميلًا وصديقًا وفيًا لتاج الملوك. المرأة التي لم يكن منصور قد التقاها بعد!

تعدّدت مقالاته في الزمان. يستريح قليلًا من نهارات الدوام القصيرة في المصرف ثمّ يجلسُ للكتابة. يستفيد من معرفته بأحوال فلسطين وأهلها وتطوّرات قضيتها. يأخذ الوريقات التي لم ينشف حبرها بعد، ويقصد المبنى العتيق في منطقة الميدان. يتوجّه إلى غرفة المحرّرين باحثًا عن الغافقي. تمنّى لو يراها، تلك الصحافية التي قرأ مقالاتها الجريئة عن فلسطين. يقولون إنّ مكتبها كان في سرداب المبنى. سمع ولم يرَ.



يكتب، أحيانًا، مقالاته وهو في غرفته بالوظيفة. يرى فتًى نحيلًا بشوشًا يأتي كلّ يوم بالغداء إلى والده. الأب محاسب في المصرف. والولد يدخل وبيده السفرطاس. وعاء نحاسيّ للمَرَق يركب فوقه وعاء مماثل للأرزّ. يسمّونه التمّن. يسلّم الفتى على الجميع. يدعوهم للمشاركة في الأكل:

- تفضّلوا يا جماعة...

- عوافي.

لم يكن منصور أكبر منه كثيرًا. سأله عن اسمه وعرف أنّه سعيد. كان يستبشر بمقدم سعيد، ويدعوه لغرفته. يسأله عن أخبار دراسته في المدرسة المسائيّة. يساعده على حلٍّ فروض الانكليزيّ... درس الانكليزي عقدة طلبة العراق. جاءه سعيد، ذات يوم، قبل الظهيرة وبدون السفرطاس. كان يبتسم بسرور، أكثر من بشاشته المعهودة. تلكّأ عند باب المكتب يستحي من المبادأة بالكلام.

- خير إن شاء الله؟

- عندي لك بشرى، أستاذ منصور.

قال سعيد، الذي يعمل نهارًا في مفوضيّة باكستان، إنّهم يبحثون عن شابّ عربيّ حسن التعليم ويجيد الانكليزيّة للعمل مترجمًا في إذاعة كراتشي.

- عمّي منصور، والله ما نحبّ تفارقنا، لكنّ هذه الوظيفة مفصّلة عليك، وراتبها زين.

- والله شايف أنّ الزمان ناخ بعمّك منصور لتكون أنت واسطته للعمل.



بعد يومين جرت مقابلة المتقدّم الفلسطينيّ. نجح في اختبار اللغة، بدون جهد. أبلغوه أنّ الوظيفة صارت له. مُرتّبها الشهري يعادل سبعة وثلاثين دينارًا عراقيًا ونصف دينار، عدا مخصّصات السفر والإقامة. كان عليه أن يستعدّ للرحيل خلال أسبوع. فوجئ مدير المصرف لأنّه سيفقد مساعده اللامع.

- دكتور عبد الغني، أرجو أن تعذرني...

- رح بفألك يا وليدي.

قالها بلهجته البغدادية، بكثير من الودّ. وأردف بالانكليزيّة:

- غود لاك!

ترك منصور شريكه في الغرفة المُستأجَرة وانتقل ليقيم، موقّتًا، في واحدة من أجمل مناطق بغداد. شقة مؤثّثة بشكلٍ راقٍ، في شارع الملك فيصل، صاحبتها طبيبة لبنانيّة من قريبات والدته، اعتادت قضاء الصيف في ربوع بلدها. هربت الدكتورة نورة زيتوني من قيظ آب اللهّاب. رجته أن يسكن في بيتها لحين عودتها. وزادت من كرمها فسمحت له بأن يستضيف في الشقّة الواسعة أحد أبناء عمومته. وكان ابن العم قد سار على خطاه وتبعه إلى بغداد. تصوّرا أنّهما سيخوضان مغامرات السندباد في ألف ليلة.

ليلة السفر، غادر منصور الشقّة الراقية، وسلّم مفاتيحها لإحدى صديقات الدكتورة. وتُقدّرون وتسخر الأقدار. تلقّى مكالمة من مفوّض باكستان، السيد عبد الرؤوف خان، يبلغه فيها أنّ الوظيفة طارت منه. عثر مسؤولو الإذاعة على فلسطينيّ آخر، يقيم في كراتشي، يمكنه أن يؤدي العمل المطلوب. وبهذا فإنهم وفّروا مصاريف الطائرة. أبدى عبد الرؤوف شديد أسفه. حاول أن يكون



رؤوفًا قدر الإمكان ووعد بالبحث عن حل. كلّ الوعود لن تمسح بصقة الخيبة.

بما أنّهما كانا قد غادرا الشقّة، خطر ببال منصور وابن عمّه أن يتوجّها جنوبًا. كانت لدى كلّ منهما، على جوازه، تأشيرة كويتيّة بريطانيّة. وفي قطار الدرجة الثالثة المتّجه إلى البصرة، ناما على ورق جرائد بين مصاطب خشبية مُتداعية. ومن هناك قابلا شاحنة ذاهبة إلى الكويت بحمولة من البطّيخ الأحمر. العراقيون يسمّونه الرقّي. قال السائق إنّ السفر سيكون ليلًا بسبب حرارة الجوّ. جلس ابن العم بجواره، في الصدر، وأمضى منصور ليلته ممدّدًا فوق أكوام البطيخ.

يبدو أنّ رأفة الموظّف عبد الرؤوف كانت عابرة للحدود. وفّى بوعده وقام بما يمكنه القيام به. تكلّم بالهاتف مع سفير باكستان في المنطقة، غضنفر علي خان، الذي كان في طهران. شرح له الخيبة التي تسبّبت بها حكومته لشابّ فلسطينيّ لاجئ. إستمع السفير للشكاية واتّخذ القرار. أعاد منصور إلى الوظيفة التي كان موعودًا بها.

حال وصولهما الكويت، التهم منصور وابن عمه فطورًا دسمًا. تشريب وبيض مقليّ وخبز تنّور ومعها برميل من الشاي. تجشّآ واستراحا واتّصلا بصديق يعرفانه هناك. لم يكن في البيت. لكنّ الذي ردّ على التلفون قال بلهفة:

ـ هل أنت منصور البادي؟

ـ هل حدث مكروه لأحد من أهلي؟

ـ لا، إطمئن. لكنّ برقية لك وصلت هذا الصباح، من مفوضيّة باكستان في بغداد، تطلب عودتك بسرعة لأنّ مشكلتك قد حُلّت.



هذا ما يسمّونه دعاء الوالدة!

ترك منصور عنوان صديقه في الكويت لدى السيد عبد الرؤوف خان. عسى ولعلّ. عاد إلى العراق بعد يومين قضاهما هناك، لا غير، وترك ابن عمه يتدبّر أمره وحيدًا في الكويت. لم يبحث، هذه المرّة، عن شاحنة، وأخذ الطائرة إلى البصرة، ومنها القطار إلى بغداد. رحلة عنوانها العذاب. كان قد تعشّى كبابًا ملغومًا بالبهارات في سوق الهنود. نسي أن يأخذ معه ماءً لعطش الطريق. الشمس لا ترحم وليس تحته بطّيخ يكسره ويدسّ وجهه في حمرته. لا بأس. ستصبح كلّها حكايات تُروى، يدوّنها في يوميّاته. سيسجّل أنّه كان، بعد ثلاثين ساعة، على متن طائرة لشركة كي أل أم مسافرة إلى كراتشي. سقته مضيفة جميلة شقراء ماءً زلالًا... ومشروبات أخرى.

راقب السُحُب الداكنة من نافذة الطائرة. لم يكن مستعدًّا للتفكير. ولا للقلق. ولا للشوق. أنهى كأس البيرة بجرعة واحدة ونام غير آبه بضجيج المحرّكات.

٢٥

إذا أخطأت اللذّة طريقها إليكِ، فشقّي دربكِ إليها.

وجدتْ وصفة لتسكين جوع جسدها. ملعقتان من العسل. عشر قطرات من ماء الزهر. رشّة قرفة. إخلطي المزيج جيّدًا واتركيه يأخذ قوامه. استعدّي للمساء بطلي أظافر قدميك بالأحمر.



لون فاقع يستثير الثور. الثور والإثارة والثورة والثراء والثُرى والثُريا والثريد. كلّها في طاسة واحدة. لا فضل لمعنى على آخر. كلمات قرأتها وحفظتها وردّدتها كثيرًا. رأتها في المنامات. تعذّبت بسببها. طوت وديان صفحة حرف الثاء، وتدرّبت على لام اللذّة. لذّتها العذبة المخصوصة.

تناديه مع حلول العتمة فيحضر شبحه. يتربّع على الأرض عند سريرها وطاسة العسل في حضنه. يغمس أصابعه فيها ويلوّث أطرافها المصبوغة. لا يتفوّه بحرف. الكلام غير مباح وموسيقى رافي شنكار تملأ الغرفة. أنّات السيتار أكثر حسيّة من الكمان. ترفع صوت الأسطوانة عاليًا. تتحايل على السمع المعطوب. تترك نفسها له. يلحس قدميها بلسان النار. يمتصّ أصابعها واحدًا واحداً. بالترتيب أو لا على التعيين، بالفطرة والبعثرة.

ـ إبدأ بالصغير... بالصغير يا عطّاري...

العسل يصبغ حلمتيها. تغيب في غيمة وهّاجة. يتهدّج تنفّسها. تصعد حمّى إلى بطنها. يهتزّ كيانها. تشهق عميقًا وتخبو. تهمد مبلّلة بالعرق. ينسحب رافي شنكار ويهدأ المكان. تنام مُرتوية بالوهم. الشبح ولّى من المكان، والطاسة خاوية عند طرف السرير. تنتهي الليلة الخامسة والثلاثون وتأتي ليالٍ تالية. كلّما اشتاقت لحرف اللام، استحضرته فلبّى. تشعر بالامتنان لأشباحها الليلية الأخفّ من الرجال، الأوفى من يوسف.

نهضت ووقفت أمام المغسلة. ليس هذا وجهها الذي تراه في المرآة كلّ يوم. تعرفه وتكره عيوبه. هالات تحت العينين. خدّان يذبلان. تجعيدات صغيرة على الرقبة. وتلك الندبة العميقة أعلى



الحاجب الأيسر. ذكرى الأستاذ وتوقيعه السافر. وشمٌ لم تفلح في إزالته. لكنّ وجهها اليوم مختلف. جميل ومتورّد. إمرأة ريّا. راضية. تصبح حلوة في كلّ مرّة تستيقظ فيها من منامها السرّي، عائدة من نزهات الغيبوبة المجنونة. تخجل في صحوها أن تستعيد ما جرى. تعود إلى فراشها، وتسحب الشرشف فوق رأسها. تستتر من أحلامها.

الحاجة أمّ الاختراع. ليس غبيًّا من قال ذاك. وقد عذّبتها حاجتها حتّى وجدت بلسَمَها. درّبت خيالاتها مثلما تتدَرّب لاعبات الجمباز وبهلوانات السيرك. تمرّنت بدأب راقصات الباليه. يقفن على رؤوس أصابع أقدامهنّ. يسقطن ويعاودن الوقوف حتّى التوازن. يتقافزن بخفّة المُنتصر. مثلها عندما كانت صبيّة تمضي الساعات مُسندة ذقنها إلى الكمان. تداعب الأوتار فلا تستجيب. تعيد وتصرّ وتنجرح أناملها حتّى تقبض على النغمة الصح. الحاجة أمّ الاختراع. لكلّ محنة معزوفتها ولكلّ عُمر مُحترق مَرْهم. تقف على أصابع خيالها. تركب الفرس سماسم، وتنطلق خببًا نحو لذّة مستولدة. فارسة كما أراد لها أبوها. مات ولم يشهد كبوتها. خيّالة بدون خيّال.

وهذا الرجل ذو الاسم الغريب، أتّاريوالا، هو أسبرين سنواتها الأربعين. شبابها قحط منذ أن تركت بغداد. فقدت الأمل بدفء الحضن. لكنّها لا تحبّ الانضمام إلى جيش المُعقّدات نفسيًّا. لم تتعقّد بسبب تجربتها البائسة مع الأستاذ. ظلّت تهفو لكلّ قامة نابعة، وعينين تحملان كلامًا. لكنّها خافت أن تتخطّى حدودها. تربيتها شرقيّة، ومتعتها مُقيّدة. تسعى إليها وتفشل.



تستعيد عناقاتها القديمة المحمومة مع خطيبها، وتنكص في منتصف الطريق. صائمة دومًا وعلى جوع. نصف عمرها بدون رجل. هجرها من كانت تعيش بأنفاسه، وزهد بها قبل الوليمة. عارها يُذكّره بعاره. تفهمه وقد غفرت له. تحمُّل عارٍ نصف موت. أمّا تحمُّلَ عارَين، فموت ونصفُ موت.

يوم رأت الرجل الغامق يكنس ممرّات البناية، خافت منه. هيكل صلب يكسوه جلد قهوائيّ. شعره لامع كأنّه مدهون بكريز السيارات. أسود حدّ الزرقة. عيناه تشغلان نصف وجهه. واسعتان وعميقتان. تبرق في بياضهما جمرتان.

- أين حارسة العمارة؟

- في المستشفى. المسكينة كسرت حوضها.

- وأنت؟

- إسمي أتّاريوالا.

- هذا شلون ينحفظ؟

لم تتوقّع أنّه من بنغلاديش. لا تجيد التمييز بين شعوب تلك القارّة. هم إما هنود، إذا فاحت منهم رائحة بخور وكاري، أو صينيّون إذا كانت أعينهم مسحوبة. لا فرق بعد ذلك. البنغالي مثل الأفغانيّ والباكستانيّ والسيريلانكيّ. والفيتناميّ مثل الكمبوديّ والتايلنديّ وأهل لاوس. تصادف في المترو شابّة مشقوقة العينين تحمل حقيبة بعلامة فاخرة. تخمّن أنّها يابانيّة. تتصوّر أنّ الصينيّات لا يملكن ثمن الحقيبة. نظرة مُتخلّفة لا يعنيها أن تتحرّر منها. لا تفلح في أن تتحرّر من أيّ شيء.



قناعاتها جزء من تراثها. فولكلورها الذي تحبّ.

يلفت انتباهها الرجل ذو الجلد اللامع. العامل الطارئ على البناية. تراه لا يشبه المارتنيكي، الذي يدفع سرير مدام شامبيون في المستشفى. ولا الخيّاط الباكستانيّ الذي يتلاعب بالملابس القديمة فتعود جديدة. راقبته وهو يكنس البهو. يمدّ ذراع المكنسة الكهربائيّة ويُدنيها بهمّة. لا يقوّس ظهره مثلها عندما تكنس. برافو. لا يليق بآلهة الأبنوس أن تنحنيَ لأوساخ. منذ غابت حارسة البناية وهو حاضر في كلّ الأماكن. يمسح المرآة الكبيرة في المصعد. يلمّع المقبض المعدنيّ للبوابة. يُخرج حاويات القمامة في الخامسة مساءً. ممثّل أول لا بدّ أن يبقى على المسرح طوال العرض. تصادفه حين تعود من زيارة تاجي، أو حين تخرج إلى السينما. وحتّى عندما لا تراه، تشمّ رائحته فتعرف أنّه في الأرجاء. عَرَقُه الذي سيدخل أحلامها ويرشد شبقها. يُعيدها إلى حظيرة الجنس الجميل.

يا ألله! لكلّ محنة تدبير.

إحترق السمك في الفرن. غفت ولم تنتبه. شاطت الصينيّة وتسربت زناخة مقيتة إلى أنحاء شقّتها الصغيرة وإلى المبنى كلّه. جاء وقرع الجرس فلم تسمع. دقّ على الباب بقوّة وأيقظها من نومها. سارعت تطفئ النار، وتفتح نافذة المطبخ. دعته للدخول لكي يأخذ الصينيّة ويرميها خارجًا. تفحّمتْ ولم تعد تصلح لشيء. أعطته قفّازات الفرن لكي لا يحرق يديه. عاد إلى شقّتها وفتح نوافذ الصالة للتهوية. شغّل ساحبة الهواء. غاب دقائق وأتى بعود من خشب الصندل. أوقده بدون أن يطلب إذنها. غَرَزَه في



إناء نبتة الظلّ. لا يستعصي عليه أمر. يعود بالصينيّة وينقعها بالسائل المنظّف. يتصرّف وكأنّه في بيته. وينظّف جوف الفرن. يحكّ الصينية ويلمّعها. تهدأ شعلتا عينيه. يردّد بالفرنسيّة أنّ كلّ شيء على ما يرام. "سافا مدام... سافا".

المطبخ صغير يضيق بهما معًا. يحتكّ بها وهو يمرق نحو الثلّاجة. يفتحها ويقدّم إليها ماءً باردًا. يتناول القدح من على الرفّ ببساطة. يتحرّك الرجل المكّوك في فضاء مألوف ويعرف مواضع الأشياء. تمدّ يدها إلى حقيبتها وتسحب ورقة نقدية. يهزّ رأسه رافضًا ويضحك ضحكة طيبة. ترى أسنانًا ناصعة تنقصها واحدة في الطرف. كيف يبيّضها هكذا؟

ـ ماذا قلت لي اسمك؟

ـ أتّاريوالا، مدام.

ـ ميرسي مسيو أتّاري ... لن أتذكّر كلّ هذه الديباجة. سأسمّيك عطّاري.

ـ نو بروبلم، مدام.

يبدو سعيدًا وهو ينظّف جوف الفرن بالبخّاخ. مهمّة تكرهها وتتهرّب منها. يعتصر الإسفنجة في الحوض. تقترب لتفتح الحنفيّة. لا تشمّ رائحة عرقه. السمك المحترق غطّى عليها. وعبير عود الصندل. والمنظّفات. والشمعة التي تمتصّ الدخان. كلّ شيء يختلط بكلّ شيء. تفتح جارورًا وتمدّ له قفّازين من البلاستيك. يرفع كفّيه ويعرضهما أمّام عينيها. يعود للضحك. جلد مدبوغ اعتاد السوائل الكيمياوية. لا يتحسّس ويتقشّر مثل جلدها. ذراعها ناصعة وسمارها أبيض بجانب ذراعه. كلّ عيوبها



تتحسّن معه. شعرها الذي يزداد نظافة. عطرها الذي يفوح. بشرتها الملساء. أنوثتها المنسيّة. نظرتها المُستغربة ونظرته الواثقة. ينهي عمله ويتوقّف عند اللوحة في المدخل.

ـ مسجد؟

ـ هذه قباب بغداد وشناشيلها.

لن تشرح له ما هي الشناشيل. ليته يفهم لغتها لتقرأ عليه السيّاب وشناشيل ابنة الجلبي. تمشي، كلّ يوم، منذ وصلت هذا البلد، وهي تقرأ الوجوه الغريبة. تتمنّى لو صادقت عربيًّا. من تونس أو لبنان أو حتّى موريتانيا البعيدة. تلك التي يغبطها العراقيون لأنّها بلد المليون شاعر. ثلث الشعب يكتب الشعر وثلثان يضرسون. رأت شعراءهم وهم يحضرون مهرجان المربد. عزفتْ لهم مع الفرقة السمفونيّة وهم بملاحفهم الزرق. تتصوّر الناس هناك يصطادون القصائد من المحيط. يشوونها ويأكلونها. يتوضّأون بحراشفها ويصلّون فيتقبّل الله صلواتهم وأدعيتهم الموزونة المقفّاة. حكت لتاجي عنهم، لأنّها تحبّ الشعر، ولم تُصدّقها. قالت إنّ أهل شنقيط ليسوا أشعر من أهل العراق. يعجبني اسم شنقيط. أتخيّل الناس هناك يتشاتمون ويتعاشقون وينامون ويتغطّون بعباءة الفراهيدي. تعرفه باسمه الكامل. الخليل بن أحمد. درسته في المدرسة، لأنّه كان يحبّ الموسيقى، ومنها اهتدى إلى علم العروض. بحور الشعر موسيقى. وهي تكبر في البلد الغريب ولا تنسى دروسها.

تأخذ الخط الرقم ٢١ الذاهب إلى الأوبرا القديمة. تنقّلت كثيرًا وحفظت وجوه السائقين. الباص سيّارتها الخصوصيّة. تجلس في



مقعد مجاور للنافذة. تنظر إلى الفضاء الرمادي وتستدعي شموسها. موسيقاها الداخليّة وخيالاتها ورؤاها. كلّ يوم لها قصّة. ستحبّ جزائريًا. تعجبها الفكرة. ما أكثرهم هنا. يُرابط شباب عند أبواب العمارات. يرطنون بفرنسيّة مضخّمة. يُقسمون بين عبارة وأخرى: والله! تخرج من أفواههم: واللّاح. يجلس كهولهم على مصاطب الضجر في الساحات. جاؤوا فتيانًا من قرى بسكرة وجبال جرجرة وساحل عنّابة. عنّابة الوادعة التي زارتها في رحلة سياحية. سبحت في بحرها. قال لهم الدليل إن المستعمرين استأنّسوا فيها وسمّوها الطيّبة. "لا بون". فلّاحون جبليّون أشدّاء. إشتغلوا في تعمير مدن فرنسا ورصف شوارع باريس بالحجارة. شاخوا أمام المكائن في مصانع رينو. تزوّجوا نساءً من تلك القرى. يزورونهنّ في السنّة مرّة. يعودون من إجازة الصيف وقد أودعوا في الرحم جنينًا. كلّ إجازة بطفل.

في الحافلة، سيّارتها الخاصة ذات المقاعد الأربعين، من مكانها في الصفوف الأخيرة، تنساق وديان وراء استيهاماتها. تختار واحدًا من أولئك الجزائريّين القساة. لا تريده شابًا في أول الطلعة ولا عجوزًا. الأفضل أن يكون نصف عمر. ولا بأس أن يكون أصغر منها. ستدعوه إلى فردوسها وتسقيه ممّا يتساقى به أهل هذي البلاد. تمنحه الأمان وتتكلّم معه بلهجتها. وسيفهم ربع الكلام. وتتكفّل بأن تعلّمه الباقي. تطرد عن لسانه عُجمة المستعمر. حتّى لو كانت عجمة موسيقيّة. لغة جميلة تستخدمها في الشارع لكنها تجد صعوبة في قراءة الكتب بها. أعارتها تاجي "نجمة" وساعدتها على فهم ما يصعب عليها. لفت نظرها أنّ العنوان



مكتوب بالعربيّة على الغلاف. فتحت الكتاب وبحثت عن اسم الخطّاط. كان، يا للعجب، خطّاطة فرنسيّة تدعى بلونديـن. يوسف لم يكن يميل للكتب والمطالعة. إتهمها بأنّ القصص أفسدتها. هكذا يُسمّي الروايات. قصصًا تافهة علّمتها الرومانسيّة. تُصدّق ما يحدث في الأفلام وتداري دموعها في السينما. يتلفّظ بكلمة رومانسيّة بصوت خفيض وكأنّها شتيمة.

في أمسيات أشباحها الوسيمين، ستغنّي للعاشق الجزائريّ: "سَمَر سَمَر يا سَمَر منّك يغار القمر". يأخذها الطرب والحماسة وتجد الشجاعة للعودة إلى العزف. تشير إليه أن يقوم إلى الحقيبة السوداء. يفتحها فيسطع خشب الكمان. يقدّمه إليها ويقف قبالتها. لا يصبر عليها وهي تدوزن الأوتار. يتربّع على الأرض مثل بوذا. تنهض وتسند وجهها إلى آلتها وتعزف مقدّمة "لسّة فاكر". سيتعرّف على الأغنية وستفرح كثيرًا. لا يمكن أن تُغرم بمن لا يعرف أم كلثوم. لن تتنازل عن هذا الشرط حتّى في الأحلام. يهزّ الجزائري رأسه نشوة ويصاحبها بناي الخيال. يزحف إليها ويحتضن ساقيها. تدفع رأسها إلى الخلف فيزداد انتصاب قامتها. تمضي فتعزف "أيام زمان" لجميل بشير. يثمل حبيب الباص ٢١ بموسيقاها. تنحني بأناقة عند انتهاء العزف وتتداعى بين ذراعيه. تنام ليلتها وحيدة مع الشبح. كلّ عشّاقها هباء منثور. تستيقظ وتترجّل من الحافلة وهي مسرورة ومُتدفّقة. تستعدّ لتنميق حبّ جديد. تختاره مغربيًا أو من مصر. تُدرك أنّ أيّ رجل لن يترفّق بها كما تترفّق بنفسها. خيال خصب ميّال للتنويع في الغرام.

شناشيل. تعيدها على البنغلاديشيّ بالعربية. على مهل. مقطعًا



مقطعًا. تفترض فيه أن يفهم المعنى من موسيقى المفردة. شَ... نااااا... شييييييل بغداد. يلتقط أحرف المدينة. يعرف أنّها في العراق. يبشّ ويصيح:

ـ صدام حسين!

إسم يرهبها رغم المسافات. لم تتعلّم، بعد، كيف تنطقه بصوت صريح وبدون خوف. ترى البنغلاديشيّ يبتسم مسرورًا به. يرفع إصبعيه بعلامة النصر. لا تدري لماذا لم تَضقْ به. مكث عندها أكثر من اللازم. أول رجل ينزل من أوهام الباص ٢١ ويدخل شقّتها. أرادت أن تعدّ شايًا وتشربه معه وتراجعت. قليلون يدخلون بيتها. لم تطبخ طعامًا لضيف. لم تشرب قهوة الصباح مع بشر. تزور تاجي، وتاجي لا تزور أحدًا. لماذا كان على السمك أن يحترق؟ أيقظها عامل العمارة من سُباتها.

عطّاري. سمّيتك عطّاري. مثلما سمّى أبولينير الحريّة. عشقتْ خياله. خيالها. إستخدمته مجلّة بورنو. وسيلة إيضاح. ولم تكن تنوي أن تحبّه.

٢٦

لا جرح يداوي جرحًا. لكنّ قبسًا هناك يمكن أن يخفّف من عتمة مريرة هنا.

أحبّ منصور البادي باكستان قبل أن يطأ أرض مطارها. كانت سنة سبع وأربعين قد مرّت عليه مثل فأس ذات حدّين،



حفرت أخدودًا في رأسه. باكستان تتحرّر وتنتزع استقلالها، من جهة، وفلسطين تتقسّم ويتشرّد أهلها من جهة أخرى. سبقته عاطفته المشبوبة وهو في طريقه إلى كراتشي. يلاحظ ما تقع عليه عيناه في البلد الجديد، ويسجّل وقائع أيامه. الدفاتر صديقته الأكثر حميمية. بوصلته التي يضيع بدونها. مهما خسر ومهما كسب فإنه لن يخرج بأجمل من هذه الخاطرات. مدوّنات تعاند النسيان. تجعله يعايش اللحظة الواحدة أكثر من مرّة.

في أيامه الأولى في المدينة، ترك نفسه لأرجوحة الدهشة. قلمه يسيل بأسرع من أفكاره، ودورة دمه تسابق الحبر. إختبر موهبة الكاتب فيه. لو سارت الأمور كما يتمنّى فسيصبح أديبًا. يسعده أنّ تأخذ انطباعاته طريقها للنشر. يرسلها إلى صحف في بغداد أو بيروت وينتظر البريد.

في ربيع سنة خمسين، نشرت بيروت المساء مقالة لـ "المراسل المتجوّل" منصور البادي. "أسابيع في بلاد الهلال الفضّي". إستوحى العنوان من هلال خصيب كان يحرّك آمال الشباب العربيّ، يومذاك. قبل أنّ تتجمّع الغيوم وتبتلعه.

"للسحب الكثيفة الداكنة، وأنت تخترقها في أعالي الجو، سحر لا يُقاوم. ويمتزج هذا السحر بالدهشة والاستغراب عندما ترى هذه الغيوم وأنت تحلّق فوق بحر العرب في يوم من أيام صيف، تركتُ فيه مدينة تلتهب في أتّون تفاعلت فيه الشمس مع قوالب الثلج والمبّردات والمراوح. تحاول أن ترى الشمس لتعرف ما إذا كانت هذه المتوارية خجلًا من الغيوم هي التي كانت ترمقك، بلا هوادة، في المطار، لكنّ الطائرة الجبّارة التي تحملك ، تتّجه بك



إلى الجنوب الشرقيّ، مخلّفة الشمس في الغرب، أو في الغروب. ويأتي المساء ثمّ الظلام ثمّ العشاء. يمضي الوقت كما يمضي بكلّ مُسافر، سواء في قافلة بالصحراء، أم بطائرة كونستيلاشن تحمل ثلاثة وأربعين راكبًا غيرك. ثمّ ترى تحتك الأضواء الكشّافة والإشارات الحمر والخضر المُنبعثة من مطار كراتشي. وتحوم الطائرة قليلًا، ثمّ تحطّ في عاصمة باكستان.

كانت ساعتك تُشير إلى الثالثة لمّا بارحت بغداد. ولم تنفكّ تسير مع الزمن طيلة الساعات الستّ وأنتما في الجوّ. لكنّك مضطرّ إلى أن تقدّمها ساعتين ونصف ساعة، وأن تجعل وقتك الحادية عشرة والنصف ليلًا. فلا تكون بذلك قد قضيت أكثر من ثلاث ساعات بين غروب الشمس فوق بحر العرب، ومنتصف الليل في كراتشي. وتلاحظ، رغمًا عن تعبك وحاجتك إلى الراحة، أنّك في مطار كبير حديث مُجهّز بكلّ ما يلزم لاستقبال أكبر قاهرات الجوّ وتوديعها. وقد يراودك الكرى وأنت في أحد أقسام المطار، وترغب في تخطّي أيّ إجراء تستطيع تخطّيه، كما يحاول كلّ مُسافر يأمل أن ينجح في إقناع الموظّفين بسرعة تمشية جوازه. تقترب من أحد الموظفين وتبادره بالتحية التي أصبحت الرمز القومي للمسلمين في شبه القارّة الهنديّة ـ الباكستانيّة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

يعرف الموظف أنّك ضيف عربي، فيبذل كلّ ما في وسعه لتسهيل أمرك، ويقدّم إليك المقعد المُريح وزجاجة العصير، في الوقت الذي تنظر فيه إلى ما حولك بملء الإعجاب.



وينعكس الأمر وتتمنّى تأخيرك لكي تملأ عينيك بمشهد طالما تاقت إليه عين كلّ عربيّ، مشهد أبناء باكستان المُستقلّة يؤدّون واجبهم الرسميّ في مطار عاصمة باكستان، وتحت راية باكستان.

سرّ العَظَمة كثيرًا ما يكون في البساطة، حيث لا تُغني خلّب المظاهر عن سحر الجوهر. إنّ المنظر الذي طالعني في غرفة الجوازات بمطار كراتشي لم يكن سوى راية مثبّتة في الجدار وخارطة رسم. وخيّل إليّ أنّ ذلك الهلال المتقارب الطرفين، المُخيّم على كوكب مُخمّس فوق بساط من الخُضرة القاتمة إلى جانب خط عموديّ أبيض، لا يُمثّل علم باكستان الذي تراه مرفوعًا على سفاراتها ومفوّضياتها في الخارج فحسب، بل يرمز أيضًا إلى تراث شيّده الفاتحون المسلمون منذ ثلاثة عشر قرنًا، وبعثته النهضة الإسلامية الحاضرة في باكستان.

وأمّا في الجهة المقابلة من الجدار، فقد رأيت أبرز ما في الغرفة: مجرّد صورة كبيرة في إطار لرجل. والرجال تؤدّي أدوارها في التاريخ. فمنها من يؤسّس الإمبراطوريّات، ومنها من يُحطّم الممالك، ومنها من يبعثها. أمّا أن يأتي رجل ويقول لقومه إنّ خلاصكم في هذا الطريق، ويكون الطريق وعرًا غير مطروق، فيتبعوه بإخلاص إلى حيث الهدف والنصر، فأمر ندر أن يسبق له مثيل. وأندر من ذلك، ألّا يكاد الرجل يتمّ رسالته نحو بني قومه حتّى يتوفّاه الله. كأنّه وواجبه على موعد. وخلت كأنّني أقرأ هذا التاريخ وأنا أنظر إلى العينين اللتين تشعّان نبلًا وحزمًا، والجبهة



العالية الناطقة بالصفاء، والشفتين الدقيقتين المُعبّرتين عن أرقّ الإحساس والشعور. لقد كانت هذه تقاطيع وجه القائد المغفور له محمد علي جناح".

مشى منصور في شوارع كراتشي كما لم يمشِ في كلّ حياته السابقة. وكمدينة قفز سكانها من أربعمئة ألف إلى مليون وثلاثمئة في عامين من الزمن، لم يكن من السهل الجمع بين صفاتها الثلاث، الميناء الجميل، وعاصمة السند، ثمّ عاصمة باكستان. سار في شارع بندر الطويل، ورأى خطوط الحافلات الكهربائية، تزدحم حولها الدرّاجات والسيارات والعربات والركشو. يتّسع الشارع كلّما توغل فيه. ترتفع البنايات التجارية الضخمة من جهتيه. يتوجّه إلى اليمين، ويجد نفسه في السوق القديم. لولا أهرام الشطّة الحمراء لتوهّم أنّه في سوق الشورجة ببغداد، أو سوق الهال بالشام، أو ربما سوق النوريّة ببيروت.

سأل عن معنى باكستان، وعرف أنّه يعني بلاد الطهر والنقاء. أدرك أنّ الصحافة البيروتيّة تخطئ حين تسبق الاسم بأل التعريف. كانوا يترجمون عن الفرنسية. ذهب إلى دائرة البريد وأرسل خطابًا يطمئن فيه والدته وشقيقاته على سلامته. إشترى طابعًا أزرق بآنة ونصف آنة، ما يساوي قرشًا لبنانيًا، عليه صورة المجلس التأسيسيّ. نقل في مفكّرته ما كان مكتوبًا على الطابع: باكستان زنده باد: تحيا باكستان.



٢٧

ألله ما يقطع.

حكمة أثيرة من حِكَم أمّي. أشتاق إليها وأفكّر في أنّ الوطن يتجسّد فيها. أقلق عليها من الشحّ الذي تعيش فيه. صار دينار العراقيين ورقًا لا يصلح حتّى للفّ السكائر. تتسلّم تقاعد أبي الذي كان يسدّ بعض حاجتها، ثمّ ما عاد يشتري كيس بصل. أسألها في الهاتف عن أحوالها. تأبى كرامتها الشكوى. أقتصد ما أستطيع من مرتّبي، وأبعث لها بما يتيسّر.

كان من ألطاف الفرنسيّين أنّهم وجدوا لي وظيفة تناسبني. معلّمة لآلة الكمان في جمعيّة خيريّة. أتولّى تعليم الموسيقى لأطفال الضواحي. تلاميذ فقراء يلبسون أحذية رياضية مُقلّدة، ويسيرون وهم يرقصون على أنغام الراب. جاءتهم العدوى من شيكاغو. يحبّون الطبول والدرابك، ويسخرون من البيانو والفيولون. آلات برجوازية لا يتواءمون معها. صُنعت للحفلات التي ترتدي فيها النساء فساتين السواريه العارية الأكتاف والرجال بدلات السموكينغ. أمّهاتهم محجّبات يلبسن القفاطين، وأباؤهم يقتنون سراويلهم من أسواق الثياب المستعملة. أتحايل عليهم بالتسجيلات والصور لكي أسحبهم إلى جانبي:

ـ ماذا ترون في هذه الصور؟

ـ كمنجة كبيرة.

ـ صحيح، إسمها الفيولونسيل.

ـ لا مدام، هذه امرأة حامل.



مهمّتي كانت صعبة. معلّمة موسيقى نصف طرشاء. لكنّها الوظيفة التي سأعيش منها وأساعد والدتي، عدا ذلك، ما كنت راغبة في سماع أيّ خبر يأتي من ذلك البلد. هذا هو صَمَمي المُختار. ثمّ يأتي ما يشوّش اختياري. وحين تُعذّبني غربتي هنا، تعود بي أفكاري إلى أيام وادعة هناك. طفلة تتعلّم العزف، وتحدب على كمانها الصغير الأول، تخاف عليه من الهواء. جرو أليف في علبة سوداء. أرعاه وأُربّيه وأُطعمه بيدي. وكان، بدوره، يربّيني ويعبر بي نحو أحاسيس مراهقتي. كلّ عام من أعوام صباي معزوفة تختلف عمّا قبلها. إلى أن بلغنا مرحلة تداخلت فيها الألحان الشفّافة مع رشقات القذائف. نقذف صواريخنا على الإيرانيين، ويقذفون علينا صواريخهم. أدركت في سن مُبكّرة أنّ الحرب نشاز.

تفنّنت القريبات في النذور التي يسدّدنها عند انتهاء المحنة. بينهنّ من ستنزل بدون عباءتها لترقص في الشارع. من ستمشي حافية من الزعفرانيّة حتّى مرقد أبي حنيفة. من ستمتنع عن أكل التمر والدبس. وفي تلك الأيام سمعت بالإماتة للمرة الأولى ولم أستوعبها. قالتها جارتنا المسيحية التي نذرت أن تكتفي بالخبز الأسمر الناشف، الكَورك، مغمّسًا بالشاي، لأربعين أسبوعًا. كان زوجها في جبهة المحمّرة، واثنان من أشقائها كلٌ في جبهة مختلفة. فهمت أنّ الكلمة تعني إماتة الرغبات الدنيويّة والتزام الزهد. لكلّ واحدة من جاراتنا طريقتها في توصيل طلبها إلى السماء. أمّا أُمي، فلم تنذر نذرًا مؤجّلًا. كان أخي الأوسط تحت النار، وهي لن تنتظر غراب البين. تكفّلت بخدمة جندي من معارفنا فقد ساقيه



في معركة الشوش. ستنتهي الحرب وتبقى تسحل ذيولها وراءها. السحل عندنا وصمة.

ونحن في عتمة الملجأ، تهمس رفيقتي:

ـ هل أخوك شهيد؟

ـ لا، وأنتِ؟

ـ ليس بعد. ابن خالتي استشهد بس.

تنقضي الغارة ونعود إلى الصف. مدام يانا وكتاكيتها. نتسابق حتّى الطابق الثاني. أهرع إلى كماني وأرى عليه غبارًا حقيقيًا. أو من بنات أوهامي. أمسحه بخرقة ملساء، وأنشغل بتلميعه وإزالة الآثار عن خشبه وصمغ احتكاك الأوتار بالقوس. لا نتأخّر عن التمارين حتّى عندما تنقطع الكهرباء عن المدرسة والمنطقة كلّها. أمر سيصبح عاديًا في اللاحق من السنوات. ظلّت الكهرباء تُلاعبنا حتّى بعدما كبرتُ وصرتُ عازفة في الأوركسترا. أتمرّن مع زملائي في ساعات المساء. تُظلَم القاعة، فجأةً، ونحن في الرقصة الهنغاريّة الرقم خمسة لبرامز. نستمرّ ولا نتوقّف. نبتهج وتسمو أرواحنا حين نواصل العزف في العمى، ولو لنصف دقيقة، بدون أن نقرأ النوتة. نتوقّف ونتأفّف من غياب الكهرباء. نضع آلاتنا جانبًا، ونصفّق لأنفسنا. ننتهز الفرصة لنستريح. تتلاقى أكفّ المحبين تحت ستار العتمة. أيّ حياة كافرة كنت سأعيش لولا الموسيقى؟

ليس في فرقتنا السمفونيّة آلات كهربائية. ولا مكّبرات صوت. كانت الوتريّات البسيطة تناسبنا. بلد يبرمج الناس فيه مواعيدهم على مواقيت غياب الكهرباء وتشريفها. نعزف في قاعة مُصمّمة



خصّيصًا للموسيقى الحيّة. لا تُرجِع الصدى وتسمح بوصول الصوت إلى أبعد مقعد. يقف مغنّو الأوبّرا ويمدّون أصواتهم بدون ميكروفونات. حناجرهم أبواقهم. يصغي المستمعون بأناة وانتباه، ثمّ يصفّقون، سمعوا أو اشتبهوا.

وأنا صغيرة، كنت أتخيّل المغنّيات كائنات ذوات ألسنة لامتناهية. مثل أفاعي الكوبرا. تتمدّد وتستطيل لتدخل في تجاويف الآذان البعيدة. أحسد كُلّ ديفا على قامتها الممتلئة وصدرها العريض. تستطيع أن تدسّني في فردة سوتيانها، كما كانت أمّي تحفظ في صدرها جزدان نقودها. أنا لم أدسّ في صدريّتي سوى حشوات الإسفنج. أردت أن أكبر بسرعة، قبل أن يبتكروا "الواندر برا". حمّالات عجيبة مبطّنة من الجانبين، تحشر النهود وتدفعها نحو الأعلى. تقول لها كوني فتكون. ستروا على مثيلاتي من ذوات الصدور المُسطّحة. هذه الحيلة التجميليّة لم أفطن لها في بغداد. إكتشفتها حين جئت إلى فرنسا. بلد حلمت بالعيش فيه مثل كلّ فناني الكون. تمنيت لو جئته معافاة. ألتقط النأمة والهمسة. "كان أحلى همسة... لأحلى وردة... فاكرها لسه... زي النهارده...". ماذا أفعل بهذين النهدين هنا، ببطني وكتفيّ وساقيّ وعنقي؟ مدينة مدوزنة على مقام الجمال. لا حبّ لي فيها ولا رائحة حبيب. لولا تاجي لسقطت من الهامش دون أن ينتبه لي أحد.

في غرفتي، أتناول الكمان بعد هجران. أبحث عن لحن يوقظ روحي ويُسكّن رغباتي. أعزف أداجيو لألبينيوني. موسيقار مُترف من البندقيّة، أبى أن يرث تجارة الورق عن أبيه. صادق الأوتار



وتزوّج مغنيّة أوبّرا. مدّت مرغريتا شصّها ونَتَرَته إلى ميدانها. برز فيه وبرِع في التأليف بحيث أنّ باخ الرائع، ذلك المُنحدِر من عائلة ألمانيّة تتوارث الموسيقى، استعار ألحانًا من صاحب الأداجيو. أُراجع في رأسي مقطوعاته للبيانو، لكنّني أتعثّر وأتوقّف. خشيتُ أن أنسى ما تعلّمته في بغداد. أقول هذا لتلاميذي في نادي "إيفري" فيسخرون:

ـ بغداد فيها أوبّرا؟

ـ فيها كلّ شيء.

ـ ماذا فيها أكثر من باريس؟

ـ دجلة، ومليون نخلة، وأمّي.

أشتاق إليها. تبكي في الهاتف فتوجعني أذني. ألفلف كماني وأعيده إلى علبته. أدير المُسجّل وأستمع إلى فاتحة تشايكوفسكي المعروفة بـ ١٨١٢. تنتهي بطبول كالمدافع. عنف يناسب توتّري أكثر من نعومة ألبينيوني. أتذكّر أنّنا قدّمناها في مهرجان جرش. وشاركتنا العزف الفرقة السمفونيّة الأردنيّة، وفرقة موسيقى الجيش. وانضمّت إلينا أوركسترا جامعيّة من أميركا. ثلاثمئة عازفة وعازف على المسرح الجنوبيّ، تحفة من أيام الرومان، وأمامنا على المدرّجات أربعة آلاف مستمع، ترمي الإبرة فيرنّ صداها.

ألله ما يقطع. أبعدني عن أمّي وعوّضني بمدام شامبيون. تشيخ وأكبر معها. أُقارب الأربعين وتتجاوز الثمانين. عمر منفاها أكبر من عمري. هجرتْ كلّ منّا ماضيًا لم يتركها. عاشت تاجي بالحبّ، وأنا متُّ من دونه. قطبان سالب وموجب. نعيش هنا وتغافلنا أفكارنا وتعود بنا إلى هناك. أقول لها:



ـ يموت الديك وعينه بالمزبلة.

ـ إيّاكِ... ذاك البلد جنّة.

ـ في زمانك...

ـ زماني؟ أنا مثل كرة اليويو.

ـ ما دخلها بموضوعنا؟

ـ يرميني حبل مطّاط ثمّ يسحبني قبل أن أبوس أرض بغداد.

٢٨

لم يدرك، إلّا بعدما عاد إلى مبنى الإذاعة ووجد مكتبها نظيفًا، إنّ وجودها هو المكان.

المرأة هي روح المكان. ذرّة الملح التي تمنح الوجود مذاقه. تلك المرأة بالذات، مِس تاجي كما كان رئيس الدائرة يناديها. لم يجد صفة آنسة، من الأنس، تناسب فتاة مثلما تنطبق عليها. كان صوتها يرفرف في الأثير ويأتي إليه. لم يتوقّع أنّه سيحبّ صوتًا أكثر من تغريد أسمهان. ولا عينين أكثر من عينيها، لكنّ الخانم الصغيرة استولت عليه، و"القلب وما يريد".

ذلك المساء، لم يكن مضطرًا للعودة إلى المكتب. فهو أيضًا سيأخذ الطائرة في النهار التالي. يغادر المدينة التي جمعته بها. عاد من الميناء وسلك الشوارع نفسها. المقاهي التي لم تعرفه إلّا معها. دخل حانة يطفئ فيها عطشه. خمرة زادت من ضياعه.



سار إلى الإذاعة يحتمي بها من لهيب آب ورطوبة الشجن. يستقبله الحارس باستغراب. يسأله إن كان قد نسيَ شيئًا. يدخل مكتبه ويغلق الباب. المكتب نظيف أيضًا. سبق له أن ودّع مدير الإذاعة وداعًا باردًا وشكليًا. تمنّى له المدير حظًا سعيدًا. تمالك منصور نفسه لكي لا يبصق في وجهه. الإنسان السافل. بقرار إداريّ واحد أنهى خدماته وخدمات تاجي عبد الحميد. ومعهما اثنان من الزملاء المصريّين.

ـ غود لاك مستر البادي.

كلمات جاهزة تُقال في مواقف مُعلّبة. عاد ودخل الاستوديو المظلم. لم يشعل النور. أراد أن يتحسّس الميكروفون الذي قبضت عليه أصابعها النحيلة، والكرسي الذي احتضن جسدها. يمشي في الممرّ حزينًا، يوهم نفسه بأنّه يتنشّق بقايا رائحتها. يرى عرقها الذي يرسم دائرتين من البلل تحت إبطي قميصها. لعلّ شعرة طويلة تخلّفت عنها في المغسلة. أصداء ضحكتها. بعض روحها. ذلك الشعاع الذي جاء من بغداد وأضاء كراتشي. لم تخبُ شعلتها لعام ونصف عام. كأنّها قبستْ نارًا أزليّة من آبار الخير في تلك البلاد.

ما كان ممكنًا التزام الحياد مع مخلوقة مثلها. أحبّوها وأُعجبوا بعملها. إمتدحوها وضايقوها. حَنَوا عليها وتحرّشوا بها. غازلوها وشتموها. لم تحتمل كراتشي مهرجان تاجي. مثلما لم تحتمله بغداد. لا بدّ، معها، لكلّ الألعاب النارية من أن تنطلق، وللنوازع أن تنفلت. رأوها تشرب البيرة، تخرج إلى الحفلات، ترقص في نوادي الأجانب، ترتدي قبّعة بيضاء وفساتين بدون أكمام، تغطّي عينيها



بنظّارة سوداء، تناقش وتدافع عن آرائها، تنتقد ما لا يعجبها، تضحك ولا تخفي ضحكتها وراء يدها. عاشت أنوثتها كما تشتهي. فَرَس لا تنصاع لقانون الحظيرة. لكنّ حرّيتها أكبر من أن يحتويها البلد المحافظ. وحتّى غضنفر علي خان غسل يديه منها. وليس لها في كراتشي نوري باشا، يحميها ويُخرس الألسن الخبيثة.

في أحد دفاتره، وصف منصور لقاءهما بأسطر قليلة:

"وصلتُ إلى كراتشي في الرابع والعشرين من آب سنة تسع وأربعين. وفي اليوم الثاني لوصولي، نهار الخامس والعشرين، رأيتها وأنا ألتحق بالإذاعة العربية وأتعرّف على زملائي الذين سبقوني إليها. تاجي عبد المجيد. الصحافيّة نفسها التي سمعت عنها. كانوا يتحدّثون عن شابّة تحدّت زمانها. حرّة وجريئة. لم يكن اسمها الكامل شائعًا. تاج الملوك. حطّ على سمعي مثل مطلع لقصيدة يمكنني أن أرتجلها للتوّ. رأيتها أمامي فاتّسع الأفق. جذبتني بقدرة قادر منذ المصافحة الأولى".

كان بريء الطويّة. وجدها المرأة التي تليق بالنهضة العربيّة التي يتمنّاها. نموذج الفتاة التي يجب أن تأخذ فرصتها في المجتمعات الإسلاميّة. في سوريا ومصر ولبنان، وطبعًا العراق. رأى في تلك البلاد من النساء من تنتزع حقّها في العيش. وجاءت تاجي تطبيقًا عمليًا لأفكاره. متعلّمة. مليحة. واثقة بنفسها. تتصرّف بتلقائيّة. تبرهن أنّ العراق سائر على الطريق الصح. تختلف عن تلك المرأة التي كانت له معها علاقة خاطفة في بغداد. سيّدة ترتدي العباءة. تلوذ بالأكاذيب لكي تجتمع به. إلتقاها مرّتين لا ثالثة لهما.



أطلق منصور لمدوّناته العنان. يكتب قبل النوم وبعد الصحو. يخاف أن يفوته شيء من إحساس جديد عليه، قرأ عنه كثيرًا ولم تلسعه ناره:

"كنت معها مثل كوكبين مُتحرّرين من جاذبية الأرض. لنا أن نرسم شكل العلاقة التي نريد. لا أحد يدخل على الخط لكي يُعلّق أو يتفلسف. الرأي رأيها. الصحافيّة الجريئة المُجرّبة. وأنا الأديب الناشئ الذي يُتابع ويتعلّم. تطوّرت صداقتنا كسمفونيّة ذات حركات متتابعة ومتصاعدة. ثمّ عرفتُ أنّ حكاية ارتياد فضاء الحرية والإفلات من الجاذبية كانت محض أوهام. ومثل غربان خفيّة تتحيّن الفرص للانقضاض، تدّخلت المفاهيم المتوارثة لتطيح حلمي الجميل. كنت أعمى حين لم ألحظ نظرات الآخرين لنا، لم أحسّ أنّ سفور زميلتنا العراقية يستفزّ رئيس الإذاعة، وأنّ تباسطها معي وصدّها له يوغران صدره. ذهب واشتكاها عند جماعته في الحكومة. سافرة ومُنطلقة. مستهترة ترقص في الحفلات. عابثة بالأصول والتقاليد. تركب الدّراجة بالبنطلون القصير. تحاجج الرجال في قضايا العالم بدل أن تجلس في بيت تخدم أحدهم وتربّي أطفالًا. استمعوا إليه وهزّوا الرؤوس ومسّدوا اللحى. أصدروا الحكم بإبعاد الإعصار تاجي عن أراضيهم.

وجدت نفسي أتحوّل من الصديق الصغير المُعجب، إلى الرجل الشهم حامي الحمى. كنت سليل عائلة تقليدية وعصريّة في آن واحد. لي شقيقات أربع أغار عليهنّ. أعتبر المحافظة على سمعتهنّ وراحتهنّ في رأس واجباتي. إنّ تاجي من أهلي. هاشميّة الهوى مثلي. لن أسمح لأي كان بأن يتطاول عليها. شابّ مغوار.



هكذا كانت حالي يوم احتفل العالم بانتصاف القرن العشرين. حلّت السنة الجديدة وأنا محموم مهموم أفكّر في أنّ تعاقدي مع الإذاعة قد وصل إلى المنتصف. ولي شكوك في أنّه يمكن أن يتجدّد. وبحسب العقلية الشرقيّة، أصبح من الوارد أن يظنّ البعض أنّ بيني وبين الآنسة تاجي تفاهمًا خفيًّا وعلاقة نتستّر عليها. ما دَخل هذا الفلسطينيّ لكي ينصب نفسه محاميًا لها؟

حتّى تلك اللحظة، لم أكن قد فكّرت فيها بما هو أكثر من الودّ اللطيف. نوع من سذاجة قرويّة ترسم لنفسها حدودًا معيّنة. وحتّى أثناء دراستي في بريطانيا لم أتجاوز تلك الحدود. مثاليّ؟ ربما. سأكون مسؤولًا عن سلامتها حتّى تنتهي إقامتها في البلد الغريب، وتعود إلى أهلها. إمتشقت سيف فارس من فرسان الملك آرثر، أيام العصور الوسطى، للذود عن زميلتي العراقيّة، لكنّ أحاسيس جديدة دبّت فيّ نحوها. أكتب دبّت لأنّ ما اعتراني كان يشبه دبيب النمل. تقوده إشارة ما فيجمع جحافله ويتسلّق الجدار المؤدّي إلى الرفّ، حيث خابية العسل. قادتني الغريزة إلى تفّاحة ملساء. لم أعد قانعًا بصداقتها ولطافتها. ليست أختي لكي أصونها وأسهر على عفافها. سمراء جذّابة تضجّ بالحياة. أندفع إليها ثمّ أمسك نفسي. أفكّر فيها طويلًا، ويُحزنني أنّ حياتها لا تنسجم مع حياتي، في تلك الآونة على الأقلّ. بعد ذلك، لكلّ حادث حديث".

ذات ليلة ربيعيّة، في غرفته التي يسمّيها المحراب، وهو يستمع إلى سمفونيّة كورساكوف، رآها بعين الخيال، فجأة، عارية أمامه.



ـ أستغفر الله!

لعن الشيطان وشتم أخت كورساكوف. قام وتوضّأ رغم أنّه لم يكن يصلّي بانتظام. إستعاذ بالله كمن ارتكب معصية كبرى. قرّر أن يطرد خيالاته الشريرة عنه. نزل إلى المدينة وتفرّج على أضواء كراتشي. إندسّ بين العشرات من أصحاب الأثواب والسراويل البيضاء. بحث عن سينما تعرض فيلمًا أميركيًّا. كلّ الأفلام هنديّة. حاول أن يغسل عريها من عينيه، لكن الفأس كانت قد وقعت في الرأس. أصبح مربوط اليدين. هي الشمس وهو كوكب يدور في فلكها. أسيرُها الذي لا يُقيّده قيد. يتمزّق بين توقه إليها، والواجب الذي ينتظره في لبنان. والدة خرجت مفزوعة من بيتها في القدس تتعلّق أربع صغيرات بأذيال ثوبها. وأب تتقاذفه الهواجس. يدير إذاعة أردنيّة في رام الله. مفجوع بضياع مكتبته. والابن الوحيد، ما شاء الله، بعيد في إذاعة باكستانيّة.

لا فسحة للتردّد. كان على منصور، وهو في غضاضته، أن يعمل لكي تكمل البنات دراستهنّ. الوقت ليس أوان حبّ. سيجد سلواه في الموسيقى وقصائد الشعراء. يتبعهم غاويًا ويتعجّب كيف سبقوه إلى التعبير عمّا يشتعل في دمه. كأنّهم عرفوا تاج الملوك والتقوها قبله. تَيَمَّمها. هذه هي المفردة التي تلحّ عليه. كما كان جدّه ينقل عن مالك بن مُلاعب:

"يمَّمْتُهُ الرُمحَ صدرًا ثمّ قلت له

هذي المروءة لا لِعْب الزحاليق".

تاه بين محفوظاته. لم يعرف إن كان استشهاده بتلك الأبيات صحيحًا أم جعجعة، لكنّ واجباته تجاه العائلة لم تكن هيامًا في



الأودية ولا ترّهات. لن يبقى المذيع الشهم العنيد الذي تُكتب عنه التقارير. آفة مُتأصّلة في نفوس العرب. تفجَّر الخلاف بينه وبين مدير الإذاعة. تلاسنا ولم يخرجا عن حدود الأدب. من جهته على الأقلّ. وتلقّى المسؤولون في كراتشي تقريرًا ضد منصور البادي. يؤكّد أنّه "تابع للملك عبد الله" . وشايةٌ ضَحِكَ لتهافتها. تألّم من خبث كاتبها. فيومذاك، كان عبدالله بن الحسين على خصام مع الحكومة الباكستانيّة. كيف لا يعشق تاج الملوك وهي تحتفظ بصور تجمعها مع ملك الأردن؟ لو لم يرَ الصور بعينيه لما صدّق أنّها يمكن أن تصل تلك المواصيل. ترتدي قبّعة واسعة الهالة وقفّازين. تخلع الأيمن، وتنحني انحناءة خفيفة وهي تصافحه. حاجباه كثّان وقامته أقصر من قامتها. يرتدي جبّة مفتوحة من أمام وعمامة بيضاء. الله يا زمان الرضا في بغداد!

مع انتهاء عقديهما، في أواخر آب سنة خمسين، تلقّى كلّ منهما رسالة تفيد بالاستغناء عن خدماته. ووصلت رسالة مماثلة إلى الزميلين المصريّين تهامي الأباصيري وأمين صفوت. هذان قصة أخرى. ذهب لوداعها في الميناء وهو لا يصدّق أنّها راحلة. والتقط لها صورة وهي تتّكئ على سياج الباخرة. حافظ على الفيلم وتمسّك بالكوداك ١٢٠. كاميرا أثريّة كان أبوه قد اقتناها من بور سعيد، سنة ستّ وعشرين، وهو في طريقه للحجّ من القدس إلى مكّة، عبر ميناء جدّة. أنقذ منصور تلك الكاميرا عندما استباح اليهود بيتهم. غالبًا ما كان يعلّقها متدلّية على صدره. لصق قلبه. كأنّه ينقذ صندوق ذاكرته. إحتفظ بها في مراحل تالية من عمره، وصولًا إلى سنواته في فنزويلا. شاخ وما زالت عنده، هناك في



كاراكاس، مع علبة المفكّرات واليوميّات. بهت لون غطائها وصَدِئ معدنها. تُحادثه كلّما فكّ عنها جلدها ولامس حديدها. يسائلها ويسمعها تجيب. تحفظ أسراره ولا تبوح. وفي مرّة أو مرّتين، ذاقت ملح دموعه.

كأنّ للأشياء العزيزة أرواحًا مثل بني البشر.

٢٩

الآن تعرف لماذا يسمّون النسيم اللطيف عليلًا.

كانت عليلة وهي تتشبّث بسياج الباخرة داريا، ذلك الثلاثاء من أواخر آب سنة خمسين. نسائم خفيفة تناغش شعرها، وصورة الميناء تشحب في البعيد. أحسّت أنّها ضئيلة وعلى ضعف وضياع. شعور لم تعرفه في أقسى أوقاتها. ريشة في المهبّ. تحملها الريح من كراتشي إلى إيران. ستلاقي أمّها هناك، وتحاول أن تتدبّر أمرها. ترمّلت زينة السادات وعادت إلى طهران. ذاك وطنها، هي أيضًا، ومسقط رأسها، لكنّه البلد الغريب الذي لا تعرف. ستبقى ملامح منصور ماثلة في عينيها وهو يودّعها على الرصيف. حمل معها حقيبتها المثقلة بالكتب والأسطوانات. ثيابها قليلة وأهواؤها كثيرة. إلتقط لها صورة وابتسمت له بوهن. شعرت أنّه يضع الكاميرا على عينيه لإخفاء احتقان ما.

سافرت قبل أن يلتثما على قبلة. تذهب للعشاء معه في مطعم شعبيّ، أو إلى ناد للأجانب مساء السبت. يمضيان الوقت في



أحاديث سياسيّة أو فنيّة عابرة. كأنّها مع صديقة من صديقاتها. نظراته بريئة وهي لا تحبّ الأبرياء. الذئاب أكثر جاذبية من الحملان. تدبّرت أمرها مع المدير لكي تعيدهم سيّارة الإذاعة إلى بيوتهم في المساء. بيتها هو الأقرب، لكنّها تطلب من السائق أن يوصل الآخرين. تجلس بجانب زميلها الصغير وتترك ذراعها تمسّ ذراعه، عَرَضًا. يضبّ نفسه في المقعد لئلّا يزعجها في جلستها. يعاملها باحترام قاتل، بانبهار يقترب من التقديس. والقدّيسة اللعوب في داخلها لم تحسم أمرها. لا تعرف ما تريد منه. تميل له ولا تريد لهواها أن يفرُط مكوّناته. تتجاهل وجيب قلبه. كتب لها، فيما بعد، أشواقه. صارحها في الرسائل بأنّها ستبقى سبب وجوده. يريد أن يستقرّ في أيّ شبر من هذا العالم لكي يرسل إليها فتلاقيه. سيعيشان معًا حتّى النَفَس الأخير. آخر نَفَس؟ تقرأ وتغرق في الضحك. لا يعرف أحد متى ستنقطع أنفاسه.

رست الباخرة في ميناء خرمشهر. كانت قد خطّطت لأن تأخذ القطار إلى طهران. لم تلتزم تاجي، يومًا، بمُخطّط ولم تتمسّك بقرار. هي بنت لحظتها. تتبع رغباتها ومن بعد رغباتها الطوفان. وجدت في عبادان، المدينة القريبة، مجتمعًا ما كانت تتوقّعه. هناك تقيم قريبتها سرور. وكان زوج سرور ينتظرها في خرمشاه. يُسمّيها خرمشاه، وتُسمّيها المُحمّرة. قبل سفرها، جاء منصور بأطلس الخرائط، وعرض عليها خطّ رحلتها. بحث في الإنسيكلوبيديا بريتانيكا، وقال لها إنّ المحمّرة مدينة من عصر الإسكندر الأكبر، القائد الذي غزا المنطقة قبل الميلاد. أهداها كتابًا عن تاريخ المنطقة، تتسلّى بمطالعته في الباخرة. ينشطر



قلبها شطرين متعاكسين وهي تقرأ أنّ العرب والفرس يتنازعان المدينة منذ مئتي عام. تقلّب عليها الغزاة والفاتحون واتخذت أسماء عديدة. كانت، في إحدى فتراتها، عاصمة لمملكة ميسان العربية وفي فترة حديثة حكمها الشيخ خزعل. إسم ليس غريبًا عليها. روى لها نوري باشا كيف أطاح الشاه رضا بهلوي أمير المحمّرة العربيّ، وسجنه في طهران. مات غيلة سنة ستّ وثلاثين، ودفن في النجف. وبعد سنة تغيّر اسم المدينة إلى خرمشهر. يلفظونها خُرمْشاه.

رأت شطّ العرب يبين من الضفاف. وتلك هي، وراء الماء، أضواء البصرة. دمها يحنّ للعراق ولأحبابها هناك. وعقلها يوجّهها للبقاء بجانب أمّها المريضة. أمّا قلبها، صاحب الكلمة الأخيرة في قراراتها، فلا يريد سوى أن يمرح على شواطئ تفوح بروائح النفط والجُمّار والزعفران. بيوت عبادان جميلة. طابعها غربيّ. يعيش فيها خبراء أجانب ومهندسون إيرانيّون تلقّوا تعليمهم في الخارج ويرطنون مثل الأجانب. أحبّت أن ترطن معهم بالانكليزيّة. أمّا حين تقرّر أن تلعب ورقتها الكبيرة، وتخطف الأنظار، فإنها تلقي بفارسيّة مُطهمّة مقاطع من شعر عمر الخيّام. كان السيد عبد المجيد بارعًا في اللغتين. تنتقل إلى مِكَرٍ مِفَرٍ مُقبلٍ مُدْبِرٍ معًا، بعربيّة صافية فيدوخ سامعوها. صارحها منصور، ذات يوم، بأنّه أسير فصاحتها. وحتّى الأمير عبد الإله، لَفَتَتْه تعابيرها الرفيعة.

ـ من أين لكِ هذا اللسان؟

ـ من زوج أمّي. هذي حَسَنَته الوحيدة.

كانت للوصيّ لهجة بدوّية، مع طلاوة في الكلام. حجازيّ



مُدلّل وابن ملوك. أراد أن يكون ملكًا على سوريا، لكنّها استعصت عليه. إصطادها ومال إليها ولم يمضِ معها بعيدًا. قرأت أنّه تزوّج مرّة أخرى، ولم تعرف الكثير من أخباره. أمّا نوري باشا، فقد ترك نكرانه لها ندبة في ضميرها. الذنب ذنبها. هي التي انقلبت عليه. تمنّت لو تقذف بذاكرتها في الخليج. لا تعرف كيف تتخلّص من أسمائهم وصورهم وهيلمانهم. تتّخذ قرار النسيان فتتذكّر أكثر. يُسعدها التقرير الذي نشرته الصحف المحلية عن مجيء الآنسة تاجي عبد المجيد، الصحافية ومقدّمة البرامج في إذاعة كراتشي، إلى عبادان. قد يصل الخبر إلى معارفها في بغداد... والقنطرة بعيدة.

أقامت لها سرور حفلة على شرفها. دعا زوجها خليطًا من زملائه ونسائهم. أخيرًا ارتدت تاجي فستان السهرة الأخضر. لن يخطر على بال أحد أنّ نوري السعيد هو من دفع أجرة الخيّاطة. مدّوا مواقد الشواء في الحديقة. شرب الجميع ورقصوا التشارلستن والتشا تشا والبوغي ووغي. كانت سرور سعيدة وهي تستضيف صحافية معروفة من قريباتها، تنشر الجرائد أخبارها، لكن سرعان ما بدأ الضيق يظهر على ملامحها. سرور الجميلة على نحو صاعق، ببياضها البلّوريّ وشعرها الكثيف الحالك السواد، لم تعد تحتمل الحضور الطاغي لتاجي. ألحّت عليها بضرورة الاستعجال في السفر إلى طهران.

ـ والدتك مريضة وعليك رعايتها.

ـ لا تخافي على زوجك منّي يا سرور.

خافت كلّ الزوجات على أزواجهنّ. لكنّ مفتاحًا وحيدًا دار في



قفلها. رجل لا يشبه من عرفت من قبل. أمير صُعلوك مُشاغب قدّيس كافر. خلطة تشبهها. عشب جَهَنّميّ مختلف يناسب نبتة مختلفة. كان من معارف سرور. جاءت به قريبتها، ذات يوم، تسحبه من يده:

ـ هذا فرهاد... طلب أنّ يتعرّف عليك.

ـ أليس له لسان ليكلّمني بدون ترجمان؟

تطوّرت معرفتهما بسرعة وبدون محاذير. دعاها بعد يومين لقضاء أمسية خاصة. سَرَت بينهما، منذ اللقاء الأول، كهرباء خفيّة. لقبه يشير إلى أنّه من القاجار.

ـ هل صحيح أنّك أمير؟

ـ الأمير هو من يأمر. وأنا لا أمرَ لي.

أخبرتها سرور أنّه من سلالة السلطان فاتح علي شاه. أجداده حكموا فارس قبل سنوات ليست بعيدة. أطاح بهم رئيس الوزراء رضا خان بهلوي مثلما أطاح بشيخ المُحمّرة. نصّب نفسه شاهًا. لا تعرف هل تصدّق ما يُروى عنه أم أنّها هلوسات سكارى. يتكلّم فرهاد انكليزيّة رفيعة. كأنّه لورد من أكسفورد. نصبت له فخّها الأثير. راوغته بأبيات لسعدي مترجمة إلى العربية:

"تعذّر صمتُ الواجدين فصاحوا

ومن صاح وجدًا ما عليه جناحُ

أسرّوا حديثَ العشقِ ما أمكن التّقى

وإن غلَبَ الشوقُ الشديدُ فباحوا".

جاراها بإعادة المقطع ذاته بالفارسيّة وصحّح لها. تفوّق عليها



في ملعبها، قدس أقداس غوايتها. يرتادان السهرات ويغلبها حتّى في الفالس. أمْلود مِطْواع رشيق الخطوات. تقف النساء في الصفّ ينتظرن دورهنّ للرقص معه. لم تجد ما تنتقم به منه سوى صوتها. تغنّي في الحفلات مع بعض العازفين. تتنزّه حنجرتها بخفّة بين اللغات. سيناترا وبياف وزكية جورج. صوتها حارّ عذب. لا يملك الأمير سليل المخاليع سوى الإقرار بحلاوته:

- يمكنك أن تصبحي مغنّية مشهورة.

- إذا قدّمتني لشركة أسطوانات.

ذهب إلى بيت سرور وأخذها بسيّارته المكشوفة. لم تكن الأمسية الخاصّة سوى سهرة في منزل صديق له. فتح الباب بمفتاح في جيبه ودخلا. لم يكن هناك غيرهما. شربا وتحدّثا عنها وعنه. عرفت أن لا زوجة له فارتاحت. قال لها إنّه لا يحبّ العيش في طهران. يضيق بها. لا يحتمل صور رضا بهلوي في كلّ مكان. الرجل الذي سلبهم عرشهم. يهرب إلى عبادان ويسلّي نفسه بحفلات الجاليات الأجنبية. إنكليز على فرنسيّين على هنود. يرقص ويغرق في الجن تونيك. يفكّر في ترك البلد كلّه. يريد الاستقرار في فلوريدا. كلّما سمع صفير باخرة تمنّى لو كان من بحّارتها، أمير مُشرّد يندسّ بين صناديق حمولتها. قالت له إنّها تخطّط للذهاب إلى نيويورك. ستكون مُراسلة لصحيفة عراقيّة من الأمم المتحدة. لم تكن تكذب بقدر ما كانت تتمنّى. كتبت رسالة للسمعاني، صاحب مطبعة الزمان في بغداد، ووعدها بتدبير سفرها إلى أميركا.

ينتهي الحديث ويضمّها إليه. يقبّل كتفها التي تهدّل عنها الفستان. لا تدفعه عنها، تمدّ يديها تُجرّدانه من أناقته. قميص



الحرير الشَعريّ، حذاء من جلد التمساح، ساعة سويسرية. يتساوى البشر عندما يخلعون ثيابهم. تفحصّته عاريًا ولم تصدّه كعادتها مع الرجال. إلتفتتْ وأطفأت مصباح السرير. مضتْ في غوايتها تتفنّن فيها. إحتضنها واخترقها على حين غِرّة. سريع مثل طلقة جنديّ سكران. ألمها يزيد من إثارتها، انبثقت نافورته دافئة في جوفها. متواليات من وجع ولذّة. تعرّقت وتدفّقت فيها الحمّى. تجاوبت معه حتّى احتضار العاصفة. أسندت رأسها إلى صدره وهدأ تنفّسها. رفعت إليه، في غسق المتعة، عينين ممتنّتين. مرّت بإصبعها على وجنتيه العاليتين وعظمة أنفه. داعبت شاربيه وحكّت راحة كفّها بلحيته النابتة. ليفة خشنة تصلح للحمّام. ضحكت ودندنت أغنية تحبّها:

- وَسْوَسْ لك النمّام وابعدك عني...

- مَنْ هذي؟

- الهَوَزْوَزْ!

- مَنْ؟

- ألا تعرف منيرة الهَوَزْوَز...؟

تضحك عليه وعلى نفسها. تمنعه من إشعال النور. سعيدة في العتمة ودبق الرطوبة. إسترخاء تمنّته موتًا. ليت ملاك الفناء يجيء في عذوبة تلك اللحظة. لأوّل مرّة تستسلم بالكامل. تتحسّس صدر الراقد بجانبها، يدخّن سيكارة غريبة العبق. تمرّ بأصابعها على أثر لجرح مستطيل. تهبط حتّى نهايته، تصل إلى نتوء بارز تحاذيه حفرة غائرة. تتلمّس شيئًا لا يشبه سُرر البشر. تجسّ الناتئ والغائر وتعطف عليهما. تميل وتقبّلهما وتدور



حولهما بلسانها. تستحضر طعم البرتقال أبو صُرّة. كانت صناديقه تأتي إلى بغداد من حيفا. تهمّ أن تنهض وتنير المصباح لكي تتأكّد ممّا هجست به أناملها. يستبقيها ويشدّ ذراعها:

ـ لا تقومي. لي سرّتان لأنّني ابن بطنين!

تحبّ فيه دعابته وشيطنته. يصلح مؤلّفًا لروايات بوليسيّة. قشعريرة رعب تختم ليلة حب. ينام معها ويُدخّن الحشيش. يرفع ساقيه يسندهما إلى الحائط المجاور للسرير. يوقد عود كبريت ويتطلّع إليها ويهزّ رأسه مُستغربًا. يتظاهر بأنّه لا يعرفها. لا تسمح العتمة بتمييز الملامح. نالها وانتهت اللعبة. ووجوه النساء سيّان. تستلقي بين ذراعي مُحتال يقصد العبارة وعكسها، عابث مُدهش مخلوق بسُرّتين. يخترع قصّة غريبة ويحاول أن يُقنعنها بها. نزل إلى الدنيا من رحمين متّصلين لتوأم سياميّ مؤنّث. وهي لا تعرف من السياميّات سوى القطط. يحكي عن شابّتين تعملان في سيرك جاء من الهند. لهما رأسان منفصلان وجسدان ملتحمان. كانتا تقفان بذلك الجسم الغريب متوازنتين على ظهر فيل يدور في الحلبة.

ـ ماذا حدث؟

ـ ضاجعهما أبي بعد قنينة فودكا مغشوشة.

ـ أقصد كيف ...؟

ـ مثل كلّ الناس... من الفرج.

لفرهاد طريقة غريبة في الضحك. يقهقه مُغرغرًا مثل ديك روميّ. تتحرّك تفّاحة آدم لديه صعودًا ونزولًا. يشدّها إليه من شعرها. يمسح أنفه بأنفها. تملّصت وقامت تسوّي ثيابها. سمعت



تخاريفه وعرفت أنّه مخلوق للعبث. مقامر رفيع الثقافة حلو اللسان. لن تتمكّن من حبسه في قمقمها، لكنّه يستحقّ المحاولة. طلبت منه أن يعيدها إلى بيت سرور. ليلة لم تنم فيها. تتثاءب وتطبق جفنيها ولا تغفو. الفجر قريب. تشعل النور وتجلس لتكتب لمنصور. جاءتها رسالة منه وتأخّرت في الرد. فكرها مضطرب ولا تعرف ما تقول. تدور حول الكلمات. تخبره أنّها اتفقت مع صاحب الزمان لكي تكون مراسلة في نيويورك. أميركا حلم وستتعلّم أحابيل الصحافة الحقّة هناك. ثمّ كان لا بدّ وأن تصل إلى النقطة الحاسمة. تكشف عمّا في بالها. صارحته بأنّها تعرّفت إلى رجل من بلاد أمّها وأبيها. أغرمت به من النظرة الأولى. حبّ ولد بين نهارين وليلة ولا تعرف كم سيدوم. أنهت الرسالة: "أعرف أنّك ستفهمني يا صغيري".

٣٠

في البلاد السعيدة بانقلاباتها العسكريّة، تتراوح مصائر الحكّام ما بين منصّة الإعدام وكرسيّ الرئاسة.

جلس هوغو شافيز على دكّة في الباحة أمام العنابر. نسمة نقيّة ونصف سيكارة محفوظ من فسحة اليوم السابق. يبدو سجن "سان فرانسيسكو دي يار" قلعة من الخارج، وهو ليس أكثر من علبة سردين في أعين نزلائه. شيّدوه في ولاية ميراندا ليستقبل بضعة آلاف من المساجين. حشروا فيه خمسة وأربعين ألفًا. آخرهم



ضبّاط قادوا انقلابًا على الرئيس كارلوس أندرس بيريز. الباحة مزدحمة لا تسمح بممارسة الهرولة ولا لعب الكرة. نضبت النقاشات السياسيّة. القراءة هي التسلية الوحيدة. يستعير شافيز كتابًا من سجين ثان. يقرأ العنوان واسم المؤلّف: منصور البادي. يستغرب الاسم. من الطارئ الذي يكتب عن زعيم القارة اللاتينية بلغة أبنائها؟

لم يضع منصور قدمًا في سجن "يار"، لكنّ اسمه تردّد بين اثنين من أبرز السجناء: بيدرو آرياس، تلميذه السابق في الجامعة، وهوغو شافيز، زعيم الانقلاب العسكري. جرذ من جرذان الكتب. يطلبها من خارج السجن، يقرضها ويهضمها ويتعلّم منها. كان شاكرًا لرفيقه آرياس، الذي قدّم إليه نسخته الخاصّة من الكتاب. سأله من يكون البروفيسور البادي، هذا الأجنبيّ الذي استبطن بوليفار مثل أهله، بل تفوّق عليهم حين منحه جناحين للتحليق خارج الحدود.

بوليفار. سيمون خوسيه أنطونيو دولاسانتيسيما. كلمة سرّ القلوب في القارّة اللاتينية. القائد الذي حرّرها من الاستعمار الإسباني في القرن التاسع عشر. غاب ولم يأفل. حاضر في كلّ مكان. تتسمّى باسمه المدارس والمطارات والجامعات والجسور. لا في فنزويلا وحدها، حيث ولد، وإنما أيضًا في بيرو وبوليفيا وكوبا وكولومبيا وبنما وتشيلي وإكوادور. لمّا ظهر عبد الناصر في مصر، ولمع اسمه مشرقًا ومغربًا، توسّم فيه منصور البادي بوليفارًا عربيًّا. هذا هو الزعيم الذي سيحقّق أماني التحرّر والوحدة. للشباب دائمًا طيشه الفتّان، للنفوس آمالها العريضة، وللخيبة



سريرها الذي ترقد فيه على رجاء ألّا تتكرّر.

لم يقطع آرياس علاقته بالبروفيسور البادي، أستاذه في جامعة كاراكاس. بهره الأفق الواسع للرجل الآتي من بلاد العرب. خبير يفهم أسرار العلاقات المُعقّدة بين الشرق والغرب. الشمال والجنوب. ليته يستطيع أن يكون مثله. يربّي شابّات وشبّانًا مُتفتّحين وثوريّين. لكنّه تخرّج ولم يجد عملًا. دخل الجيش وحمل رتبة مُلازم. يتنقّل حسب تنسيبه بين الوحدات. يحمل في حقيبته الخاكيّة، مع الغيار وعدّة الحلاقة، كتاب أستاذه: "بوليفار والعالم الثالث". نسخة أهداها إليه البادي مُوقّعة بإمضائه. عزيزة عليه مثل إنجيل.

في تلك البلاد، لا تسمح الأنواء بهدوء الدماء في شرايين البشر. تتدفّق في العروق وتتضرّج سمرتهم بالحمرة. توهّم كولومبوس وصحبه، لمّا رأوهم، فسمّوهم الهنود الحمر. كره هؤلاء غزاة قارّتهم وتوارث أبناؤهم النقمة ومرّروها للأحفاد، وكان شافيز من الورثة. فتح عينيه على الدنيا وفي فمه ملعقة من مُرّ. في سنة اثنتين وتسعين، قبل بلوغه الأربعين، قاد مجموعة من الضبّاط، بينهم صديقه الملازم آرياس، وتمرّدوا على رئيس الدولة، لكنّ البلاد التي تحترف الانقلابات العسكريّة، ترى في النفي والتوقيف وحتّى الطرد من الجيش، عقوبات تافهة ومضيعة للوقت. تظلّ مصائر مغامريها متنقّلة ما بين منصّة الإعدام وكرسيّ الرئاسة. لا أحد يرغب بالعيش في المنطقة الوسطى. وعادة ما تحسم الأمور فروقات طفيفة ومصادفات تغيب عن أعتق العرّافات.

عامان طويلان أمضاهما شافيز في السجن مع الضباط



المتمرّدين. نزلاء يختلط عرقهم مع رذاذ كلامهم ومخاطهم وبلغمهم. تَضمر عضلاتهم من قلّة الطعام وضآلة فضاء الحركة. ضاق الضابط الشابّ بنفسه وبمديد قامته في العنبر المزدحم. كان ماردًا في كشتبان، لكنّه لم يستسلم. زارته شقيقته في السجن ليتعرف على مولودها الجديد. تلقى الحارس رشوة وسمح للسجين بأن يتلقّى الطفل بين يديه. كانت هناك كاميرا فيديو صغيرة ملفوفة في قماطه. خرجت الزائرة وابنها وبقيت الهدية. ومن كشتبانه سجّل شافيز شريطًا حماسيًّا دعا فيه الشعب إلى التمرّد. ثم، في الرابعة من فجر ليلة خريفية، بثّت قناة مُقرصنة الفيلم. إنتفضت الجموع قبل بزوغ الشعاع. خرج الجياع والحفاة والمعطوبون والشيوخ والحوامل من أزقّة الفقر. لبّوا نداء حزب الحركة الثوريّة البوليفاريّة. سيطر المنتفضون على البلد لساعات. رفرفت يمامة الأمل قريبة فوق الرؤوس. برهة كالحلم، أبهى من أن تكون حقيقيّة، إذ هجم الخصوم بالبنادق والهراوات ومفكّات البراغي وأفشلوا انقلاب شافيز الثاني. لن يخرج من السجن إلّا بعد انتخابات جديدة وعفو رئاسيّ.

لا مناطق وسطى في البلاد السعيدة بعساكرها. حوكم الرئيس بيريز بتهمة إخفاء مئات الملايين من البوليفارات. العملة المحليّة قشرة فول قياسًا بالدولار. وقشور الفول للجياع مأدبة. سيق إلى سجن "إلجونكيتو" بعدما خرج شافيز من "يار" وبدأ مسيرته نحو القصر الجمهوريّ. فشل مرّتين في الانتخابات، ونجح في الثالثة. وقبل أسبوعين من تأديته القَسَم نشر مقالًا في "الناسيونالي"، توسّم فيه أن تخرج فنزويلا من إطار دولة صغيرة محدودة بمحيطها



اللاتينيّ. "ستكون جديرة بما ينتظرها من مصير عظيم". كأنّه كان ينقل عن منصور البادي. لم يقرأ الرئيس الجديد كتاب البروفيسور الفلسطينيّ، فحسب، بل حفظ عباراته على ظهر قلب أيضًا.

في شبابه، لم تكن فنزويلا تعني شيئًا لمنصور. مساحة ملوّنة على الخارطة مثل عشرات المساحات غيرها. تعلّم اسمها في درس الجغرافيا. لم يُخبره أيّ بائع أحلام متجوّل أنّ حياته ستكون هناك، في الجانب البعيد من الأرض، جنوب خطّ الاستواء. كان ينوي، يوم غادر كراتشي إلى القاهرة، أن يستقرّ في بلد عربيّ يمنحه عملًا يناسب قدراته. في صدره حُبٌّ مكتومٌ سيخرج إلى العلن مهما شرّق وغرّب، وهو سيستدعيها إليه حالما يحصل على وظيفة. سيكون حضنه وطنًا لتاج الملوك ووطنه حضنها. بدونها حياته زعتر ناشف. وهو معتاد أن يسقيه بزيت الزيتون.

فجأة، جاءت فنزويلا واعترضت طريقه. لم يضعها، ولو من بعيد، في حساباته. كانت مصر في خاطره. وهو حين وصل القاهرة، آتيًا من كراتشي، فرشت له حماسة الشباب أرضها بالفلّ البلديّ. لإسم القاهرة في روحه وقع صنّاجات. قرأ كثيرًا عنها، وأراد التعرّف عليها، رؤية العين، بعدما صاحب أدباءها وفنّانيها في الروايات والأغاني. حاول مع زميليه المطرودين مثله من كراتشي أن يجدوا عملًا. ذهبوا إلى سفارة الهند يسألون عن فرص في إذاعة دلهي. تعجّب الموظّفون من السؤال وظنّوهم حشاشين. مرّت عشرون يومًا كانت كافية لأن يدرك الشابّ الفلسطينيّ أن لا عمل يُرتجى هناك. ودّع رفيقيه ومضى إلى الإسكندريّة. بات



فيها ليلة قبل أن يأخذ الباخرة إلى لبنان. سيلاقي شقيقاته المقيمات في الجبل ويعتني بهنّ. وسيبحث عن عمل في الصحافة والمدارس الخاصة، أو في السفارات. كتب في يوميّاته:

"تمنّيت لو بقيتُ في مصر العمر كلّه. أطفئ في نيلها لهفي على القدس. أمضيت وقتي أقتفي آثار ما كنت قد طالعته في المجلّات وما سمعته في الإذاعة. ارتشفت النهر بعينيّ. تهزهزت في الحنطور على الكورنيش. تصوّرت بجوار الهرم. تمشّيت حول الحسين باحثًا عن زقاق المِدَقّ. رأيت الأوبرا ودخلت كازينو بديعة. حاولت مقابلة عبد الوهّاب ولم أفلح. ثمّ عدت إلى لبنان لأجد في انتظاري مفاجأة سيكون لها وقع كبير. مهندس شابّ له تجارة في فنزويلا يخطب أختي الكبرى. موقف لم أستعدّ له. أن أكون في العشرين ويتقدّم إليّ من هم أكبر مني سنًّا، طالبين الزواج بهذه أو تلك من الشقيقات".

القرار ليس بيده. عليه السفر إلى رام الله لاستشارة أبيه، لكنّ رائحتها لا تتوقّف عن ملاحقته، وهواء الجبل في الصيف يوقظ شهوته. خرج يتمشّى، ذات أمسية رائقة من أواخر أيلول، بين صفّين من الصفصاف، يفكّر في حاله. قادته الطريق إلى هضبة تمتدّ تحتها كروم مقطوفة. صعد إلى قمّتها ووقف وملأ صدره بهواء منعش. شعر بشجاعة طارئة فدخل في حوار مع شخصه الآخر. واجه ذاته الخفيّة والحميمة واعترف لها، دفعة واحدة، بأنّه يعشق تلك المرأة. تاج الملوك. أحبّها في كلّ مراحل صداقتهما. المرحلة الأولى البريئة البيضاء. والثانية الورديّة التي تطوّع فيها ليكون حارسها المقدام. ثمّ الثالثة الحمراء، يوم انقضّ عليه خيالها



العاري وهو يستمع إلى "شهرزاد" كورساكوف وحيدًا، في محرابه.

نام على قلق، واستيقظ في الثالثة صباحًا. تقلّب يبحث عنها. لم يجمعهما فراشٌ يومًا، لكنّ السرير موحش وكبير عليه. لام نفسه لأنّه لم يفاتحها بمشاعره قبل الوداع. كانت يداه مقيّدتين بواجبه العائليّ إزاء والدته وشقيقاته. فتح الشبّاك وأصغى لصمت الصفصاف في سكون الليل. لا يسمع جوابًا لحيرته. أضاء النور وكتب في مفكّرته جملة وحيدة: "ما زلت مشدودًا إليها كعصفور مربوط بخيط رفيع إلى بنصرها".

كانت ليلة أربعاء. أطبق المفكّرة وقرّر ألّا يكتب المزيد عن تاج الملوك. غيابها زمن مُستقطع من عمره. مثل الوقت الضائع في كرة القدم. يسجّلون الدقائق والثواني لكي يضيفوها في آخر المباراة. لن يضيف أيّ عبارات أخرى. فهو لو أفسح لغيابها مساحة أكبر يكون قد أقرّ بذلك الغياب، وزجّ به في الوقت الحقيقيّ للمباراة. سيحتسبه الحَكَم من ضمن الشوط، ولن يمّد في عمر الشوق. لم يجرؤ على اعتبارها حبيبة إلّا يوم نأت. سيُخرجها من الملعب، يضعها على مقاعد اللاعبين الاحتياط ويفتح في دفتر جديد صفحة بيضاء. قرارات يلضمها وتنفرط. يصفر مُدرّب الفريق ويقرّر إعادتها إلى الساحة. يتركها تتسلّل إلى سطوره رغم أنفه.

"لولا زواج شقيقتي، لما خطرت فنزويلا على بالي. ثمّ تآلفت يومًا بعد يوم مع فكرة الهجرة إلى القارة البعيدة. دواء مرّ سأعتاده. بتّ مستعدًّا للذهاب إلى ما يسمّيه المتأدّبون: المقلب الآخر من الكرة الأرضيّة. كأنّني مُسافر إلى القمر، حتّى القمر عرفته وسامرته في الليالي، لكنّني لا أعرف عن فنزويلا سوى مكانها



على الخارطة، وأنّ عليّ أن أنتظر التأشيرة لعدة أشهر. وبخلاف تهيئة نفسي لتلك النقلة الكبرى، لم يكن يشغلني سوى التفكير في تاجي. أحاول الاتصال بها، وأنتظر خطًّا منها. لا أدري هل بقيت في طهران، أم تدّبرت أمرها للعودة إلى بغداد".

كان قد كتب لها، حال وصوله القاهرة، على عنوان قريبةٍ لها في عبادان. لم يكن لديه الكثير ممّا يقول. اشترى بطاقة بريديّة من مكتبة "لينرت ولاندروك" وخطّ عليها بالانكليزية ثلاثة أسطر يخبرها فيها بسلامة وصوله. على الوجه الآخر صورة مركب شراعيّ في النيل. ألقى نظرة على ما كتب، ووجد أنّه غير كافٍ. أخذ بطاقة ثانية تُصوّر شابًّا وشابة في حقل قطن. تردّد قبل أن يوشّحها بكلمة كبيرة وحيدة بالعربية: "مشتاق". وضع البطاقتين في مغلّف واحد. لم يلصق الطابعين عليهما مباشرة. الستر في الحبّ جميل. مررّ لسانه على طيّة الغلاف وأغلقه. صمغ لاذع.

لولا الصورة التي أخذها لها بنفسه، ما كان أقرّ بالفراق، وبأنّها ركبت الباخرة وتوارت في الزُرقة. لا الصورة فارقته ولا الكاميرا. طبع الفيلم لدى استوديو في حيّ الفجّالة، حال وصوله القاهرة. ومن بين كلّ اللقطات بالأبيض والأسود، أحبّ المصوّر صورة شابة تستند إلى سياج سفينة وتلوّح بمنديل. اقترح على منصور أن يلوّن له الصورة. سأله:

ـ ما ألوانها الحقيقيّة؟

ـ منديلها أخضر. شعرها أسود. وعيناها...

إختنق ولم يكمل ولمّا عاد ليأخذ النسخة الملوّنة غصّ ثانية. أرسل إليها نسخة من الصورة على عنوان قريبتها. أعجبتها وكتبتْ



له خطاب شكر. أوّل رسالة يتلقّاها منها. فيها الكثير من ودّ يقف على البرّ. لا إشارات عاطفيّة ولا لهفة. يفرك الورقة لعلّ هناك جيبًا سريًّا فيها. كلمات صريحة تداويه. كان عازمًا على أن يتدبّر أمره ليلاقيها قريبًا. يكتب لها "قريبًا"، ولا تستقيم الأمور معه. تمرّ الأيام وهو يبحث عن عمل. تجيء أخبار مفزعة من دير ياسين، ويخرج نازحون بالآلاف من قرى فلسطين.

شقّت عليه العودة إلى لبنان لملاقاة والدته وشقيقاته. تعوّد أنّ يراهنّ زهرات فوّاحات في بيتهم الجميل في القدس، لا كسيرات خاطر. إرتأى أبوه إرسالهنّ إلى لبنان ريثما تهدأ الأحوال. كان يومًا يصعب نسيانه. البنزين نادر ولا مواصلات. خرج باكرًا يبحث عن سيّارة تنقلهم إلى عمّان. أبوه وأمّه والبنات ينتظرون في المدخل مع الحقائب. كلّ لحظة من ذلك النهار ستبقى محفورة في بال كلّ واحد وواحدة منهم. سيحفظ كلّ نازح نسخته الشخصيّة من تراجيديا الخروج، من يوم التهجير حتّى ساعة الرقاد في القبور.

- السيارة في الباب.

- هل تأكّدت يا ابني أنّ لدى السائق ما يكفي من البنزين؟

- نعم. سيوصلنا إلى عمّان، وتعود معه إلى القدس.

ببساطة سفرة ربيعيّة، غادروا البيت. لم يعد منصور يحبّ الربيع مهما كان جميلًا. تتقلّب الفصول والسنوات ويخشى أن يصيب العطب ذاكرته، تضمحلّ صور القدس في عينيه. أرسلت إليه شقيقته الصغرى، بعد سنوات، مقالًا نشرته في ذكرى النكبة. كانت تحبّ الكتابة مثله، وسجّلت في مقالها وقائع تلك الساعة المكفهرّة، واصفة بعبارات بسيطة احتدام مشاعرها. البساطة تجلو



الياقوت أكثر من البلاغة. ذكرت كلَّ التفاصيل، ولم تنسَ الستّ زكية، جارتهم التي بكت بكاء مُرًّا لأنّها ستبقى وحيدة. سبقها جيران كثيرون في السفر. ولم يكنْ حملُ مفتاح البيت، في تلك السنوات المُبكرة، قد تحوّل رمزًا للعودة؛ احتفظوا بالمفاتيح لأنّهم حتمًا عائدون. ولم يعدْ مع السائق سوى الأب، عبد الله البادي، بينما أكمل منصور الرحلة مع البنات والوالدة من عمّان إلى دمشق. ظلّوا أربعة أيام في ضيافة قريبة لهم. ثمّ أوصلهنّ إلى راس المتن، في لبنان. عاد ليكون مع أبيه في بيت خلا من نسائه، وسيخلو من رجاله. سفر طويل لم ينته.

كان نهارًا قائظًا من نيسان، سنة ثمانٍ وأربعين. وفلسطين كلّها تتزلزل!

٣١

سنلتقي.

أفرك وريقات الريحان بين راحتيّ وأكرّر: سنلتقي!

تخْفتُ الكلمة وتبرد من التكرار. تتفرّق أحرفها ويتبعثر كياني. كانت لي آمال وِسْعَ المدى. ثمّ أراني مُقتَلَعًا من أرضي أسكن في الترحال. وهذا الجبل موحش، وأنا أبحث عن حبيبة تائهة مثلي بين الخرائط. لا تطأ أرضًا تَفرش فيها حقيبتها حتّى تلمّها وتُطرد إلى غيرها. تاجي عنقود من عنب أسود يعاند الأرجل العاصرة. نبيذها حلو، وهيمنتها على مذكراتي تُضنيني. كرهتُ التدوين. لا



أفراح في دفاتري الأخيرة. أمسك القلم وأتردّد. أكتب "نبيذ" وأتأمّل المفردة. أضيف إليها تاء التأنيث "نبيذة". أخطف معطفي وأذهب إلى بيت جارنا الخوري. خطواتي تنطبع في الثلج، أطلب معجمًا وأجلس قرب نار الموقد. أحبّ هذه المقاعد الواطئة من الخيزران والأرجل الخشب، بلا ظهر ولا مسندين. أبحث عن الفعل الثلاثيّ: "نَبَذَ الشيء نبذًا، وأنْبَذَهُ وانْتَبَذَهُ: طرَحَهُ أمامَه أو وراءَه. فهو منبوذٌ ونبيذٌ. والنبيذُ: غليانُ العصير. والعامّة تخصّ النبيذَ بالخمرِ وليس بصحيح. وانْتَبَذَ: جَلَسَ ناحيةً. والمِنْبَذة: الوسادة، والأنْباذ: الأوباش". أغلق معجم "أحكام الإعراب في لغة الأعراب". المؤلّف جرمانوس فرحات. طبعة مرسيليا سنة ١٨١٩. يسمع الخوري ما قرأت عليه بصوت عال ويهزّ رأسه. يستغرب سلامة لغتي. يسمّيني شقيق البنات. ابن نعيمة المقدسيّة. يمسّد لحية بيضاء وهو يتلو صلوات مبهمة.

رصدت البريد في كلّ نهار من تلك النهارات الفارغة الطويلة. أفتح عينيّ من النوم وأقول لها: صباح الخير تاجي خانم. لا يبدأ يومي قبل التصبيح عليها. تتأخّر رسالتها فأطيل ذقني وأهمل ثيابي. حتّى إذا جاء الساعي اغتسلتُ وحلقتُ وجهي. أرشّ عليه الكولونيا لأصبح جديرًا بلقائها على الورق. ولمّا يلحّ عليّ جوعي إليها، أصبّر النفس بمراجعة ما كتبتُ من يوميّات عملي في الإذاعة. كرّاستان كبيرتان كاملتان. أحتمي بالذكرى فيزداد إحساسي بعجزي. وكنت قد قرّرت، بعد يومين من إبحارها، أن أكتب لها رسالة طويلة، عفويّة وصادقة. سأصارحها بالدوار العذب الذي يرفع حرارتي درجة ونصف الدرجة، كلّما تمتمتُ باسمها. يقلقني ما



أسمع عن اضطراب البريد بين إيران ولبنان. سأنتظر، أوّلًا، جوابًا منها على بطاقتيّ البريديتين، ولم أكن أدري أنّ الانتظار مرض موجع. أنوس في جلستي مثل رقّاص ساعة الجدار. مثل الزنبرك. نابض معدني مضغوط يتحيّن الفرصة للانتعاظ. سأعترف لها بحبّي. منصور البادي يعشقك يا تاج الملوك. وستردّ عليّ بما يشفي غليلي. أسبقها إلى المهجر وأرتّب أموري. أسابيع قلائل وأستدعيها إليّ. نعيش معًا لا نفترق. أكبر تحت فيئها وأتدفّأ بحرارة سمرتها. هل تتردّد في مشاركتي القفزة العمياء؟ إن عملنا في كراتشي ليس أكثر من رحلة متوسّطة لا تشبه عبور البحار والقارّات والإقامة في الأرض الجديدة. أجواء وعادات ولغة وسحنات مختلفة. نعم ستقفز معي. سآخذ يدها بيدي ونقفز.

يحتفل العالم بدخول النصف الثاني من القرن العشرين، وأنا أسمع الراديو وأقشّر هواجسي. قلقي كستناء ذلك الشتاء. الثلوج في جبل لبنان كثيفة، والساهرون في بيروت يرقصون "التشارلستون". يرتدون الطراطير ويشربون الشامبانيا. أتفرّج على صورهم في الصحف القليلة التي تقع بين يدي. أراهم مبتهجين نكاية بي وبعزلتي.

تزوّجت شقيقتي الكبرى قبل رأس السنة، سبقتني إلى الغربة الأكبر. لم تستوعب، بعد، أنّها فقدت مسقط الرأس. تركت مُطرّزاتها على وسائد ذلك البيت في حيّ حزبون ولن تعود. قالت وهي تبتسم من وراء دموعها:

ـ لا تتأخّر يا خيي. تعال لنؤسسّ سلالة فلسطينيّة في فنزويلا.



في ضحى صقيعيّ مُشمس، رأيت من شبّاكي المضبب حصان ساعي البريد. كان يشقّ خطاه في الثلوج قاصدًا بيتنا. هرعت أفضّ رسالتها، أكاد أمزّق الصفحتين من ارتجاف أصابعي. ليت يديّ تمزّقتا. ماذا قصدتْ تاجي بذلك الهذر؟ تقول إنّها تفتقدني كما يفتقد المرء صديقًا عزيزًا. تستعيد بعض أيامنا في الإذاعة، تواطؤاتنا في مواجهة زميل ثقيل تحرّش بها، أو مدير حاول فرض غطرسته عليها. أقرأ سطورها وأضع الورق جانبًا. أقَسّطُ الرسالة. لن ألتهم المتعة لقمة واحدة. نتنزّه على البحر بعد نشرة الظهيرة. نذهب إلى متجر الأسطوانات. نقضم سندويشات جبنة التشيدر بالبندورة. أسمعها تصيح بي:

ـ طماطة. اسمها طماطة.

ـ تومايتو للانكليز، وبندورة لنا.

تضحك تاجي على البندورة، وعلى الكرافي والمِضْبَعنيّات. تصحّح لي:

ـ ربطة العنق اسمها كرافات. والقفّازات اسمها كفوف لا مِصبعنيّات.

ـ الكفوف عندنا هي الصفعات.

أحبّ رنين ضحكتها، غنجها، ورائحة شعرها. غيمة من زيت عطريّ تغلّفها وتتحرّك حيثما تحرّكتْ. تسحبني من يدي ونمشي. أسير وهي تتراقص. تحبّ سيناترا، وتشتري أحدث اسطواناته. تدعوه فرانك، باسمه الأول. مثل نوري. مثل عبد الإله. كأنّها لعبت معهم في أزقّة الطفولة. أعود إلى رسالتها لآخذ قضمة ثانية. يُغْلِمُني قلبي أنّ الاستهلال الجميل هو المصقول



الحلو الذي يُغلّف حبّة القضامة. أضرس في السطرين الأخيرين حين تُخبرني أنّها عاشقة وعلى وشك الزواج. هكذا، بهذه الخفّة، تكتب أنّها تعرّفت على شابّ إيرانيّ من بلد أبيها وأُمّها، أغراها فأغرِمَتْ به وستتزوّجه. تطلب منّي أن أتمنّى لها السعادة.

خرجت إلى مرج الزيتون وجلست على درج حجريّ. أفكّر في ما يمكنني أن أردّ به. ماذا سأفعل بحياتي بعد الآن؟ نثَّ بياض السماء وتراكم على شعري وكتفيّ وأهدابي. تحوّلت إلى رجل ثلج، لا ينقصني سوى طرطور. جاءت زوجة الخوري بغطاء صوفيّ دثّرتني به. أنهضتني، بما لديها من وَهَن، لتعيدني إلى الدار. نمتُ محمومًا خمسة أيام، واستيقظتُ على حوافر حصان البريد. رسالة أخرى قصيرة منها. تقول إنّها تكتب لي من مطار طهران. تسافر وحدها إلى باريس. لم أفهم شيئًا ولم تفسّر لي، لكنّ الثلج توقّف عن التسلّل إلى ضلوعي. شملتني هالة زرقاء، صعدت إلى رأسي كأنّني عببتُ كأس بيرة بجرعة واحدة.

ثمّ وصلت الفيزا الموعودة، وقبل مغادرتي وصلتني من تاجي رسالة من باريس. طلبت أن أبعث لها بعنواني حال وصولي إلى فنزويلا. يزداد ارتباكي. تقول إنها حامل، وقد تضع طفلها قبل وصولي إلى هناك. إنفلتت الورقة من يدي. ما عادت أصابعي تنقبض وتنفتح. تمثّل لي والدي واقفًا أمامي، بعِقاله العريض وكوفيّته الحمراء وكلّ هيبته. معه أُمّي وشقيقاتي الصغيرات. الكلّ صامت ينظر إليّ. أعين كثيرة ملتاعة تنتظر درّة الجواب، من فم الابن الوحيد المشغول بامرأة عزباء ترضع طفلًا.

ـ يا ابني... هذا ابنك؟



أنكّس رأسي، وأنكسر صامتًا أمام أبي. ليس طفلي ولا أعرف من هو أبوه. لا أدري ما الذي انتظرته منّي تاجي. موقفٌ لا يقدر عليه أعتى الرجال، وأنا لمّا أزل في العشرين. كنت أظنّ نفسي، حتّى تلك اللحظة، شابًّا شهمًا شديد العود. ثمّ وجدتُني ضعيفًا مهزومًا عاجزًا عن أن أكون المنقذ من الزلل، المسيح الذي يضع صدره جدارًا أمام راجمي المجدليّة.

تناولت تلك الصورة العائليّة التي كان أبي قد التقطها لنا بكاميرته. في الوسط تجلس الوالدة بثوب طويل مُطرّز الصدر. أقف إلى يمينها، وإلى يسارها شقيقتي الكبرى بفستان القطيفة الأزرق، الذي ارتدته في حفل خطوبتها، والصبيّات الصغيرات الثلاث على الأرض عند قدميّ أمّي. وضعتُ الصورة في مغلّف وكتبت على ظهرها:

"هذا هو ما يقيّد يديّ عنك".

نقلتُ عنوانها الجديد في باريس. وانتظرت حصان البريد.

٣٢

رأيتُ باريس، بصريح جمالاتها، بعدما تفتّحت أذناي. أزالتْ السمّاعتان الحواجز بيني وبين الناس. لم أعد كفيفة السمع تمامًا. أمشي ساعات في الأزقّة الضيّقة القديمة. أتخيّل أنّ خطواتي تقع على آثار أقدام شوبان وكوكو شانيل وجاك بريل. أقف طويلًا أمام المبنى المتصدّع في شارع "ليه غراند أوغستان"



وأرفع نظري إلى الطابق العلويّ الذي كان بيكاسو يرسم فيه. أسحب شهيقي بعمق، باحثة عن بقايا أنفاس الرسّام. أنا أنفي دليلي، لا أشبع من مغازلة زجاج الدكاكين والمقاهي والمكتبات. أمارس الرياضة المفضّلة للباريسيّات، لحس الواجهات. أودّ لو ألحس الأشجار وإعلانات المترو والأخاديد الصغيرة بمحاذاة كلّ رصيف. لم تُحفر جزافًا. تنساب إليها مياه المطر، وتذهب إلى مزاريب المجاري. تجرف معها أعقاب السكائر وما تساقط من أوراق الخريف. حتّى البالوعات جميلة. والشوارع مُبلّطة بقطع من حجر رصاصيّ صقيل. تفصل بينها فجوات تقتنص الكعوب الرفيعة. يُرضيني أن ألفّق لي آصرة قوميّة مع حجارة الشارع. عمّال عرب أمضوا أعمارهم في رصفها. جاؤوا من الجزائر والمغرب، بعد الحرب، وعمّروا باريس الجديدة. لا شفاء لي من داء العروبة. يكنس عامل أسود ما تجمّع من أوراق الشجر. حتّى المكانس أنيقة. يمكن لشاعر من عندنا أن يتغزّل بها مثل رموش الحبيبة.

مع تفتّح أذنيّ يتفتّح لساني. تحسّنت لغتي، وطويتُ أمتارًا من بساط غربتي. كنتُ أشتري البطاقات الهاتفيّة المُخفّضة، وأتحادث مع أمّي مساء كلّ خميس. تبكي في التلفون حالما تسمعني. كلّ الأمهات يبكين في التلفونات. أكفكف دموعها بضحكات مُفتعلة. تسألني عن أحوالي وأطمئنها بأنّني بين أيدٍ أمينة. أسأل عن إخوتي وتقول إنهم يسلّمون عليّ. لا يأخذ أحدهم السمّاعة ليتحدّث معي. ما زالوا يعاقبونني على براءتي. لا تهمة لي ولا صداقات كثيرة. أشترك معهم في معاقبة نفسي، لكنّ



حضن تاجي واسع وحنون. تحمل همّي وتتمنّى لو تلصقني بأيّ شابّ من أبناء معارفها وجيرانها.

ـ وديان صغيرتي... أليست لك أحاسيس؟

يخجلني سؤالها. لم أعتد التطرّق إلى احتياجات الجسد، كما يفعل القوم هنا. تسألني طبيبة النساء، بنبرة عادية، عن علاقاتي الجنسيّة. كأنّها تسألني عن عنواني ورقم هاتفي. تفاجئني صراحتها. وقاحتها. أتحاشى عينيها وأغمغم بكلمات مبهمة وأهزّ رأسي. ماذا أقول لها؟ أنا كلّي أحاسيس يا تاجي. ولي شجرة رغبة كثيفة الأغصان، مزروعة في صحراء. أسقي جذورها بماء الخيال، وأقطف ثمرتي بيدي. ليتني لم أعرف رجلًا من قبل وبقيت على عمى جسمي، لكنّ عناقات يوسف عصفتْ بي وقادتني إلى ينبوع لذّتي. ثمّ كان ما كان. راح عنّي فصرتُ عقيمًا، لا أطيق أن يقترب منّي غيره.

زرتها فوجدتُ عندها رجلًا مُلتحيًا يشرب الشاي. تجلس بجواره ووشاح فيروزيّ يغطّي شعرها. مُصحفها على الطاولة أمامها.

ـ هذي وديان. تعالي سلّمي على الشيخ حسّان.

لا شك أنّه عريس جديد تحاول أن تُدبّقني به. ظنوني ليست في مكانها هذه المرّة. تستعينُ تاجي بخبرة الإمام الشابّ لكي يعلّمها التجويد. كان مُهاجرًا بلا أوراق. يقيم في مسجد ولا يعمل. سيساعدها على استعادة إسلامها، وما تقهقر من عربيّتها وفصاحتها. لسانها لا يأتي على ذكر التوبة. تلك قضيّة بينها وبين بارئها.

جلستُ في مكاني المعتاد في الزاوية. لم يرفع الشيخ



الشابّ عينيه نحوي. كان يرتّل آيات من سورة مريم وهي تعيد وراءه. لُكنته مصريّة وطريقته كذلك. إنشاد يختلف عن تقشّف الأئمّة المغاربة الذين يرفعون الأذان في مساجد باريس. أسمعهم من إذاعة الشرق وهي تنقل صلاة الجمعة ومواقيت الصلاة. أضع سمّاعتيّ على أذنيّ وأرفع مؤشّر الراديو. كأنّه توبيخ لا تجويد.

صوتها أعلى من صوته، ومخارج حروفها واضحة وصحيحة. تتهجّد وتغرف ممّا في جوفها. صهريج حنان محفوظ في الصدر. لم تكن تحتاج إلى معلّم. رأيتها تخصّص الكثير من وقتها لسماع تسجيلات عبد الباسط وأبي العينين شعيشع. الأول يُطربها، والثاني يُشجيها.

ـ سأسجّل أسطوانة أرتّل فيها سورة مريم.

ـ القرآن الكريم بتلاوة مدام شامبيون؟

ألقيت بالسؤال ووددت، على الفور، لو أسحبه وأعيده إلى فمي. ندمتُ على نزقي واستهانتي بمسعاها. إنّها قادرة على تحقيق ما تريد. لم يعد أيّ شيء يفاجئني منها. لو سمعتها واعظة في لمّة من الفرنسيّات المُهتديات لما تعجّبتُ. ولا لو رأيتها تمثّل على مسرح الكوميدي فرانسيز. هي حرّة تفعل ما تشاء شرط ألّا تزجّ بي معها في تجاربها. إذا خطر ببالها أن تصارع أسدًا لمّا هزّت شعرة في مفرقي. لذلك لم أستغرب حين مدّت لي، ذات يوم، أوراقًا وقلم حبر وطلبت منّي أن أكتب ما ستمليه عليّ. رسالة إلى صدام حسين. تنصحه بما يجب عمله لقلب الطاولة على أعداء العراق. تريد مني أن أقول له، على لسانها، إن مستشاريه جَهلة



أميّون وخوّافون. وهي صحافية قديمة تفهم الشرق والغرب. تتلمذت على نوري باشا، وتابعت السياسة الدوليّة طوال حياتها. كانت تطلب منّي ما يرهقني، أنا الهاربة من ذلك البلد ومن رموزه. كلّ اسم كبير هو بعبع يجدّد خلايا رعبي. وطن من بعابع شتّى تكلكل حتّى على البريء الذي لم يرتكب ولو مخالفة مروريّة.

أمسكت القلم، رغم ضيقي، وخططتُ ما تمليه عليّ:

"يا ولدي الرئيس تنازل عن عنادك فترضَ عنك الأمم المتحدة ولجان التفتيش. كن حكيمًا تنجُ بشعبك من الحصار والعقوبات. لا تجعل من النفط نقمة على العراق. لن يتركوك تشربه وحدك. ما كان عليك تصديق تلك السفيرة المراوغة. اسمها جميل مثل الربيع، لكنّها حيّة تحت التبن. مصيدة فئران مصنوعة في واشنطن...".

تُملي وأكتب. صفحة، صفحتان، ثلاث صفحات. كلّ فقرة منها تبدأ بـ "يا ولدي". عبارة تدمي أصابعي، تنهال مطرقة الذكرى تفلق رأسي، تعيد تفجير طبلتَيْ أذنيَّ.

ـ هل لديك عنوانه يا أمّي؟

ـ أكتبي على الغلاف صدام حسين بس. لن يتيه المكتوب.

لم أكن في مزاج يسمح لي بمجادلتها. تركتها تضع اسمها وتوقيعها في ذيل الرسالة. تاج الملوك عبد المجيد. صاحبة ورئيسة تحرير مجلة الرحاب الغرّاء سابقًا. خطّها أجمل من خطّي، وحروفها ذوات أبهة. وعدتها بأنّني سأبعث الرسالة إلى القصر الجمهوري. كرادة مريم. بغداد. جمهورية العراق. تنام وتصحو على أمل وصول الردّ. تضع الهاتف بقربها، ساعة القيلولة، لعلّ وزير



الخارجية يتّصلّ بها، أو السفير، أو صدّام نفسه. يشكرها على آرائها السديدة، ويعدها بأنّه سيأخذ بنصيحتها. وقد يدعوها إلى مقابلته في بغداد. ستغسل أجفانها بماء دجلة قبل الإغماضة الأخيرة.

٣٣

وصلت كراكاس بقلب ثقيل. كنت في الحادية والعشرين، قادرًا على استيعاب ما هو جديد، تتفتّح أمامي آفاق غير مطروقة، إلّا أنّ قلبي كان ثقيلًا، وجناحيّ مهيضان. عجزت عن نسيانها. تجاوزتُ الصدمة الأولى، وكتبتُ لها عن أحوالي، وسألت عن أحوالها. عرفت أنّها وضعت طفلة من الإيرانيّ، اختارت للبنت اسمًا فارسيًّا لم أحفظه. كانت تقيم لدى سيدة فرنسية، قادتها إليها راهبة تعمل في مستشفى الولادة. عجوز طيبة تؤمن بأنّ المسيحيّ الحقّ هو من يفتح بيته للمنبوذين. تذكّرتُ كنائس القدس ومواكب عيد الفصح. يسير الكهنة والشمامسة والراهبات وأنا طفل ألحق بهم، وأمسك بثوب المطران ذي الطاقيّة الحمراء. لا أفرّق بينه وبين بابا نويل. حفظت موعظته. طوبى للمساكين والحزانى فإنّ لهم ملكوت السموات. أخبرتني في إحدى رسائلها أنّ طفلتها تحتاج إلى أب يرعاها. لا تريد لها أن تكبر وتذهب إلى المدرسة مثل لقطاء الحرب، بدون أب.

تراسلنا لمدة سنتين بدون انقطاع. مراسلات هادئة حينًا، مشبوبة غالبًا. إنّما بدون وعود. كتبتُ لتاجي أجمل ما يمكن



لامرأة أن تقرأه من رجل. أو هكذا تصوّرت. قطعًا أدبية اعتنيت بعباراتها وخطّها واختيار ورقها. أتركها تسقط في صندوق البريد، فينْسَلُّ بعض قلبي معها. ووصلتني منها رسائل مُنتظمة كانت سندي في أوّل غربتي وشقاء عملي. شعرتُ بها الحبيبة والقريبة والعزيزة وأهل بيتي. يغوص حبّها عميقًا في كياني كلّما اقتربت اللحظة التي أحاذر وقوعها. نهاية كنت أنتظرها وأؤجّلها. لم أعد حامي الحمى الذي تطوّع للذود عنها في كراتشي. ولم أكن الشهم الذي سَتَرَ شططها. ومن كانت مثل تاجي خانم لن تبقى بدون زوج. وأنا الغريب هنا، لن أبقى وحيدًا.

في لحظة تعقّل أو جنون، قرّرتُ أن أتزوّج أول بنت تروقني. وخلال شهرين نفّذت قراري. خفتُ أن أتراجع ويضيع العمر بين الورق والمفكّرات والطوابع والصور ومغلّفات البريد. أعلمتني، في آخر رسائلها، أنّ ضابطًا يكبرها في السنّ يتقرّب منها. سيكون زوجًا تعتمد عليه، ويمنح ابنتها اسمه. وسألتني رأيي، لكنّني لم أبعث بشيء بعد تلك الرسالة. انقطعت عنها بدون وداع. حاولت أنّ أكتب لها مُتمنيًا حظًّا طيّبًا فارتجف القلم وتشوّه الخطّ الجميل. وصلتني منها رسالتان ثمّ انقطعتْ. سيبقى عَرَق الخجل يبلّل جبهتي كلّما رأيت علامات الاستفهام في الرسالتين. لم أعرف كيف دار بها العمر. وعندما جلستُ وحسبتُ عمر علاقتي بها وجدته لا يزيد على غمزات صغيرات بزاوية من عين الزمن. عام وحيد حقيقيّ في كراتشي، وثلاثة أعوام من المراسلات، ما بين بيروت وعبادان، ثمّ بين باريس وكاراكاس.



على عجل، اقترنت بامرأة أرجنتينيّة كنت قد تعرّفت عليها في بوينس آيرس. نمت مع زوجتي الشرعية، واستيقظت لأكتشف أنّ حبّ تاج الملوك أصدر حكمًا بسجني مع وقف التنفيذ. مرّت السنوات وانغمست في العمل والدراسة والنضال. صرتُ أبًا لابنتين ولم تستقم أموري. انفصلت عن زوجتي على مضض. تلقّيت عقابًا على جريرة لا يد لي فيها. هو ذنب دنياي التي حرفتْ خطّ سيري، والسياسات القذرة التي بعثرت مصائر لا عدّ لها.

بعد زمن، أثناء مرور لي بمطار أورلي، في رحلة بين بيروت ونيويورك، اشتريت ورقًا وبعثت لها بخطاب على عنوانها الذي بقي في ذاكرتي. لا جواب. ومرّت سنوات كثيرة تالية، ووجدت نفسي ذات يوم في بغداد. تلقّيت دعوة رسمية لإلقاء محاضرة عن ترسيم الحدود، الموضوع الذي تخصّصت فيه. تأخّرت طائرتي ووصلت الفندق قرب انتصاف الليل. وقفتُ في شرفة الطابق السادس من فندق فلسطين أتأمّل دجلة وأضواء المدينة. زيّن لي خيالي أنّ حبيبتي يمكن أن تكون فيها. ظلّت تتحرّق شوقًا للعودة إلى بغداد. فهل تعرفني لو التقيتها في الشارع، وهل أتعرّف على ملامحها التي حفظتها تصاوير كاميرتي؟

لم أهجع، رغم التعب. غسلت وجهي ونزلت إلى الشارع. إنعطفت على الكورنيش. البارات مزدحمة والسكارى يخرجون منها صاخبين. يتبوّلون في الزوايا المعتمة ووراء الأشجار. يتطوّحون ويغنّون ويمنحون المكان هويّته. هؤلاء هم الندامى في شارع يحمل اسم أبي نوّاس. إجتزت الحدائق واقتربت من النهر. فتحت رئتيّ لعبق الطمي وزناخة السمك. تناهى



إليّ خرير موجات متهاودات. سحبت نَفَسًا عميقًا. يا دجلة الخير!

واصلت السير نحو شارع الرشيد وسرت على رصيفه الأيسر حتّى ساحة الميدان. نسائم الليل تحمل لي عطرها. لا بدّ أنّها هنا. شممت الغار الذي كان يفوح من شعرها. تاج الملوك قريبة منّي. قد تكون غافية في واحد من هذه المباني العتيقة. مررت بفترينة المصوّر آرشاك. أمشي وقد نسيت تعبي. لم تعترض ركبتاي ولا راودني نعاس. كأنّني أعود إلى أماكن سبق لي أن مررتُ بها. زرتها بعينيها، واستقرّت الصور في طيّات الجفون. هنا كان مكتبها في سرداب مطبعة الزمان. هي التي حكت لي ذلك، ووصفت حديد النوافذ وخشب الباب. طالعتُ في العتمة وحشة الأزقّة الضيّقة وشناشيلها. وهذا هو دكان بائع الكاهي، الذي كان يهديها فطيرة بالقشدة كلّما مرّت من أمامه:

- القيمر للقيمر.

كانت تقلّده وتُدوّر كلّ راء من الراءين إمعانًا في الغواية. الواجهات مُسدلة، والسيّارات قلائل وهالات الغبش تلفّ مصابيح الشارع . ذاكرتي وحدها التي تشتغل ولم تغلق دفتيها. دخلت بارًا بائسًا وطلبت كأس عَرَق. دخان كثيف، وتسجيل لمطربة لا أعرفها. تجرّعت مشروبي على عجل وخرجت أبحث عن هواء نظيف. أوقفت سيارة أجرة وعدت إلى فندقي لأنام مع أذان الفجر. وفي اليوم التالي، بحثتُ عن صبيح الغافقي، صديقي من أيام الملكية وزميلها القديم. فوجئ الصحافيّ العجوز بأنّ هناك من ما زال يذكر تاجي عبد المجيد.



- أووووه... يا معوّد... أخبارها انقطعت عن بغداد من سنوات. أكيد ماتت.

لم أصدّق ما قال لي.

٣٤

هل لكِ، يا سماء الله العالية، أن تخبريني لماذا تُسايرينَها وتُعادينني؟ كلّ ما تنويه يتحقّق، وكلّ ما أرجوه يتعثّر. ألست أنا من مضيتُ إليها، أحمل هدّية خفيفة ثقلها يُضنيني؟

في جيبي وريقة هي مفتاح الهوى. ذاك الذي يدور سلسًا في بابها ويصدأ في قفلي. نزلتُ من المترو في محطّة غابة فانسين، كعادتي حين أذهب لبيتها. عبرت الجادّة العريضة ودلفت شارع مكتب البريد. اللافتة الصفراء علامتي التي أسترشد بها. كلّما مررت بسلّة مهملات راودتني نفسي الأمّارة أن أرمي الورقة وأتخلّص من الرقم. لن يفيدها حبيب الأمس بعدما تضعضعت عظامها. أكيد أنّ رأسه اشتعل شيبًا مثل رأسها. لماذا يتعيّن عليك، أيّتها السماوات البعيدة المتعالية، أن تُسعدي تاجي وتتركيني أتمرمر في كآبتي؟

وجدتها تحت المبنى تُطعم قطط الشارع. الوقت شتاء والظلام يحلّ مع الخامسة. تتعشّى الحيوانات وتنام قبل الموعد المعتاد. أعطيتها ذراعي تستند إليها وصعدنا، درجة درجة، حتّى الطابق الثاني. لو كنت مكانها، أرملة بطل من أبطال الحرب،



لطلبتُ شقّة أوسع في بناية لها مصعد. جلسنا على الكنبة ننتظر أن يغلي إبريق الشاي. ليس هناك أطيب من شايها.

ـ ما نوعه؟

ـ أضع إصبعي في القوري، ويأخذ الشاي طعمه.

تاجي فعلًا مُضجرة حين تعيد وتكرّر حكاياتها. لكنّها مُخاتلة ولذيذة حين تريد. مضت أعوام كثيرة على تعارفنا وما زلنا صديقتين لدودتين. أتكتّم على ما سبق من حياتي وأسدل ستارًا ثقيلًا على الماضي. أمّا هي، فتفرش لي ماضيها المؤنّث بعَرَق المُحبّين. تعرف كيف تتصالح مع كلّ مطبّ من مطبّات عمرها، وتغضب منّي لعزوفي عن الرجال. تحدّ لسانها سكّينًا لتوبيخي ولا تخشى زعلي. لها قائمة من الأوصاف المُختارة لي: مُعاقة. خوّافة. منافقة. شريفة رغم أنفي. باردة. بليدة الإحساس. لا أرحم نفسي ولا أترك رحمة ربّي تنزل عليّ.

كلّما أرادت أن تُعرّفني على شاب من معارفها أدفن رأسي في الرمال. تؤلمني أوصافها وأعرف أنّها نصف الحقيقة. لن أبوح لها بطقوسي حين أختلي بنفسي وأستعدّ لاستقبال أبالستي. اعتدتُ وحدتي في الفراش واحتشاده بهم. لي حريم منهم. ليلة لعطّاري الباكستاني وليلة للجزائريّ، وثالثة لميكائيل. تعرّفت عليه في المستشفى وأنا أزور تاجي. مُعالج طبيعيّ غرناطيّ الأصل. حان للأندلس أن ترتسم على خارطتي. تأمّلته كمن يطالع نخلة في بستان. له عينان تُشعّان مثل فنارات الموانئ. يشتغل بيديه وعكسيه وأصابعه على العضلات والعُقَد العصبيّة. قلتُ هذا ما يلزمني. أنا في عُرف تاجي كتلة عُقَد. كنت أتردّد عليه في عيادة



خاصّة. أقتصد في الكماليات لكي أدفع ثمن كلّ جلسة.

- ما المشكلة؟

- أسفل ظهري...

يمدّ غطاء ورقيًا على مصطبة جلدية قاسية، ويطلب مني أن أخلع قميصي وأتمدّد. أغمض عينيّ لكي لا أراه. كأنّني لم أنكشف أمامه. أسلّم عُقَدِي لكفّيه ومرفقيه وللموسيقى الخافتة في العيادة. لم أكن أعرف التدليك بالمَرافِق وكعب راحة اليد. تذهب بي الخيالات وتجيء. يتسلّقني نمل يدغدغ دمي. يفصّص الغرناطيّ عمودي الفقريّ، من الرقبة حتّى الهضبة. أسترخي ذاهبة إلى غيمة بيضاء.

- سيبرد الشاي يا وديان.

تضع إصبعها في الإبريق وتصبّ لي استكانًا ثانيًا. أنتشل ذاتي من روض الغياب، وأبتسم لأبخرة الشاي. كلّ التفاصيل العادية تصلح لتدفئة بيت الخيال. يكفي أن أتدرّب على تأجيج الجمرة. أنفخ فيها وأقرّبها من حواسّي. لن أغبط نساء باريس، ولن أحسد تاجي على الأجساد التي عركت لحمها. مكتفية بذاتي، وقانعة بأسراري. أرفع الاستكان إلى شفتي السفلى، وأتركها تداعب حافّته. يرقّ الزجاج ويبادلني القبلة. أمدّ يدي أبحث عن منديل في جيبي فأجد الورقة التي جئت من أجلها. أميل على تاجي وأضعها في راحة كفّها. تطوي أصابعها المعروقة عليها. تنظر إلى عينيّ الباسمتين، وتفهم أنّ هناك أحجية ما. تتناول نظّارتها وتقرأ المكتوب:

- ما هذي... تشكيلة يانصيب؟



ـ هذا رقمه.

ـ رقم من؟

ـ تلفون منصور البادي.

ـ في فلسطين؟

ـ في فنزويلا.

رفعت الورقة بيديها الاثنتين أمام وجهها، تنتظر أن يهطل منها مطر، أو أن تنبع بئر. ألقت برأسها إلى الخلف وأغمضت عينيها وجمدت. خفتُ أن تكون ماتت، لكنّ ماء البئر سرعان ما انساب على وجنتيها. تتناول منديلًا ورقيًا وتمخّط وتمسح عينيها. ومنديلًا آخر. وآخر. والشاي مَنسيّ على المنضدة الواطئة. والمرأة التي أمامي في حالة احتضار معكوس، استحضار من سبات إلى حياة. كان صدرها يعلو ويهبط حتّى خيّل لي أنّ سمّاعتيّ تلتقطان قرقعة قفصها الصدري.

ـ أين قلتِ إنّه موجود؟

ـ في كاراكاس، فنزويلا.

ـ عايش؟

ـ كان يتنفّس حتّى مساء أمس، على الأقلّ.

توقعتُ أن ترفع السمّاعة وتطلب الرقم. لكنّ تاجي كانت تطبخ طبقها على مهل. لن تزدرد لقمة اللهفة كيفما اتّفق. شوقها شعلة موغلة في الزمن. ليست شرارة تنطفئ ببخّاخة حرائق صغيرة من تلك التي توضع في السيّارات. ستعيش نهارها وتنتظر ليلتها ثمّ تتفرّغ لما عاشت عمرًا تترقّبه. أردت الانصراف لأتركها



تضبضب أوصالها التي دبّت فيها الروح، لكنّها مدّت كفًّا قويّة وأمسكت ذراعي، أعادتني إلى جلستي. تحاملتْ على انفعالاتها وجاءت تقبّل رأسي ووجنتيّ. دعتْ لي دعوة صالحة. أن يُسعدَ قلبي.

عادت إلى تختها وسحبتْ نَفَسًا، ضحكت لي وبدأت تغنّي: "يا من تعب. يا من شقى. يا من على الحاضر لقى". يحضر قوس الكمان في خيالي، جيئة وذهابًا. أناملي تداعب أوتارًا غير مرئيّة. أتربّع على الكنبة وصوتها العذب العريض يعيدني إلى غيمتي. يهدهدني فأنعس. أذهب إلى الجادريّة، أدور في نادي الفروسيّة، أبحث في الإسطبلات عن سماسم. فرسي المفضّلة التي كانت تحرن حتّى روّضتها. جاء سائس لا أعرفه وقال إنّ الأستاذ نقلها إلى حظائر قصره. تبيّن أنّها عربيّة أصيلة فاستولى عليها. يا من على الحاضر لقى...

أفتح عينيّ على تاجي وهي تغطّيني ببطّانيتها وأستسلم لمنامات متقطعة. كوابيسي غدونَ صديقاتي. أراني ثانية في حدائق النادي، أحضر حفل نجاته من الاغتيال الذي خلّفه مُقعدًا. ينهمر المطر ويفاجئ الساهرين، والمطرب يغنّي على المسرح. حنفيّات السماء تنفتح، والبلل يغرق الجميع. لا أحد يجرؤ على المغادرة. تقلب النساء كراسي البلاستيك فوق رؤوسهنّ، ويخلع الرجال ستراتهم ويحتمون بها. يدندنون "سلامتك من الآه" والماء يقطر من شواربهم. والأستاذ وحده تحت سقف يقيه زخّ المطر، يضحك على ضيوفه. يحجب قهقهاته طنين طائرات أجنبيّة في سماء الحفل. يغيب صوت الموسيقى.



مرّة أخرى شققت عينيّ على يد تضع وسادة تحت رأسي. حنان تاجي يُظلّلني. أذهب إلى قاعة الخُلد. أعزف مع أوركسترا المدرسة في حفلها السنويّ. أقف في الكواليس مع التلاميذ ننتظر إشارة المُدرّب فلاديمير. يبسط يديه، ويُفسح لنا لنتقدّم. نصعد ونأخذ أماكننا على المسرح. لكلّ عازف كرسيّه الخاص. أصل مكاني ويجلس الجميع ولا أجد كرسيّي. يقف المايسترو إيغور علييف ويعطي إشارة البدء رافعًا عصاه. وأنا أعزف على الكمان محنيّة الركبتين كأنّني جالسة. تتخشّب عضلات ساقيّ، ويضغط حذائي الروغان الجديد على قدميّ. أرى طارق عزيز ولطيف نصيّف وعبد الرزاق عبد الواحد في الصفّ الأول فأزداد توتّرًا. زملائي القريبون منّي يكتمون ضحكاتهم لأنّني أصعد وأنزل في جلستي الفكاهية وهم مرتاحون على كراسيهم.

أفتح عينيّ وأحكّ رقبتي، أترك ابنة الثانية عشرة تنطفئ من سينما رأسي.

٣٥

في ثلاث كلمات، يمكن وصف حياتي بأنّها تاريخ مضغوط في مُفكّرات. كرّاسات صغيرة أختارها بجلد مُقوّى وأكتب فيها مواجيز يومياتي. المواجيز جمع تكسير تعلّمته من أيام عملي في الإذاعة. أفضّل عليه الموجزات. أحفظها في حقيبة جلديّة خاصّة. أرتّبها حسب التسلسل الزمنيّ. عادة بدأت معي منذ أن غادرت



القدس ورافقتني حتّى استقراري في كاراكاس. تعدّدتْ المفكّرات وضاقت الحقيبة. أكتئب حين أحسب محطّات حياتي وأجد أنّني مغترب منذ سنوات زادت على النصف قرن. لم أكنز أموالًا مثل المغتربين الشوام الأوائل الذين جاؤوا إلى هنا واشتغلوا بالتجارة البسيطة. داروا في الشوارع يعرضون بضاعتهم على ربّات البيوت، صاروا مليونيرات من بيع الأمشاط والمفارش والكيلوتات. دفاتر مذّكراتي هي كنزي المُتراكم، أعود إليه فينشرح صدري. ثمّ لم أدرِ ما حدث. أهملته ولم أعدْ أُعِز أهميّة لتلك الحقيبة. أتحاشاها لأنّ الإطلالة على الماضي صارت تؤلمني. لولا الصوت الذي حمله لي الهاتف، قبل الفجر، وأقلق زوجتي.

ـ سيّد منصور؟

ـ نعم...

ـ أنت منصور البادي؟

ـ أنا هو...

ـ عيوني منصور شلونك، أنا تاجي، هل تذكرني، تاج الملوك؟

إنسحب عمري من تحتي وتركني مُعلّقًا فوق هاوية تشفطني، أواجه مروحة كبيرة شديدة الهواء. أحاول أن أعثر على المفردة العربيّة فتشمتُ بي ذاكرتي. مُحرّك نفّاث. كانت تاجي تسمّي المروحة بَروانة. أضحك في الهاتف ببلاهة. أخجل أن ترى ساقيّ هزيلتين في سروال البيجاما. أقف وأشدّ قامتي لكي أقبض على الشابّ الذي كُنْتُ. أبحث عن وجهها وراء الصوت الممزوج بالصدى، ولا أرى سوى صورتها، منحنية على سياج الباخرة، تبتعد ولا أعود أراها. حتّى الصورة فقدتها. أرسلت إليها طبعة منها ومزّقت



نسختي. لم أحاول أن أبحث عن النيغاتيف بعد ذلك. للبعض من الصور قدرة على التعذيب. مثل أصحابها. مثل صاحبتها.

لم أسألها أين تكون. ولا من أين جاءت برقمي. ليس وقت فوائض وهوامش. أردت الاستحواذ على كلّ ثانية من الصوت الذي عاد إلى أذني. أخشى أن ينقطع الاتصال ويسكت بلبل الإذاعة. هكذا كنا نسمّيها. بلبل الإذاعة. تركت لها كامل حصّتي من الكلام. تسألني عن التوقيت عندنا، وتعتذر لأنّها اتصلت في وقت غير مناسب. وددت لو أقول لها إنّ كلّ أوقاتها مناسبة، وإنّ شمسي أشرقت مع صوتها، لكنّني لم أنطق. هرعت أبحث عن قلم في الظلام، أسجّل رقمها قبل فوات الأوان، لئلّا يحلّ الطوفان وتبتعد سفينتها مجدّدًا عنّي. من أين آتي بالنوم بعد تاجي؟ رأيت مفكّرات حياتي كلّها تتداعى مثل أحجار الدومينو. آلاف الأوراق التي سجّلتها قبل النوم وحفظتها كما يحفظ البخيل دنانيره في حشوة الوسادة، تتطاير في فضاء مخدعي.

لا تهتمّ زوجتي الفنزويليّة حين تسمعني أتحدّث بالعربيّة. تتصور أنّها واحدة من الشقيقات تهاتفني من بيروت أو من الكويت. إنتظرتها حتّى ذهبت إلى النوم، وتسلّلت إلى الغرفة الصغيرة التي نخزّن فيها الأثاث القديم وعدّة الحديقة. سحبتُ الحقيبة الجلديّة ومسحت عنها الغبار بكمّ ردائي. فرشت المفكّرات على طاولة مكتبي، تحت المصباح المُوجّه. لم يكن ممكنًا العودة إلى ما هو أبعد من خمسة عقود. يستحيل لفّ البكرة وتشغيلها من البداية. كأنّ الماضي لم يَغِبْ. أعرف أنّني لن أجد يوميّات كراتشي. دفتران كبيران سجّلت فيهما، يومًا بعد يوم،



وقائع حياتي هناك. كلّ كلمة وحركة. كأنّني كنت أهجس بأنّني سأفتقد ذلك الفردوس المُوقّت. فسحة لا تُشبه ما قبلها ولا ما بعدها، لكنّني فقدت الكرّاستين، لا سهوًا منّي وإنّما عن عمد. "قَشطَني" بلهجة تاجي. تخلّصت منهما بجرّة قلم، كما يقولون، ليس بدونما نغزة في القلب.

وقع ذلك بعد حوالى العشرين عامًا من فراقنا. أعدمتُ دفترَي يومياتي بين سنتي تسع وأربعين وخمسين. كرّاستان كبيرتان لو ظلّتا معي لكانتا خير شاهدتين على كبائر وصغائر تحيل حكايتي مع تاجي رواية مكتوبة، لكنّ زلازل فلسطين وأخواتها كانت تعبر المحيط وتصلني بالتتابع. لم يفارقني، حتّى سنة سبع وستين، إحساسي الكامل بانتمائي وأصلي. هناك وطن عربيّ كبير لم تَزده هجرتي إلا تجذّرًا في تربة روحي. كنت، أتعقّب، إلى جانب عملي التجاري في فنزويلا، كلّ ما يحدث في بلادنا كأنّه يقع هنا، على الرصيف المقابل. هل كنت مجنونًا من مجانين العروبة، أم أنّ اغترابي زرع بذرة الذنب في تربة ضميري؟ أسأل نفسي وأنا أستلقي على السرير، بعد نهار عمل شاقّ، أعاند أجفاني النعسى لكي أكمل نشرات وكتبًا تصلني من بيروت أو القاهرة. وبلغ من انغماسي في قضايا وطني الكبير أنّني، في أواخر الخمسينيات، وضعت كتابًا بالإسبانيّة في أزيد من أربعمئة صفحة بعنوان "أرابيا". تاريخ مختصر معاصر للأمة العربية، مشرقًا ومغربًا. ومن أجل طباعة الكتاب، قمت برحلة إلى الأرجنتين. كانت تلك فرصة لأن أعمل، لفترة قصيرة، في مكتب جامعة الدول العربيّة في بوينس أيرس.

هناك، تعرّفت على زوجتي الأولى التي انتهى بها الأمر إلى اليأس



من أن أرعوي. ضاقت بشغفي العروبي. كانت تُسمّيها "اللوثة القوميّة". لوثة لم تفارقني حتّى بعد عودتي إلى فنزويلا. وعندها اكتشفت أنّ الجنون ليس مضيعة للعقل على طول الخطّ. وهو في حالتي، يمكن أن يطرح ثمارًا. والدليل أنّ حماستي أثمرت كتابًا آخر بعنوان "عشرة أعوام ماجدة"، تتبّعتُ فيه تاريخ مصر الحديث في زمن عبد الناصر، وأوضاع فلسطين بمقيميها ولاجئيها، وحرب السويس، وصولًا إلى ثورة الجزائر. ومرّة أخرى، طويتُ أوراقي تحت إبطي، وقمت برحلة إلى تونس، سنة ستين، لأجتمع ببعض قادة حرب التحرير الجزائريّة، وأنقل أخبارهم إلى صحف فنزويلا.

جريتُ على قدميّ وأعصابي لتأدية ما كنت أراه الواجب الوطنيّ. حتّى جاءت نكسة سبع وستين وضربتْ هامتي. كَسَرتنا كلّنا. خرجنا نطلب تينًا وأعنابًا وزيتونًا وعدنا برماد. تصوّرتُ أنّني، من دون كلّ الناس، تلقّيت الطعنة في لحمي. كنت بعيدًا تصلني أخبار أهلي في الرسائل. أسمع محنة الفلسطينيّين في نشرات الأخبار. لم أرَ بعينيّ نكستهم يوم دخل دايان القدس وعربد جنوده فيها، لكنّني تخيّلت فداحة ما عاشوا، رغم تقشّف رسائلهم في الإسهاب إشفاقًا عليّ. ومع كلّ ذلك، لم أفقد الأمل. كنت في عزّ رجولتي ونشاطي. قلت لنفسي إنّ أمامنا كلّ ما تبقّى من القرن العشرين لنردّ صاع الهزيمة صاعين. كيف كان لي أن أتصوّر أنّنا سنحمل قضيتنا على ظهورنا حتّى القرن التالي؟ توهّمتُ أنّنا سنستعيد الأرض وستعود نعيمة ديوانجي، أمّي، إلى بيتها في فلسطين. توهّمتُ وما نسيت.

لم يكن سقوط ما تبقّى من القدس في يد إسرائيل هو ما أوقع



القطيعة بيني وبين ماضيّ. كان هناك عاملان آخران مُساعدان. أثفيتان من الأثافي الثلاث التي لا يستقيم قِدْر على موقد بدونها. دخولي إلى جامعة فنزويلا المركزية للحصول على الليسانس في العلاقات الدوليّة، وتفوقّي في دراستي، ثمّ زواجي ثانية. طبيبة فنزويليّة كان حظّي معها طيّبًا، وجدتُ ما كنت أحتاج إليه من هدوء واستقرار نفسيّ. صرت أبًا لابنتين أخريين. وكنت قد تركت ابنتيّ من زواجي الأول مع والدتهما. لا أدري لمَ لمْ تتملّكني، أنا وحيد العائلة بين أربع شقيقات، لهفة أن يكون لي ولد ذكر من صلبي. ما نفع النسب في أرض لا جذر لأجدادي فيها؟

مع اقتراني بواحدة من نسائها، ما عدت غريبًا في فنزويلا. تفتّحت أمامي آفاق جديدة. رأيتني مُحاطًا بالتقدير الذي يثلج صدر أيّ مُهاجر، فكيف إذا كان ينوء تحت وطأة خسارة كبرى؟ وبينما كانت ذيول فقدان القدس تُرخي نسيج حماستي، فقدت الأمل الذي بدا لي مهزوزًا مثل حبل غسيل في عاصفة، يوشك على الانقطاع في أيّ لحظة. هنا، في مهجرك البعيد، بين أحفاد حضارة الإنّكا، سيكون مقامك يا ابن البادي إلى ما شاء الله. توكّلتُ عليه ورحت أتقدم بدأب نحو الاندماج في مجتمعي الجديد. لا أعلم إن كنت راغبًا في دفن الماضي، أو أن أتناساه بحكم تقادم المشاعر وضمور الهَوَس الأوّل.

صباح يوم عطلة، من أوائل سنة تسع وستين، بينما كنت أتفقّد أوراقًا قديمة، عثرت على مُفكّرَتَيّ كراتشي مطروحتين في قعر الحقيبة الجلديّة ذاتها. لم يهتزّ قلبي كما توقّعت. مرّت عيناي فوق أسماء ووقائع وأماكن فارقتها من عشرين عامًا فحسب، لكن ما



يبعدني عنها كان بُعد الأرض عن المرّيخ. وكما السائر في نومه، أخذت المُفكّرتين وفتحت صندوق النفايات. ألقيت فيه حكايتي مع تاج الملوك. ستأتي عربة جمع القمامة وتأخذ الحكاية وتلوكها وتلفظها لتذروها الريح. نصبح أنا والحبيبة في العدم. ولم أشعر بالخطأ إلّا بعدما مرّت عشرون عامًا أخرى. فكانت حسرتي على أشدّها. كأنّني الكُسعيّ الذي ضربوا المثل بندامته. أردّد أبيات الفرزدق وأنا مندهشٌ من رسوخها في حافظتي:

"نَدِمْتُ نَدَامَةَ الكُسَعِيّ لَمّا غَدَتْ مِنّي مُطَلَّقَةً نَوَارُ

وَكَانَتْ جَنّتي، فَخَرَجْتُ منها كَآدَمَ حِينَ لَجّ بِهِ الضِرَارُ

وَكُنْتُ كَفاقىءٍ عَيْنَيْهِ عَمْداً فَأصْبَحَ مَا يُضِيءُ لَهُ النّهَارُ"

لم أندم على لجوئي العارم التامّ إلى بلادي المُتبنّاة. لكنّ الحيف أخذني على التخفّف من مذكّرات وأوراق وكتابات تسجّل ما قطعتُ من دروب. كنت كفاقئ عينيه عمدًا، ولم أكن علّامة بالغيب لكي أعرف أنّ صوت تاجي سيحطّ في أُذني الكليلة، بعدما اشتعل الرأس شيبا. كتبتُ رقمها وتعدّدتْ مكالماتنا الليليّة. مراهقان أشيبان يجريان للّحاق بقطار في محطّة خُلّبيّة. تلاحظ زوجتي فاتورة الهاتف وتتذمّر. نُقلع عن الهاتف ونتبادل العناوين. نتكاتب مثل محمومَين وأعود إلى ترقّب ساعي البريد وانتظار الخطّ المنمنم على ورق رقيق. وفي ختام كلّ رسالة من رسائلي، كنت أطلب منها أن تشكر الآنسة وديان لأنّ لها الفضل في ما نحن فيه من صبا يتجدّد.

لكنّ حبيبة عمري مرضتْ، بعضًا من ذلك الشتاء، وتأخّرتْ رسائلها. صحوت ذات ليلة والعرق يغمرني. تسلّلتُ إلى المطبخ



وعببتُ ماءً باردًا. سحبتُ ورقةً وكتبتُ لها أنّ كاراكاس بدون حسّها رتيبة وخاوية. ولم أكن أبالغ. قامت وحدتي من سباتها وأثقلتْ عليّ. وكانت شقيقتي التي جرّت قدميّ إلى هذه البلاد تقيم مع أسرتها في مدينة أخرى. والعاصمة، بملايينها الخمسة، عاجزة عن أن تُشعرني بالدفء الذي يغمرني به صوت تاجي. خَلَتْ كاراكاس من حولي مثلما خَلَتْ كراتشي في ذلك المغيب الرهيب، بعد ابتعاد باخرتها.

خفتُ عليها ممّا قد يلمّ بها من وهن، فهي لم تعد صغيرة. لم نعد صغيرين كما كنا في الإذاعة. ولا بدّ من لقاء قبل فوات الأوان. عليّ أن أرتّب رحلة إلى باريس، وحدي، بعد أن أعثر على حجّة مناسبة تُقنع زوجتي وابنتيّ. كأنّ القدر كان عازمًا على أن يتلطّف بي. فبعد فترة وجيزة جاءت الفرصة مُفصّلة خير تفصيل وعلى المقاس.

دُعيت للمشاركة في وفد رسميّ إلى المؤتمر العامّ لليونسكو، بمعيّة الرئيس شافيز.

٣٦

إنقلبت مواقيت تاجي منذ أن استرجعت رعشة دمها. تحتضنني وتقبّل رأسي. تقول وتُعيد إنّني أنا من "وَصَلَها" بحبيبها الضائع، وستبقى تذكر لي هذا الفضل. أنتبه إلى استخدامها مفردة الوصال التي لم أكن أسمعها سوى في



الموشّحات أو الأغاني المصريّة. أشعر بالحرج لأنّها تمنحني حصّة من عاطفتها المحفوظة للشابّ الذي قابلته في كراتشي. فتحت الحلقة الثنائيّة، ودعتني إليها فصارت ثُلاثيّة. ظلّت كُرياتها الحمر شاحبة، في حالة كُمُون، ثمّ توهّجتْ مرّة واحدة. نهضتُ من فراش النسيان والتحقتُ بالدنيا.

- تاجي... كأنّك تولدين من جديد.

- بل أقوم من موتي مثل أليعازر!

لا يبدو لي أنّني أعرف أليعازر. قد يكون أحد هؤلاء المشايخ الذين بدأوا يزورونها في الأشهر الأخيرة أو ربّما ممثّل قديم تحبّه وتسترجع أدواره. ترمي عليّ الشخصيات والأسماء، بدون توضيح، وتفترض أنّني أشمّ ظهر يدي، قادرة على التكهنّ بالقاصي والداني طالما أنّني عثرت لها على الفلسطينيّ في كومة قشّ. أتأمّل أحوالها وقد غدت مخلوقة ممتلئة بذاتها وبحبيبها. خلعتْ العالم ولم تعد تلقي كثير اهتمام لنشرات الأخبار في مذياعها الذي لا يصمت. صارت هي الحَدَث، وتحوّل صبحها مساءً وليلها فجرًا.

في خضمّ تلك الموجة من حماستها، ذهبتْ واشترتْ ساعة ثانية تعلّقها على الجدار، قبالة سريرها. تدلّها الساعة القديمة على الوقت في باريس، والجديدة مضبوطة على توقيت كاراكاس. تعرف متى يرقد حبيبها ومتى يستيقظ. مواعيد فطوره وعشائه ودوائه. تختار الأوان المناسب لكي تطلبه وتروي له ما فات من وقائع عاشتها بعيدة عنه. يتحادثان ولا يوقفهما سوى فاتورة الهاتف. يحدث أن أكون عندها، أستمع إلى زقزقاتها، بدون قصد. بل فلأكن شجاعة وأعترف. أتنصّت بقصد وترصّد. أرى حمرة الخجل



تصعد إلى وجهها، فتعاودني غيرتي وأتأجّج نقمة. أتضوّر من جوعي وتبهتُ خيالاتي الانفراديّة التي لا تُسمن ولا تُغني. ليت لي كسرة يابسة من رغيفها الطريّ. حسنًا فعلتُ حين أوقفت المكالمات واستبدلت بها الرسائل. ليس للمكاتيب أصواتٌ تستفزّ تقشّفي.

لم يصرفها ظهور العاشق الغائب عن دروس التجويد. واصلت دعوة الشيخ إلى بيتها لكي تتقن التلاوة. إستشارته واستقرّ رأيها على الآيات التي تنوي تسجيلها. كنت أظنّها فورة وستخمد، لكنّ تاجي عندما تنوي، تفعل. كانت لديها صديقة فرنسيّة متزوجة بكاتب إسلاميّ معروف. داعية في حلقات حوار الأديان. سمعها تجوّد سورة مريم وتلبّسه سحرها. شجّعها وساعدها في مشروعها. وجدت مدام شامبيون مُنتجًا لها. وبعد خمسة أشهر كانت أسطوانتها الرقميّة تستقرّ على رفوف "فيرجن" في الشانزليزيه. أذهب معها إلى المكتبة ذات الطوابق العديدة لكي تتفرّج على القسم المخصّص للتسجيلات الروحانيّة. أخاف عليها ونحن نهمّ بالسلالم الكهربائيّة، وأقترح عليها المصعد. تسبقني وتقفز على الدرجة الأولى وتلتفتُ لتلوّح لي. نصل إلى القسم المطلوب ونبحث عن حرف "تي". ترى على الرفّ الغلاف البرتقاليّ ذا الزخارف الإسلاميّة، وتطفر دمعتها. أفرح لفرحتها، وأكاد أصيح بالزبائن المحتشدين في شرفات الطوابق الخمسة: هذه هي تاج الملوك!

كلّ يوم لها قصّة. نزلت معي وأخذنا التاكسي إلى مونبارناس. طلبتْ من السائق أن يأخذنا إلى مقهى "سيليكت". أعطت



موعدًا هناك لروائيّ عراقيّ جاء من كندا، تعرفه من أيام بغداد. نزلنا ووجدنا الرجل في انتظارنا. العلامة أن يحمل جريدة "لوموند" في يده. كان هناك ثلاثة يقرأون العدد الجديد من الصحيفة، لكنّها عرفته وعرفها. لو كانت أمّي هنا لقالت: "الدم يحنّ". تعانقا عناقًا طويلًا والتمعت أعينهما من التأثّر.

ـ شلونك نعيم؟

ـ وأنت كيف حالك يا ستّ تاجي؟

ـ ما شاء الله عليك بعدك شباب...

ـ وأنتِ... الضحكة نفسها.

أشرب قهوتي بوَجَل، مأخوذة بمنظرهما. تسعينيّان يتضاحكان بصخب مراهقَين. هذا هو، إذًا، نعيم قطّان، المترجم اليافع الذي كان يذهب إلى مجلّتها بالسروال القصير، يزوّدها بالتقارير الدولية لمجلة "الرحاب". أحسبها في رأسي، وأجد أنّهما التقيا قبل ولادتي بأكثر من ثلاثين عامًا. فصيلة من خراتيت تقاوم الانقراض. تقدّمني إليه، تقول إنّني كنت عازفة في أوركسترا بغداد. يلتفتُ نحوي باهتمام. يسألني عن اسم عائلتي. أرتبك وأتمتم بأيّ شيء. لا أريد أن يجرّنا الحديث إلى وقائع هربتُ منها. أسمعهما يأتيان على ذكر أشخاص وأماكن امحّتْ من ذاكرة المدينة. لم يعرف جيلي قَرَنْدَل ولا حَبَزْبوز ولا الهَوَزْوَز. تسميات تليق بقفص زرازير. يهديها رواية كان قد نشرها بالفرنسيّة عن هجرته من العراق. يخرج بؤبؤاي من محجريهما، كما في أفلام الكرتون، ويستقرّان على العنوان: "آديو بابيلون". وداعًا يا بابل. أفهم من كلامه أنّه يهوديّ. أفزع:



ـ أنت إسرائيلي؟

ـ لا تخافي، أنا مواطن كَنَديّ.

كلّ يوم لها قصة. جاء فريق من التلفزيون إلى شقّتها وصوّرها وهي تجوّد القرآن. تغطّي شعرها بوشاح ملوّن وتبهر السامعين. ولم تكن تلك سوى البداية. أخذها صديقها الداعية، بعدما أتقنت التجويد، لكي تشارك في ملتقيات الحوار بين المذاهب والعقائد. موضة فرنسيّة للتصالح مع الإسلام، الدين الثانيّ في البلاد. صارت تاجي، بثقافتيها العربيّة والفارسيّة شخصيّة معروفة في تلك الأوساط. تحمل وشاحها في حقيبتها، وتلبّي الدعوات للتلاوة. يرسلون إليها السيّارات إلى شقّتها، ويدورون بها من هذه الكنيسة إلى ذاك الكنيس. يرحّبون بها هناك أكثر من المساجد. الاختراقات النسائية لا تعجب الأئمّة، حتّى لو كانت المرأة من جيل الخنساء، لكنّ تاجي لا تتراجع. تذهب وتأخذ مكانها تحت القبّة، أو أمام المذبح، وترفع الصوت بآيات القرآن. لعلّها طريقتها في استغفار ربّها بعد سيرة هَرَجْمَرَجيّة. لم أنسَ تلك الصورة التي رأيتها فيها بثوب أبيض وكاهن يصبّ الماء على رأسها.

ـ هل تعمّدتِ يا تاجي مثل النصارى؟

ـ تعمّدتُ، يا عزيزتي، بكلّ المياه الصافية.

ـ هي توبة، إذًا؟

قصفتني بنظرة رادعة. لأوّل مرّة أراها بتلك الضراوة. يتدفّق استنكار فضّ من عينيها، تدور في الغرفة وتعود للجلوس. تهمّ بالكلام وتتراجع. تواجهني مثل لاعب يتحفّز لنقلة صعبة أمام رقعة شطرنج. تتحدّث عن امرأة لم تُغضب ربّها إلا بالحبّ. لم



تقتل ولم تسرق ولم تؤذِ نملة. تختار صيغة الغائب كأنّها تقصد كائنة لم تعد موجودة. تستدرك:

- حتّى عندما كتبتُ التقارير لم تكسر رقبة أحد.

ينحبس صوتها وتنتحب بصوت مخنوق، بدون مقدّمات. تمسح عينين حمراوين وتعاود الشهيق. خفتُ عليها ولمتُ نفسي. أنا شرّانية. بأيّ حقٍّ أنصّب نفسي ديّانة لتاجي؟ أمدّ لها كأس ماء بارد فتهدأ وترضى. زعلها سريع، وغفرانها سهل، وطيبتها زبيبتها على جبهتها. تستعيد أنفاسها وتمدّ يدها تقرص أنفي. تعدّل ظهرها وتنتصب كما الناقة عند النهوض. أعرف أنّها ستقول شعرًا. عاشرتها وحفظتُ حركاتها. تدفع رقبتها إلى الأمام:

- "أستَغْفِرُ الله إلّا منْ محبّتِكُمْ فإنّها حَسَناتي يومَ ألقاهُ
فإنْ زعمتِ بأنّ الحُبَ معصيّةٌ فالحُب أجمل ما يُعْصى بهِ اللهُ".

- مَنْ الكافر الجميل؟

- العباس بن الأحنف يا غشيمة.

تكون في أحسن حالاتها حين تغرف من محفوظاتها. لها ذاكرة فيل. لا تنسى اسمًا ولا تاريخًا ولا بيت شعر. لا تتعب من مراجعة أرشيفها الراقد تحتها. لم تتوقّف عن المذاكرة. تسمعني أصِفُها بالمرأة العجيبة، فتُطلق ضحكتها ودموعها لم تنشف بعد.

- تقصدينووندر وومن؟

- بل فريدة زمانك...

تدعوني معها إلى المطبخ لكي تعدّ فطيرة التفّاح. سيأتي لوسيان،



حفيدها، لزيارتها. رأيته عندها مرّات كثيرة من قبل. كان على خلاف مع والديه ويقيم عند جدّه، زوجها الذي انفصلت عنه. ثمّ توفّي الجدّ وبقي وحيدًا. ومع موت الكومندان الفرنسيّ تحرّرت تاجي من وثاق مدام شامبيون. تحاول استدراج لوسيان للسكن معها. تغريه بأطايب الطعام ودفق الحنان، لكنّه يتملّص ويحبط أملها. أمّا الحفيد الأكبر، ابن ابنتها، فلم ألتقِ به سوى مرّة واحدة حين جاء من بلدة تونون لأمر من أموره. تأمّلتُ وسامته وأنا أحاول أن أتخيّل ملامح جدّه الفارسيّ الذي أغواها. من منهما غرّر بالثاني؟ أراقبها وهي تفرد العجينة الجاهزة وتفرشها في صينيّة الفرن. نصيحة أولى: "لا تستخدمي السكّر الأبيض يا وديان لأنّه ضارّ بالصحة. حلاوة الفاكهة تكفي". أراها تُقطّع التفّاح كيفما اتّفق، مكعّبات أو حلقات، تصفّها على وجه العجينة. نصيحة ثانية: "القطع المتناظرة شغل آلات، وفطيرة ستّ البيت عشوائيّة شغل يديها". ترشّ قليلًا من القرفة المذابة بماء الزهر على الوجه وتُتبعها بالنصيحة الثالثة: "لا تنسي تثقيب العجينة برأس السكين لكي لا تقبّ، وكذلك تسخين الفرن مسبقًا". أتذكّر كتاب الطبخ العراقي لنزيهة أديب والعبارة الشهيرة: زجّي الصينيّة في الفرن.

يأتي لوسيان ويقف وسط الصالون بقامته الرياضيّة. هو أيضًا وسيمٌ مثل إله. "بو كوم ديو"، كما يقول الفرنسيّون. يلتهم نصف الفطيرة على عجل ويشرب شاي جدّته المُنكّه بحلاوة إصبعها. يقوم ليلحق بموعد ما. هناك دائمًا موعد ينتظره. تقوم وراءه وتستحلفه أن يعود ليبيت عندها. جهّزتْ له غرفة بلحاف جديد. إشترت له ستائر تحجب الشمس لكي ينام حتّى الضحى.



يحتضنها ويرفعها عن الأرض ويقبّلها أربع قبلات صائتات ويذهب. يكون عليّ أن أمضي الليلة معها لأنّها مشحونة مثل بطّارية جديدة. تطلب مَنْ يصغي إليها.

ـ هل صحيح أنّ والد لوسيان كان من أبطال الحرب؟

ـ وله أوسمة وأنواط ونياشين من هنا إلى هنا.

تشير بيدها إلى عرض صدرها، من الكتف إلى الكتف. تنظر لي مثل جروٍ حزين وتهمد ملامحها. كأنّني فتحت معها موضوعًا مُحرّمًا. أسألها عمّا بدّل أحوالها فأسمع منها خليطًا من وقائع لا رابط بينها. تشير إلى صناديقها المدسوسة تحت فراشها وتتطلّع نحوي بفزع. تهمس بأسماء فرنسيّة غريبة وتتحدّث عن وقائع تجعل شعري قنفذًا. سهرنا ونمت عندها. على الكنبة المقابلة لتختها. كان ما قالته لي جنونًا وشككتُ في سلامة عقلها. ضربها الخَرَف الذي يضرب كبار السنّ، لكن ما كان في صناديقها من تصاوير جعل عينيّ تنزرعان في جبيني. ها هي تاجي وسط رهط من الضبّاط يؤدّون التحيّة للعلم الفرنسيّ. وصورة أخرى لها تركب جملًا عند الأهرامات.

ـ متى كنتِ في مصر؟

ـ أخذوني مع كوماندو لاغتيال بن بلّة!

جُنّت المسكينة. هذه ليست تاجي التي أناديها يا أمّي وتعاملني كصغيرتها. كانت تضع قناع التنكّر وتستعيد هويّتها الفرنسيّة. خفتُ منها وممّا ترويه. أنا لاجئة صحيّة في باريس. وحيدة لا قريب لي. وسمعي نصف نصف. لا حاجة لي بعلاقات مشبوهة تنتهي بطردي من هذه البلاد. لا مكان أذهب إليه.



حدود وطني الأمّ مغلقة، وجيوش العالم تحتشد لضربه، لكنّ الشلّال كان قد بدأ في التدفّق ولا سبيل لصدّه. تدحرجت شليلة ذاكرتها أمامي. أجري للإمساك بخيوطها فتفلت وتنسلّ.

رأت هلعي ولم تحاول تهدئتي. جاءت وتربّعت قبالتي على الكنبة ووضعت يدها على رأسي. كأنّها تباركني، أو تُشهدني على ما تقول. صندوق أسود تكتّمتْ عليه طويلًا، وما عادت تطيق ثقله. ولو لم يذهب زوجها لملاقاة ربه لما تفوّهت بكلمة.

- يقتلونني والله لو عرفوا أنّني فتحت فمي!

- من هم؟

- الأجهزة السريّة. أكثرهم مات، لكن منهم من ما زال يظهر في التلفزيون.

لم يحبّها مسيو شامبيون. ظلّت تتصوّر أنّها هي التي سعت وراءه لكي يتزوّجها. ثمّ صارحها، في لحظة غضب، أنّه تلقّى أوامر بالتقرّب من المرأة الأجنبية التي تقيم لدى فلانة. وصلتهم معلومات عنها من إدارة مستشفى الولادة. شابّة مثار شبهة. وكان من تلقّى المعلومات أنفًا مرهف الشمّ. وجد فيها صيدًا ثمينًا. أجنبيّة تتكلّم لغات عديدة، سجّلت وليدتها باسم أب إيرانيّ غائب يحمل لقبًا أميريًّا، وفرنسا الخارجة من الاحتلال ما زالت تغسل عار التعاون مع النازيّ. لا تعرف كيف تتخلّص من صداعها في شمال أفريقيا والغايات في السياسة تبرّر الوسائل.

نفّذ سيريل شامبيون، الضابط في وحدة مكافحة التجسّس، الأوامر التي تلقّاها. كان حديث الطلاق من زوجته الفرنسيّة وقد تدبّر أمره للتعرّف على تاجي. لبّى دعوة عشاء أقامتها مضيفتها



بمناسبة الاحتفال براهب ثائر لا يشبه الرهبان المنطوين على أنفسهم وعباداتهم. يقوم بحملة لإيواء المُشرّدين. يحبّه الفقراء ويرون فيه قدّيسًا. في يوم الأب بيير، سنة ست وخمسين، قابلت تاجي الكهل ذا النظرات النافذة. أغرتها بزّته العسكريّة. عرفت أنّها وقعت على ضالّتها. الرجل الذي سيلمُّها. وبعد ذلك جرت الأمور ماءً في منحدر. أدَّت أمامه الوصلة التي تجيدها. رمت من جانبها الشصّ وابتلع من جانبه الطُعم. جرّدته من السترة ذات الشرائط والنجوم وتفرّجت عليه عاريًا. أعجبها بياض جلده، والشعر الأشقر الخفيف على ساقيه. قرّبت وجهها من عينيه الباردتين الملوّنتين مثل زجاج الكاتدرائيّات. لم يكن مُتعجّلًا، ولم تكن مُتلهّفة. ورغم متانة عضلاته تعاملت معه كأنّه آنية من خزف ليموج. فرشت خصلاتها على صدره. قبّلته ثمّ سحبت شفتيها. لم يعجبها لسانه السريع في فمها.

- خفّفْ الطوربيد يا كومندان.

مهما لوّنت الوقائع فإن تاجي تبقى صريحة مع نفسها. لم تكن تبحث عن زوج شابّ ولا عن حبّ جديد. كانت تريد سَنَدًا يحتويها في البلد الغريب ويحمي ابنتها. وقامت من جانبها بما يلزم. وبعد خمسة أسابيع تزوّجها الضابط الفرنسيّ ونقلها مع ابنتها إلى بيته. كان زير نساء. عرفتْ فيما بعد أنّه يوقع بهنّ ليحصل على أسرار رجالهنّ. قال لها إنّ جوزفين بيكر تولّهت به. كان هو صلة ارتباطها بالمقاومة الفرنسيّة أثناء الحرب. هل كان على الزوجة الصغيرة أن تفتخر لأنّه فضّلها على مغنية سوداء رقصت عارية إلّا من حزام موز؟



لم تشعر، في أيّ لحظة، بأنّه مغرم بها. كان، في البداية، يتفحّصها ويراقبها. يستجوبها ويدقّق في أقوالها. ولعلّه أحبّها فيما بعد. نكهة مختلفة ومذاق لاذع. أصغر منه كثيرًا. لها جاذبيّة شرق دوّخ مستشرقين ومغامرين وشعراء ورحّالة. أسال لعاب الجواسيس. أمّا هي، فلم تحبّه. جرّبتْ واجتهدتْ ولم تُفلح. كلّما اقترب منها أخذتها خيالاتها إلى منصور البادي. لا تفكّر في الساحر المحتال سليل القاجار. كان قد عرض عليها أن يتزوّجها في السرّ ورفضت. بحثت عنه لتخبره أنّها حامل فلم تجده. تبخّر من خرمشاه ومن أصفهان ومن طهران ومن فوق الكرة الأرضيّة. غاب شهرين ثمّ بعث لها من رتّب لها أمر السفر إلى فرنسا. لم تحقد عليه. حماها من الفضيحة في إيران. روحها رحبة تتقبّل الأوادم والأوغاد. رآها وتنزّه تحت أفياء أنوثتها وأمضيا أوقاتًا لذيذة. لم تفكّر مطلقًا في التخلّص من الجنين. سيكون من سلالة الشاهات، حتّى لو لم يعترفوا به. يكفي أن تعرف هي ذلك. ثمّ ولدت طفلة نسخة منها. جلدها بلون الشاي بالحليب، وشعرها ناعم أجعد. وحتّى ابنها الذي ولدته من الفرنسي، أخذ عنها العينين السوداوين. لا يشبه أباه الأشقر الأصهب الذي يحمل اسمه.

يوم سألتْ زوجها عن الجنسية، أجاب بأنّ عليها أن تؤدي لفرنسا ما يستوجب حصولها عليها. بدأت تفاصيل عمله تتكشّف أمامها. كان يطلب مساعدتها في بعض المهمّات العاديّة. إنصات إلى الإذاعات الخارجية. ترجمات من العربيّة والفارسيّة. حفلات مع قناصل وملحقين عسكريّين. صداقات مع زوجاتهم. كأنّ عجلة



التاريخ لا تملّ من التكرار. تذكّرت جلستها أمام بهجت العطيّة في مكتبه واستنكارها لما طلبه منها.

- تريدني جاسوسة؟

كلّهم يريدها للمهنة الحقيرة وهي مُجبرة على المسايرة. تكبر مُهمّاتها وتتشعّب. تعرّفت على أنواع الأسلحة وتعاملت مع الخفيفة منها. تدرّبت على المراوغة والتنكّر والإفلات من المطاردة. عليها أن تتعلّم ملاحظة كلّ صغيرة وكبيرة. تصبح جاهزة لعمليّة خطيرة. التخلص من مجرم من كبار مثيري الشغب في الجزائر. عرض عليها زوجها عدّة صور للهدف، منها ما هو مشوّش وبينها صورتان واضحتان. قال إنّ في رقبته دماء كثيرة. يكره فرنسا ويعتدي مع رفاقه على نساء وأطفال أبرياء لا ذنب لهم. لم تكن تُصدّق كلّ ما يقول، لكنّه زوجها.

إسم الهدف: أحمد بن بلّة.

مكان التنفيذ: القاهرة.

رافقتْ مارتين شامبيون فريق الاغتيال. رجلان وامرأتان. القائد هو زوجها الذي شرح لكلّ واحد دوره ودرّبه عليه. مُهمّتها تشخيص الهدف، والتأكّد من هوّيته واستدراجه إلى مكان مأمون. ثمّ يتدخّل الفريق ويُكمل العمل. استعرض الكومندان أمامها أكثر من وسيلة للاستدراج. حاولت الاعتراض فقال لها إنها ستبقى بعيدة ولن تتلّوث يداها. هي مجرّد مترجمة للفريق. تتبادل بضع كلمات بالعربيّة مع الهدف. تتأكّد من لكنته وهوّيته. لا مكان للشفقة مع مخرّب يستحقّ العقاب. ينتمي إلى عصابة من المتمرّدين. تسمع متمرّدين فتومض روحها. هؤلاء من فصيلتها.



لم تكن كلمة مجاهدين متداولة، ولم يقل لها سيريل إنّ الفريق المرافق لها من منظمة الأيدي الحمر.

أطلعها زوجها على تقارير تؤكّد أنّ الهدف موجود في القاهرة منذ سنتين. وصلها في صيف ثلاثة وخمسين، والتحق بإرهابيّين آخرين كانوا يأخذون السلاح من عبد الناصر. يهرّبونه بحرًا إلى سواحل الجزائر. يمرّون بموانئ سريّة في ليبيا وتونس. غير أنّ بورقيبة اشتبك معهم واعترض على مرور البنادق. تشجّعت قليلًا وهي تسمع أسماءً تعرفها وترنّ في أذنها. لم تحبّ عبد الناصر لأنّ نوري باشا لم يكن يطيق سماع اسمه. أمّا بورقيبة الذي قابلته في بغداد، فلم يعد ذلك المحامي الباحث عن دعم من زعامات العرب. تفاوض مع فرنسا سلميًّا ثمّ نفض يديه منها. عاد إلى بلده وقاد ثورة مُسلّحة وحقّق ما يريد، لكنّ بن بلّة نمط آخر. تقول التقارير عنه إنّه خدم في الجيش الفرنسيّ وشارك تحت رايته في الحرب العالميّة الثانية. كان رقيبًا في كتيبة للقنّاصة مقرّها مرسيليا. نال وسامًا بعدما أسقط ببندقيته طائرة ألمانيّة، لكنّه انقلب على فرنسا وانضمّ لمنظمة سرّية تعمل ضدّها. قبضوا عليه وحاكموه وسجنوه في بليدة. هرب من السجن والتحق برفاق له من المتمرّدين الجزائريّين، موجودين في القاهرة.

كانت مهمتّها أن تذهب كلّ صباح إلى مقهى على النيل. أخبرهم جاسوسهم هناك أنّ الهدف يتردّد عليه. تجلس في الشرفة وبيدها صحيفة "الأهرام"، تتظاهر بمطالعتها وهي تشرب القهوة وتراقب الواصلين. بينما يكمن بقية الفريق في موضع مقابل. هي



الوحيدة بينهم التي تتكلّم العربيّة. تميّز بين اللهجات وتجيد التقرّب من الغرباء. حتّى إذا رأت الهدف يصل المكان تطوي الجريدة وتستخدمها مروحةً أمام وجهها. يلتقط فريق الاغتيال الاشارة ويفهم أنّها شخّصته. ستقوم وتمرّ من أمامه وتتعثّر ويلتوي كاحلها. من الطبيعي أنّه سيهبّ لنجدتها ويساعدها على بلوغ الرصيف الذي تزعم أنّها ركنت فيه سيارتها. تلحقها دراجة هوائيّة يقودها فرد من الكوماندو. أداة التنفيذ بندقية أُسطوانيّة رفيعة مثبّتة على الجانب، داخل منفاخ العجلة. رصاصات نحو الهدف ويعود السلاح إلى مكانه. تبتعد الدراجة كأنّ شيئًا لم يكن. وتسير هي على نحو طبيعيّ وتنصرف مع باقي الفريق في سيارة تنتظرهم. في سنواتها اللاحقة، كلّما سمعت عن حادث اغتيال غامض، قالت: "فتّشوا عن الدراجة".

أربعة أيّام وهي تقرأ "الأهرام" والهدف غائب، لا يظهر في المقهى. حتّى كان الصباح الخامس.

ـ اسمعيني يا وديان واحفظي ما أقول. ضميري لم يكن أسود وأنت شاهدتي بعد موتي. جاء أحمد بن بلّة وعرفته من الصور. لم يكن لديّ أدنى شكّ. نظرت إلى الشابّ الفارع أمامي ولا أدري ما أصابني. تزاحمت الأفكار في رأسي. تذكّرتُ شهداء الوثبة في بغداد. حزني في جنازتهم. غضبي على الانكليز. عطشي للحريّة. هل أنا أقرب إلى هؤلاء الفرنسيّين من مسلم مثلي؟

في لحظات قصار، هي البرهة بين زفير فاسد وشهيق نقيّ، استعادت مارتين شامبيون رشدها. لم تتردّد كثيرًا وهي تنكث وعدها لفرنسا. إنها جريمة قتل، وهي لن تكون شريكة فيها.



طوت جريدتها ولم تحرّكها أمام وجهها، انتظرت نصف ساعة ثمّ قامت وخرجت من المقهى. خطواتها هادئة وعقلها محموم. تنظر إلى النهر ويُخيّل لها أنّ النيل يحيّيها. مضتْ نحو زوجها ورفاقه وهي تهزّ رأسها.

ـ لم يأتِ... معلوماتكم غلط.

ـ والرجل الطويل إلى اليمين؟

ـ ليس الهدف.

لا يملك الكومندان أن يُكذّب زوجته. بفضلها أثقلتْ الميداليات صدر بزّته العسكرية. ساعدته، بعد اقترانه بها، في عمليات خطيرة ما بين باريس وجنيف وطهران. الشاه حليف الغرب ولا بدّ لباريس من إحباط تحرّكات معارضيه. ما زالت أنواط سيريل شامبيون وميدالياته تقبع في أحد الصناديق تحت سريرها. حفظت أسراره وكسبت ثقته، لكنّها لم تحبّه. يحزّ في نفسها أنّها حملتْ منه ثلاث مرّات، وأجبرها على أن تجهض. وفي الرابعة رفضت أن تفتح ساقيها لتلك المرأة الكريهة، قاتلة الأجنّة. هدّدت زوجها بأنّها ستُذيب سمّ الفئران في الحليب وتشربه.

وضعت مدام شامبيون ولدًا بعد سبعة أعوام من الزواج، ابنها الذي يزورها في الأعياد. تحبّه لكنها تكره اليوم الذي ولد فيه. حكاية ستبقى تذكرها في التاريخ نفسه من كلّ عام تالٍ. لم تحتفل، مطلقًا، بعيد ميلاد الولد. كانت عصريّة صيفيّة قائظَة. خرجت إلى شرفة شقّتها تدفع بطنها أمامها، تطلب نسمة هواء، انحنت تستند إلى السياج، وأحسّت بماء دافئ يسيل على ساقيها. تصوّرت أنّها تبوّلت بدون إرادتها. خجلت أن يراها الشبّان



والشابّات في الشارع. كانوا يحتفلون بالعيد الوطنيّ الفرنسيّ. لا أحد يلتفت لها. أدركت أنّ ساعة الولادة حانت وقد طقّ ماء الرأس. كانت قلقة لأنّ زوجها في مهمّة خارجية. خرجت تستنجد بجيران نقلوها إلى المستشفى. لم تكن تتألّم. تركتها الممرضات على سرير الفحص حتّى وصل الطبيب. سألها عن لكنتها وعرف أنّها من بغداد. قال وهو يضع السمّاعة على بطنها:

ـ قتلوا ملككم هذا الصباح.

ـ ماذا تقول!

ـ صرتم جمهوريّة مثل فرنسا... في التاريخ نفسه!

ـ والوصيّ على العرش؟

ـ الأخبار تؤكّد أنّهم أعدموا كلّ العائلة المالكة.

شقّت صرختها فضاء الغرفة. إحتضنت بطنها بيديها وأغمضت عينيها على دمع حرّاق. إرتبك الطبيب وجاءت القابلة تهرول. تصوّرت أنّ الطلْق يشتدّ والطفل آتٍ. لكنّ مدام شامبيون لم تكن تتمخّض. ندبتْ أحبابها ولطمت خدَّيها. عادت إلى أصلها، امرأة من كاظميَّة بغداد، تقبض الفاجعة أنفاسها، وجسدها كلّه ينتفض. شكّ الطبيب في أنّها مصابة بالصرع. خاف على الجنين وأمر بنقلها إلى صالة العمليات لتوليدها بقيصريّة. هناك خرج ابنها إلى النور. ولمّا فتحت عينيها من البنج واستعادت وعيها، عاد شلّال دموعها إلى الانهمار. عاد الطبيب يتفقّدها، تلك الليلة، في غرفتها. تصوّرها تبكي لأنّها وحيدة وزوجها ليس معها. أحضر لها طبعة جديدة من "فرانس سوار" لكي تقرأ تفاصيل الانقلاب. عيناها غائمتان متورمتان وعقلها لا يصدّق أنّ الشعب هناك



يسمّيها ثورة. كرهت، في تلك اللحظة، العراق والعراقيّين. تبكي والدكتور الواقف على رأسها لا يفهم حزنها ودموعها.

ـ ليكن اسم الطفل أوغست...

ـ لماذا؟

ـ تيمنًا بالقدّيس أوغسطينوس، ابن الدموع. ظلّت أمّه تبكيه عشرين عامًا.

ليذهب كلّ القدّيسين إلى الجحيم لأنّ السماء لم تمنع المجزرة. لو كان الأمر بيدها لسمّت الولد "فيصل"، لكنّ زوجها وصل بعد يومين وكان سعيدًا بالمولود وغير مرتاح لحزن الوالدة. وافق على الاسم الذي اختاره الطبيب وكتبت الممرّضة المسؤولة عن السجلّ المدنيّ أنّ الطفل أوغست شامبيون رأى النور في التاسعة وست دقائق من مساء الرابع عشر من تموز سنة ثمان وخمسين.

٣٧

إيلبادي. هكذا اعتادوا أن يلفِظوا اسمه في الجامعة. ترجمت زوجته منصور إلى فيكتور. يتقبّله منها على مضض، ويرفض أن تناديه به ابنتاهما.

ـ رفيقي القائد، أقدّم إليك البروفيسور إيلبادي.

وقف الكولونيل آرياس سعيدًا وهو يرى شافيز يصافح أستاذه القديم ويشدّ على كفّه بحرارة. كانوا يحضرون مؤتمرًا جامعيًا في ماراكايبو. وبدا واضحًا أنّ الرئيس لم ينسَ صاحب الكتاب الذي



كان قد قرأه في السجن. أمّا منصور البادي، فلم يعرف بأيّ لقب يخاطب شافيز. رجلٌ لا يحتاج سوى لاسمه المجرّد. يحبّ أن يُدعى كومبانييرو، لكنّ أستاذ الجامعة الفلسطينيّ لم يكن رفيقًا من الرفاق، ويشعر بالحرج من رفع الكلفة بينهما. لم يسمح ذلك اللقاء بحديث طويل. ثمّ جاءت فرصة ثانية، بعد عامين. كان منصور يلقي محاضرة حول الحدود البحريّة لفنزويلا، ووجد هوغو شافيز جالسًا في الصفّ الأوّل بين الحضور. لم يتململ العملاق في المقعد الضيق وواصل الإصغاء حتّى النهاية. ثمّ شارك في النقاش. وقبل أن يغادر، طلب نسخة مطبوعة من المحاضرة.

ما كان للبروفيسور أن ينتظر شيئًا من مصافحاته التي تَكرّرت مع الرئيس. بضعة استشارات عابرة في خمسة أعوام، تترك غبطة وحرارة في الكفّ، مع شيء من الاطمئنان. ينام قرير العين حين يعرف أنّ عمله في تلك البلاد لم يذهب قطرة في بحرها. طلّابه يُقدّرونه، وبناته يتباهين به، والكولونيل آرياس يتفقّده، والرئيس يتابع ما ينشر من بحوث ومقالات. تقدير يُرضي النرجس البريّ الموجود في كلّ نفس، لكنه، بعدما تخصّص في قوانين الحدود وأشبعها تدريسًا وتأليفًا، لم يعد له ما يرجوه سوى أن يتقاعد من الجامعة. كان في السبعين. يريد أن يتفرّغ للعائلة ولاستكمال كتابه عن التاريخ المعاصر للعرب. ثمّ تلقّى مكالمة قلبت كلّ مخطّطاته. على الخطّ، وزير الخارجية يدعوه إليه.

كان يستقبل ابنتيه من زوجته الأولى لقضاء رأس السنة في بيته. وقد حضرت شقيقته وزوجها لزيارتهم مع أبنائهما. أقامت في مدينة شمال البلاد، وجمع زوجها ثروة من كلّ أنواع التجارة.



يسمع ضجّة بناته الأربع تتعالى وتختلط بأصوات أولاد أخته. خمسة ذكور ما شاء الله. يبتهج وهو يشارك شباب العائلة وصباياها في ألعابهم وشجاراتهم. يلتفت إلى شقيقته فيرى عينيها دامعتين. أمِنْ سخونة فنجان المريمية أم من التأثّر؟ كبرت، لكنّه ما زال يعاملها وكأنّها صغيرة الأمس.

ـ شو يا أختي؟

ـ فعلناها يا خيي... أسّسنا سلالة عربيّة في فنزويلا.

لا يدري كيف مرّ العمر عليه في القارّة البعيدة. لم يكن يدري أنّ واحدًا من تلك السلالة العربيّة سيصبح سفيرًا لفنزويلا في عاصمة لا تبعد عن القدس كثيرًا. قام ودار حول مقعد شقيقته ووضع يديه على كتفيها. دفعتْ رأسها إلى وراء فقبّل شعرها الغزير. هنّأها بانقضاء قرن، وحلول ألفيّة جديدة. إنتبه إلى البياض الذي يندسّ في خصلاتها مثلما كان قد تسلّل إلى رأسه. حاول أن ينغمس في أجواء العيد، لكنّ عقله في مكان آخر. ماذا يريدون منه في الخارجيّة؟ مرّ أسبوع وهو مشغول الفكر. لا بدّ أنّهم سيطلبون دراسة إضافيّة حول الحدود. هكذا طمأن نفسه قبل اللقاء. يبقى المهاجر مسكونًا بخشية الغريب مهما تقدّم في المراتب.

إبتسم وزير الخارجية بأوسع من المعتاد وهو يستقبل البروفيسور البادي في مكتبه. أبلغه أنّ الرفيق شافيز أصدر أمرًا بضمّه إلى اللجنة الرئاسيّة لتسوية الحدود مع الجارة كولومبيا.

ـ ما رأيكم؟

ـ وهل لي رأي أمام رغبة الرئيس؟



كانت علاقاته قد توطّدت في أروقة الحكومة وتعدّدت سفراته إلى كولومبيا. غمره التأثّر، في إحدى تلك الرحلات، يوم وقف يلقي خطابًا قصيرًا في سانتا مارتا، على ساحل الكاريبيّ. هناك، في تلك البقعة ذاتها، لفظ سيمون بوليفار النفس الأخير، سنة ١٨٣٠، ورقد جثمانه في كاتدرائيّة المدينة. وبعد أربعة عشر عامًا نقلت رفاته لتدفن في فنزويلا، حسب وصيته. صار له في كلّ مدنها، وفي الدول المجاورة لها، شارع يحمل اسمه، أو ميدان، أو مطار، أو مدرسة. كلّ يُمجّد بطل التحرير على هواه. وكان منهم تاجر وضع اسم بوليفار على أفخم سيكار كوبيّ.

لم يكن الوضع في كاراكاس مستقرًّا على طول الخطّ. ففي بلاد الانقلابات السعيدة يكفي عود ثقاب ليشعل غابة. تحيّن معارضون لشافيز الفرصة للانقلاب عليه. وتعرّضت حياة منصور البادي للخطر بسبب جهوده في ترسيم حدود فنزويلا والحفاظ عليها من التعدّيات. نشاط لا يناسب المهرّبين والعصابات المسلّحة والخارجين على القانون. خاف على عائلته وكتب خطابًا مهذّبًا يستقيل فيه من مهمّته كرئيس للجنة الحدود. وبعد أسبوع جاءه الرد:

ـ الرئيس يرفض أن تترك العمل العامّ.

ـ لكنني متعب وأنوي التقاعد...

ـ هناك سبع عواصم تنتظر تعيين سفراء لنا فيها. ما عليك سوى الاختيار.

قرأ القائمة واتّصل بزوجته وابنتيه يطلب آرائهن. ولم ينتظر. وقع اختياره، بدون تردّد، على أنقرة.



مع موسم أزهار الإجّاص، وصل سفير فنزويلا الجديد إلى تركيا في ربيع ٢٠٠٣. غادرها مع خامس خريف تاركًا فيها بصمات ترضيه. تمثال لسيمون بوليفار في حديقة عامّة. وفي حديقة أخرى منحوتة نصفيّة لفرنسيسكو ميراندا، بطل الاستقلال الفنزويليّ في القرن الثامن عشر. ولأمر في نفسه، فإنّ أهمّ ما قام به، هناك، إلغاء تأشيرات السفر بين البلدين. كره السفير المولود في فلسطين كلّ أشكال الفيزا. ظلّ محرومًا من المرور إلى مسقط رأسه. كما بقي يتعذّب وهو يقبض على سراب محو الحدود بين بلاد العرب.

ليلة سفره، كتب في يوميّاته: "لن أنسى الصداقات التي عقدتها في أنقرة مع سفراء ووزراء خارجية وموظّفين محلّيين، أو مع برهان سائق سيّارتي، وحتّى لو نسيتهم فسأحتفظ بنظرات كديجون، الهرّة الآتية من فان، شرق تركيا، حيث تشتهر القطط بأنّ لكلّ عَين لونًا يختلف عن العين الثانية". مرضت كديجون ولم ترافقه في عودته إلى كاراكاس. خمسة أعوام من العمل الدبلوماسيّ الأنيق، بالقبعات الشتويّة والمعاطف الكشمير، كانت كفيلة بأن تخلخل تلك العودة.

خرج إلى التقاعد بسبب السنّ. بلغ الثامنة والسبعين ووجد الفرصة، أخيرًا، لكي يهتمّ بأسرته وأصدقائه ومكتبته ومذّكراته. قبل كلّ شيء صحّته. تفقّد أخبار العائلة الكبيرة والشقيقات وأبنائهنّ وأحفادهنّ. يا لاتّساع رقعة الشتات! بدأ بتدوين تاريخ آل البادي منذ الجدّين الكبيرين حتّى أواخر العناقيد. ساعدته على الكتابة ذاكرته المتوقّدة التي تتعكّز على عشرات الكرّاسات التي



تجمّعت في الحقيبة العتيقة، واليوميّات والصور. أراد أن يسجّلها بالعربيّة ثمّ تذكّر أنّه يكتب لجيلين لم يعرفا فلسطين، ولا بيت البقعة، ولا حزبون في القدس، وستتبعهما أجيال جديدة موزّعة في المهاجر والمنافي. إختار أن يُفرغ حمولته بالانكليزيّة التي يفهمها الجميع. لا يعرف إن كان بين الأحفاد من سيهتمّ ويقرأ.

خطر بباله أن يترك لهم حكايته مع الصحافيّة العراقيّة التي عرفها في كراتشي، ثمّ أحجم. هذه تميمته الخاصّة التي تحميه من الجفاف وجلطات الدماغ. غضب عليها لأنّها تركت باريس يوم سنحت لهما فرصة اللقاء هناك. ثمّ غفر لها الألم الذي سبّبته له. ليس بين المُحبّين اعتذارات. حاول أن يتفهّم ما شرحته له تلك الشابّة اللطيفة، صديقتها وديان الملّاح. فزعتْ تاج الملوك خانم من أن يراها عجوزًا بعدما عرفها مثل القمر. كيف لم تدرك أنّه سيراها بعين القلب، لا بالعدسات الحديثة؟ لا بدّ أن يجد فرصة ثانية لكي يلتقيها في باريس، وخصوصًا بعدما تحرّر من قيد الوظيفة. لن تفلت منه هذه المرّة. إنّه يحفظ عنوانها وسيفاجئها وهي تحت شقّتها، تطعم قطط الحيّ، كعادتها، مع المغيب.

كتب لصديقتها يصارحها بخطّته وردّت عليه ترجوه أن ينتظر. إنّ قلب تاجي لا يحتمل المفاجآت، لكنّها وعدته بأن تتولّى تدبير اللقاء.

ـ أخشى أن تهرب كالمرّة السابقة...

ـ سأضع خلخالًا ثقيلًا في قدميها.

ما عليه سوى أن ينتظر إشارة من الستّ وديان. لم يتوقّع أن



تكون يوميّاته راكدة، بعد التقاعد، كلّ هذا الركود. يخطر بباله أن يذهب بجوازه الفنزويليّ لرؤية القدس، لكنه يفضّل أن يموت دونها على أن يطلب الفيزا من سفارة المُحتلّ. حتّى الأحلام مقنّنة. وهو، حين ينام، لا يمدّ أحلامه أبعد من الغطاء. يتمنّى، أيضًا، رحلة كان موعودًا بها، معها، إلى بغداد. تكون دليلته فيها. يحتاج إلى حجر يحرّك ماء الشيخوخة. يشقّ صفحة بحيرتها ويترك رذاذًا وفقّاعات وشُهُبًا ونيازك. سدادة شمبانيا تنفجر.

ركود تامّ. وحتّى شافيز صار مثل عنب حلب. حصرم بعيد لا سبيل إليه. كان يلتقيه، سابقًا، في مناسبات كثيرة، بدون رسميّات، لكنّ الأمر اختلف بعد التقاعد. يتّصل طالبًا موعدًا فيسألونه عن السبب. يمتنع عن الجواب فيمتنعون عن تحديد موعد. وإذا سايرهم وافتعل سببًا للزيارة، أحالوه إلى الدائرة المُختّصة. هل يذهب إلى المناسبات العامّة التي يعرف أنّ الرئيس يرعاها، ويقف في طريقه لكي يراه ويستدعيه إليه؟ لا يليق بالسفير السابق أن يفعل ذلك. عزّة النفس ومهابة العمر لا تسمحان. ثمّ إنّ البلد قد تغيّر كثيرًا خلال غيابه في تركيا. تحوّلت حركة التحرير العالميّة التي كان شافيز يقودها إلى مهزلة حزبية ترفع شعار الاشتراكيّة وتنطوي على استبداد محليّ. لم يكن لدى أستاذ الجامعة الكثير ممّا يمكن أن يفعله أو يقترحه في أوضاع مثل تلك، انزوى وراء أسوار بيته يراقب الثائر المثاليّ في تحوّلاته الدراماتيكيّة إلى ديكتاتور.

لا أحد يفهم مونولوغات البروفيسور البادي. حواراته المحتدمة مع ذاته.

لا أحد يهتمّ.



٣٨

إنتظرت تاجي أن يردّ صدّام على رسالتها. تستيقظ مُبكّرة وتدير مذياعها الأثريّ الصغير وتسمع الأخبار. تستدعيني لأنّها مريضة والبرد يفتّت عظامها. أذهب إليها وأجدها مشغولة بمسلسل أسلحة الدمار الشامل، تتوقّع بادرة إيجابيّة من بغداد، تهدئة مع الجالس في البيت الأبيض. يذهب بوش ويأتي كلينتون. يذهب كلينتون ويأتي بوش. تفرّ يدها ساخرة:

ـ خوجة علي ملّا علي.

ـ من أين تأتين بهذه الأمثال؟

ـ أمثالنا إرث أمّهاتنا.

تقول مراسلة التلفزيون الفرنسيّ من بغداد إنّ الرئيس طلب من كلّ مواطن ومواطنة أن تكون له حكايته الخاصة في مجابهة العدوان الثلاثينيّ. ليس أشطر منّا في توصيف البلوى. أرادها قصص بسالة وعناد وشموخ وانتصارات. وقد كان له ما أراد، مع اختلافات بسيطة. إحتفظ كلّ عراقي وعراقية بحكايته عن الحرب والدمار والدماء والخسارات. خمسة وعشرون مليون ليلة وليلة، بعدد نفوس البلد. تعبر الحدود وتصل إلينا فأنزع السمّاعتين وأشكر ربّي على الصمم.

كنت نائمة عندها في تلك الليلة الرهيبة التي ستبقى محفورة بالشيش الساخن في صدر كلّ منّا. كنّا في كانون، وتاجي مريضة



بنزلة برد شديدة. حنجرتها تكويها، وسعالها يخنق أنفاسها. صار لي فراشٌ دائمٌ في شقّتها. تابعنا معًا التلفزيون. رأينا الحشود وحاملات الطائرات والبوارج تتّجه نحو الخليج. تركنا العشاء باردًا وأطفأنا الضوء. تركت التلفزيون صورة بلا صوت وغطّيت تاجي بعدما سمعت شخيرها. كنت أتقلّب بين صحو ونوم حين رنّ هاتفي. صديقة تتصّل من لندن:

- إفتحي "السي أن أن".

كلمتان لا أكثر. بحثتُ عن لوحة المفاتيح بين طيّات غطائي ورفعتُ صوت التلفزيون. حاذرتُ إيقاظ العجوز وأشفقت عليها. تفرّجت، وحدي، على بغداد وهي تُقصف. القاذفات تنطلق وتصفر بالتتابع، تحيل ليل المدينة نهارًا. شبّت النار في دشداشتي وبين ضلوعي. لا يمكنني الاستئثار بالفاجعة. هززت تاجي ففتحت عينيها. من نظرة واحدة فهمتُ أنّ ما نخشاه وقع.

- قربانك يا ربّي... سترْك.

لم تسعل ولا اشتكت من وجع ولا بكت أو تأوّهت. تتمتم بالآيات وتتركني أنشج وحدي، أفكّر في أمّي وإخوتي وجيراننا في الكرّادة. بيوت وادعة مكشوفة للطائرات والقنابل. أتذكّر حرب إيران وصفّارة الإنذار واحتمائي بحضن أبي في المجاز بين الغرف. موقع آمن بعيد عن الشبابيك. مات أبي وارتاح ولم يشهد مأساتي. لن يشهد مأساة البلد. أفكّر في أخوتي فتغافلني صورة يوسف وترتسم أمامي. أين هو في هذه اللحظة؟ خفت عليه ولمتُ نفسي على تفكيري فيه. يا لقلبي الذي يستحق أن يُضرب بنعل عتيق. ما زال يفزع لذكراه. حبيبي النذل المُقرّب من أهل



الحكم. سيهرب مثلما أرى الجنود يهربون في الفجر. يخلعون الخاكي ويتبعون جرف النهر. أبكي وأصلّي. يا إلهي لتكن نارهم بردًا وسلامًا على أهلنا هناك. وعلى يوسف. ليس ذنبه. ليس ذنبي. سيق بنا وبكثير من أمثالنا إلى المهازل. من يأبَ تضِع حياته، ومن يخضع يخسر كرامته.

وابن الشيخ الذي كان سببًا في مأساتي، أستاذ الأساتذة، أيّ مصير ينتظره؟ أستحقُّ الضرب ثانية بالحذاء القديم. لم يكن قلبي صافيًا ولا هو بحاقد. مرّت أسابيع قلائل ورأيته على إحدى الفضائيّات ممدّدًا في ما يشبه المشرحة. غطّيت وجهي وانحبس تنفّسي. صدر مشقوقٌ وملموم كيفما اتّفق. أرتعش من البرد ونحن في تموز، وأتطلّع إلى الشاشة من بين أصابع كفّيّ. لم يخرج صوتي وأنا أقول إلى جهنّم وبئس المصير. تتشكلّ اللعنات في رأسي ويتبرّأ منها لساني. رأيت لقب الأستاذ يسقط عن الجسد المثقوب والمكشوف لكاميرا أميركيّة. لحقت به ألقاب أخرى صالحة وفاسدة. لم أعرف هل أطلب له المغفرة أم العقاب. يوم الدين ليس شغلي. أتذكّر فحيح صوته قرب وجهي وهو يراقصني مُقعدًا. قهقهاته المجنونة وهو يُسلّط عليّ موسيقى الصمم. سبحان المنتقم الجبّار. ليس أفظع من جثّة قاتمة منفوخة، رتقوها بالإبرة والخيط.

قلت إنّها خاتمة سمفونيّتي الحزينة. تمهيد للنسيان. حان الوقت لأنّ أقلب الصفحة وأستريح. العقل البشري صندوق معقّد. يستبقي ويستبعد. مثل الكومبيوتر. يحفظ ويُلغي. أعقد آلاف المرّات من صندوق الكمان. لم يعدْ لي غيره وسيبقى خشبه



الصقيل ملاذي من بشاعة ما يحدث هناك. أستدعيه في المُلمّات. آلةٌ شخصيّةٌ تنسج علاقة بعازفها. أسندها إلى صدري وأتواصل معها. حميمة جدًّا لأنّها تلامس وجهي ورقبتي وتحتكّ بذقني. كلّما عزفت على كماني ازدادت صداقتي معه وتطوّرت إلى حبّ، وإذا اضطرّت لتغييره فإنّ عليّ أن أبحث عن حبيب يشبهه. أنقل العلاقة القديمة إلى الكمان الجديد. ألجأ إليه هاربة من صور الدمار. أقرّر أن أبقى في حماه وأطرد العراق خارج جمجمتي. أحاول ألف مرّة وأفشل. يأتي ويشدّني من شعري ويعيدني إلى الحظيرة. يلعب معي الوطن جرّ الحبل. يسحبني بأخباره المتتابعة الثقيلة فأعتصم بحبل موسيقاي وأشدّ الحبل بالبهيّ من ذكرياتي. أرتجل معزوفتي الخاصّة في أحرج الأوقات.

تطوّعت، يوم جئت هنا، لتدريس الموسيقى لأطفال الضواحي. أداري السمّاعتين تحت شعري المُرسل وأؤدّي المهمّة بأفضل ما أقدر عليه. سمعتْ مديرة الجمعيّة عزفي وأعجبها. رتّبت لي حفلة ثنائيّة في مبنى البلديّة، بمرافقة عازف على البيانو. فرحت لأنّني سأعود، أخيرًا، إلى المسرح، وأستعيد مرونة أناملي وصفاء روحي. أخرجت كماني من الحقيبة، وكنت قد جئت به بترابه. لم يكن لدينا في بغداد خبراء صيانة كما هي العادة في فرنسا. يأخذ الموسيقيّون، هنا، آلاتهم إلى الخبراء ليعاينوها، مثلما يذهبون لإجراء الفحوص لدى الأطبّاء، أو كما يعرضون كلابهم وقططهم على البياطرة.

بدأت تمريناتي قبل ثلاثة أيام من الحفلة. وصلت إلى الوتر الرابع، نغمة الـ "مي"، فإذا به يُصدر أصواتًا مكتومة. أهذا وقت



اختناقك يا وتر؟ اقترحت عليّ المديرة أن نأخذ الكمان إلى "اللوثِييه"، أي صانع الأعواد، وكان رأيه أن يفتح الصندوق لتشخيص الخلل. وافقنا لأن لا خيار آخر أمامنا. أنجز المهمّة وأنا واقفة بجوار طاولة العمليّات، أخضع لعملية قلب مفتوح. نظرت إلى العوّاد بهلع ورمقني بإشفاق. كانت حشرة الإرضة قد أكلت الخشب، وتشقّق وجه الكمان. أصدر العوّاد تشخيصه:

ـ أحتاج إلى أسبوع لعلاجه.

ـ والحفل؟

ـ سأعيرُك كمانًا آخر...

سبرتُ، يومها، عمق العلاقة بيني وبين آلتي. أمسكت بالكمان المُستعار لأتمرّن عليه ولم أركّز كثيرًا في انسجامنا، انصبّ اهتمامي على الناحية الفنّية وحفظ النوتات. جاء يوم الحفل ووقفت على المسرح وبدأتُ العزف. كاد يُغمى عليّ. أمرّ بالقوس على الأوتار فلا أتعرّف على الصوت الخارج من الآلة. أضغط بأصابعي على الأوتار فتترك أثرًا على جلدي، لكنّني لا أشعر بيدي تلمسها. سال العرق على رقبتي، وتسلّل إلى فتحة فستاني "السواريه". لأول مرّة يذبل الحرير الأسود الناعم الذي اعتدت ارتداءه في حفلاتي، ويلتصق بجسدي. حتّى قلادة اللؤلؤ ضاقت على عنقي وراحت تشدّ عليه. إنّها لعنة كماني المتروك في دكّان العوّاد الغريب، المريض باختناق يشبه هذا الاختناق.

نذر عليّ، حين يلتقيان على يدي، أن أخرج بالكمان إلى الشارع وأعزف لهما الفصول الأربعة لفيفالدي. سأحتفل بمجيئه هذه المرّة، وبتاجي، وبنفسي. مقدسيّ وبغداديّتان، تفصل بينهما سنوات لا



تشبه ما يمرّ على أعمار الناس العاديّين في البلاد الطبيعيّة. ولهان مخضرمٌ وعاشقتان مغدورتان. جنازة وطنيّة رمت بالأولى خارج الحدود، وحفلة تنكّرية طردت الثانية من جنّة السماع. لا أدري منْ منّا النبيذة. ولا مَنِ القادرة على تحدّي زمنها. لست أنا بالتأكيد.

سيأتي العاشق اللاتينيّ، وسأكتب له وصفة تصلح للنسيان، أو لبعض منه.

٣٩

كم تغيّرت مدام شامبيون منذ اليوم الذي قابلتُ فيه سنيور البادي. لم أدرِ هل حقًّا قابلته أم شُبّه لها. صارت أسمالًا بلا روح. جلد رقبتها مُتجعّد يتهدّل على ياقة بلوزتها العتيقة. بان عمرها الحقيقيّ، وهطلت عليها زخّة أوجاع. كلّ ما في جسمها يؤلمها إلّا لسانها. يدور واهنًا بين اللغات، رتيبًا لا يتوقّف. تحكي وتغنّي وتهلهل وتولول وتصلّي. لم أعرف لسانًا يئنّ بين حرف وآخر. آخ ظهري! الحقيني يا وديان. آخ كتفي! آخ رأسي! آخ رُكبتيّ!

ـ كفاك تئخّين!

ـ وأنت كفاك عبثًا باللغة الجميلة.

ـ أتريدين أن أعزف لك؟

ـ بل غنّي لي يا نبعة الريحان... أحبّ سليمة باشا.

ـ صارت تغنّيها القرعة وأُم الشَعَر.



ـ ما يخالف. أحبّ أسمعها. جسمي نحَل والروح ذابتْ وعظمي بان...

كأنّها تصف نفسها، وهزالها المكسوّ بجلد زادته التجعّدات سُمرة. روحها تذوب، وجسمها ينحلّ، لكنّ عقلها لا يزال يشتغل. مرسيدس موديل الخمسينيّات تطوي دروب قرن جديد. يكحّ المحرّك ويعطس ويختنق ولا يتعطّل. ذاكرتها مُنقّحة مَزيدة. تنتقي ما ترضاه من ماضيها، وتضرب صفحًا عمّا عداه. كيف كان لي تصديق كلامها وعودة منصور البادي إلى باريس، مرّة أخرى؟ مضت سنوات على غيابه، لكنّ الدبيب القديم تملّكه. كتب لي أنّه آتٍ قبل أن أكتب له، وأرتّب التفاصيل. وَفى المُتيّم العجوز بالوعد وعاد ليلتقي تاج الملوك. لم أسمعه، مطلقًا، يختصر اسمها. بل كان يُلحقه بخانم.

أمّا أنا، فلم أفِ بنذري. لم أعزف لهما فيفالدي في لحظة العناق. بقيتُ خارج الصورة رغم أنّني من رسم إطارها وهَنْدَسَ تفاصيلها. كلّ ما أعرفه أنّ البادي وصل إلى باريس وبقي فيها يومين، ثلاثة، ثمّ غادرها على عجل. أيّ شيطان رأى هنا؟ اتصل بي، عند الوصول، يسألني عن الترتيبات. أمليتُ عليه العنوان والمكان وساعة اللقاء، اخترت لهما البقعة التي أحبُّها أكثر من غيرها في المدينة القديمة. كلّما مررت من هناك حلمتُ بأنّني ذاهبة إلى موعد مع يوسف. ذهب خطيبي إلى مكان آخر فاضمحلّ آخر خيط من ثوب عرسي المؤجّل. توقعتُ أن يعتقلوه بعد الغزو لأنّه من أصدقاء الأستاذ، لكنّ ما حدث كان أفظع. خطفه مجهولون وطلبوا مبلغًا باهظًا. إتّصلتْ بي إحدى القريبات



من بغداد. قالت إنّهم يتنادون لجمع الفدية. هرعت إلى البنك وسحبتُ القليل الذي عندي. كدت أبيع قرطَيْ جدّتي الألماس، هدية أمّي في خطوبتي. لا زينة تنفع أذنين معطوبتين. أرسلتُ النقود مع مسافرين إلى هناك. منفيّون كثيرون كانوا يعودون لقطف ثمار الديمقراطيّة. شجرة طرحتْ لنا المُرّ. تسلَّم الخاطفون النقود ولم يظهر يوسف ولا أنا حزنتُ. غيابه يُجدّد أملي. كلّما عدت إلى شقّتي أتلفّت لعلّه يكون واقفًا في المنعطف. أدور في متنزّهات باريس أختار المكان الذي سنجلس فيه، نتبادل قبلات علنيّة مثل عشاق المدن الصحيحة. أكذب على نفسي وأسير مفرودة القامة، حتّى لو مررت بواحد من المُشرّدين الذين أخشى تحرّشاتهم. والجريدي لو سكر يمشي على شوارب البزّون.

عند الحوض المستدير لنافورة العرائس الملوّنات، تلك التي قرب مركز بومبيدو، اخترتُ أن يكون لقاء تاجي بحبيبها. كنت كمن يطبخ السُمّ لمريضَين يائسَين يطلبان موتًا رحيمًا. لن أذهب معها وأرى المشهد الحميم. فلو كانت خطّتي صحيحة لن يكون هناك مشهد على الإطلاق. قدتُ تاجي من يدها وتركتها في مدخل الزقاق القديم المؤدّي إلى النافورة. لتذهب إلى موتها وحيدة بدون عبثي. عدت إلى بيتي ونظرت ورائي قبل اجتياز الباب. لم أرَ يوسف. صعدت وأعددت لنفسي الشاي، وألقيت بنفسي على كرسيّ المطبخ. غمست إصبعي في القدح وارتشفت رشفة أولى. فشل آخر. ليس لإصبعي مذاق شاي العجوز. نمت سبع عشرة ساعة. وبعد يومين جاءني صوتها فذهبت إليها. حاذرتُ أن تقرأ التشفّي في ابتسامتي.



- بَشّرِيني يا أمّي؟

- خير.

تسكت لتثير فضولي. تستجمع كلّ ذخيرتها الأدبيّة وترسم لي سيناريو اللقاء. تتوشّح بخَفَر العذارى وتسرد عليّ حكاية من زمن المنفلوطي. قرأت "تحت ظلال الزيزفون" في صغري وبكيت طوال يومين. لكن ما أسمعه من تاجي لا يهدهد رومانسيّتي، بل يقرص أذنّي. يزدري بخطّتي. لم أرِدْ أن أصدّقها. تمنّيت لو أعفاني صممي من سماعها. لا مهرب من نبرة صوتها:

- ألستِ أنت، يا وديان، من قادني إلى هناك؟ نزلنا من التاكسي في بولفار سيباستوبول وسرتِ معي حتّى اقتربنا من النافورة، لكنّك فجأة اختفيتِ. بحثتُ عن ذراعك أتوكّأ عليها فلم أجدك. كأنّك أمّ العروس، تعتني بزينتها وتدفعها إلى الحفل وتتوارى في الزاوية. ولم يكن أمامي سوى تنفيذ ما اتفقنا عليه. جلست على الحافة الحجرية للنافورة الكبيرة أترقّب حضور عريسي. كان نهارًا دافئًا اختارته السماء خصّيصًا لنا. رأيتُ عشرات السيّاح يخلعون نعالهم ويدلون بأرجلهم في ماء النافورة. أولاد وبنات من عمر أحفادي. يتصايحون بكلّ اللغات. وأنا مثلهم. مراهقة خلعت عمرها، وواعدت حبيبها. أتأمّل العرائس الملوّنة العملاقة الطالعة من وسط البِركة. ألوم نفسي لأنّني لم آتِ إلى هنا من قبل. لا بدّ أنّ من نحتتْ هذه المخلوقات المجنونة امرأة عاشقة. ماذا قلتِ اسمها... نيكي؟ نيكي دو سان فال. نحّاتة عاشقة ومجنونة. زرعت وسط النافورة دجاجة خضراء تحمل بيضة ورديّة على ظهرها. وكانت هناك شفتان



قانيتان تطوفان فوق الماء وشمس بأذرع كثيرة ملتوية وأفاعٍ تشرئبّ مثل لوالب راقصة على قدم واحدة. هذا شغل امرأة مثلي، ينبض قلبها بالحريّة. أجلس بتنّورتي الخضراء وشعري المجعّد، أدندن بالأغنية التي اتفقنا عليها. تلك كانت فكرتك في أن أقصّ شعري وأصبغه بلون مناسب. لا هو أبيض كما كان، ولا أسود للتصابي. نزلتُ إلى الكوافير، تحت بيتي، وخرجت بشعر خليط من ملح وفلفل. أضع نظّارات الشمس على عينيّ وأتفرج على النافورة. قلبي يخفق، ونفسي تطير شعاعًا مع رشاش مائها. أرصد الرجال المتنّزهين، وأرفع النظّارة وأدقّق فيهم. أنتظر وجهًا لا يمكن أن أنساه. دسّ لي صورته في آخر رسائله، لكنّني ما احتجت للصورة. قلبي استدلّ عليه وأنبأني: ذاك هو. تنسّمت رائحته قبل أن تلتقي نظراتنا. شمّيت ريحته والله! ما زال عرقه في أنفي. الولد الخجول الذي مسّته شرارتي في كراتشي قبل... أوه... قبل التاريخ! وهو أيضًا ميّزني قبل أن يسمع غنائي. تعرّف على الفوح الذي أدهن به شعري. قصدني بدون نبعة الريحان. دار حول السياج الواطئ واتّجه نحوي. كان يرتدي قبّعة باناما بيضاء تتدلّى حافتها فتكاد تحجب عينيه. حسنًا فعل. لو رأيتهما لارتفع ضغطي ودختُ وانفضحتُ أمام الخلق. وصل إلى مكاني وما حاد عنّي. قال إنّ عينيه اصطادتاني من درب سنة. وقف أمامي ورفع قبعته فانخسف صوتي. ما عدت قادرة على مواصلة الغناء. "ما عندي كلّ ذنوب إلا هوى المحبّ...". مدَّ لي يده ومددتُ يدي. انتشلني من كتفيّ وساعدني على النهوض. رفعني إليه فارتحتُ على



صدره. تعانقنا عناق موت. بأشواق متراكمة طبقات، محفوظة بين القلب والحشا. عُمر عاش في سبات وانتفض يَقِظًا. شعرتُ، يا صغيرتي، بنسغ الحياة يسري تحت جلدي. نخلة مُصبّرة قاومتْ الجفاف واقتصدتْ بالشحيح من ماء واحتها. لا أدري إن كنت قد بكيتُ أو أنّ دموعه هي التي بلّلت خدّي. تركنا النافورة وراءنا وباريس كلّها ومضينا إلى فندقه. غرفة بجدران ذهبيّة وشراشف ذهبيّة ووسائد ذهبيّة. دلفنا تحت الغطاء والتصقنا التصاق فاكهة بقشرتها. تشبّثتُ به واعتصرني حتّى طقطقتْ عظامي. تبادلنا الحبّ بوتيرة هادئة تناسبه وتناسبني. كنت خجلى من هزالي ونضوبي، لكنّ نظراته توّجَتْني عشتار زماني. تمتّعتُ ونفثتُ تأوّهاتي ترجيعًا لإيقاع لهاثه. ضحكنا من بهجة الرضا. تبادلنا قبلات كثيرة ولم نتكلّم، اكتفيت بعينيه تواجهانني على الوسادة. تأملت حاجبيه المبعثرين ومددت أصابعي لأمشّط الخصلات الباقية من شعره. تعب ونام لبعض ساعة وأنا أحرسه. ثمّ صحا وتعانقنا وتكرّرت المعجزة. كيف أصف لك، يا وديان، قيامتي؟ شققتُ كفني وبُعثتُ. نهار وليلة ونهار آخر. تلك كانت حصّتي منه. انتهى العيد ومضيت لوداعه في محطة قطار الشمال. راح إلى لندن لرؤية إحدى شقيقاته. جلست في التاكسي ووجهي في صدره. وصلنا وبقينا على تلك الحال. رفعت عينيّ ورأيت السائق يبتسم. كان مستعجلًا يتأفّف من الزحام فصار وديعًا. حتّى الوحوش تصبح وديعة حين ترى العاشِقين. لوّحت للقطار وهو يبتعد حتّى غاب عن ناظري. تذكّرت تلويحتي له والباخرة تبتعد بي عن ميناء كراتشي. العمر، يا صغيرتي، محض



تلويحات. سافر منصور، لكنّه سيعود إليّ حالما يرتّب أموره مع بناته هناك، في فنزويلا. وعدني بألّا يغيب. لن يغيب. سيأتي ونذهب معًا إلى بغداد. قال إنه سيعود. أموت لو لم يعدْ".

٤٠

لم تمت العاشقة، ولا منصور البادي عاد ثالثة إلى باريس. ظلّ السؤال يشغل وديان. هل وعدها حقًّا، أم أنّها أوهمتْ نفسها؟ خرمتْ أذنيها قبل أن ترى القرطين. تغنّي لها مطلع الأغنية الشعبيّة فتبتسم تاجي بشجن. لا يبدو أنّها تفهم اللمزة. البنت تهذر وهي لن تلتفت لها. هرمتْ وما عادت قادرة على النقار مع أحد. سافر وأخذ معه سرّ شبابها. قفزت صحتّها من القمّة إلى السفح. مرّت بفترات صعبة كانت فيها عليلة بكلّ عِلل الدنيا. حالما تخرج من المستشفى تعود إليه. وحتّى صديقتها الصغيرة وديان ما عادت صغيرة ولا شابّة. ظلّت تحمل بقايا غلّ في صدرها. تزفر غيرتها بعيدًا، وتطلب غفران السماء. تعرف أنّها لن تتخلّى عن العجوز، أمّها في الغربة. والدتها التي لم تلدها. لم تكن جاحدة ولا انضمّت إلى قائمة النابذين، لكنّ الغيرة شعور فطريّ لا يد لها فيه. يكفي تلك المرأة ما واجهت من رجم. تلقّتْ أحجارًا بعدد سنوات عمرها.

صار مستشفى "فال دو غراس" أليفًا لوديان. تتوجّه إليه مرتدية تنانير فضفاضة أو سراويل عريضة. كأنّها ذاهبة إلى نزهة.



الممرّضات يتمازحن معها، وطبيب الجيرياتريك يُقبّل كفّها عند السلام. لم تسمع بهذا التخصّص من قبل. سألته وفهمت أنّه يعالج أمراض الشيخوخة. يخبرها أنّ هناك تخصصًا آخر هو الباليايتيف، أي طبيب الاحتضار. تتعوّذ بالله فلا يفقه العوذلة.

ـ هل يمكن أن أعرف ماذا قلتِ بِلُغَتِكُم؟

ـ طلبت من ربي أنّ يبعدني عنكم.

ـ ما زلت في زهرة الشباب. لن تحتاجي إليّ!

ـ دكتور، الشيخوخة ليست في أعوام العمر.

تتلبّس حكمة لا تناسبها. يضحك الطبيب ويضع ذراعه حول كتفها. يضمّها إليه ضمّة سريعة. غزالة تحت إبط فيل. يتناول كفّها ويعيد تقبيلها. هذا ليس تحرّشًا. يسمونه الغالانتري. لياقة الفرنسيّين إزاء النساء. تستهويهم الشرقيّات. الغَنِجات منهنّ. سمعت جارتها كريستين تشكو من ضعف زوجها أمام المغربيات. قالت إنه الفانتازم دي فاتما. تَشَهّي الفاطمات. صبيّات المستعمرات السابقة، ذوات البشرة المحمّصة وعيون المها. ليس في الأمر ما يثير الاستهجان. لا بأس بقطف شيء من الغالانتري بين آونة وأخرى. من لا تملك وليمة الحب تشبع بكلمة ونظرتين.

عند مفرق الغوبلان، تنزل وديان من الباص الرقم ٢٧. تمشي في بولفار أراغو المظلّل بأغصان الدّلب. حين رأت الاسم، لأوّل مرّة، تصوّرت أنّه صاحب عيون إلزا. قرأت ديوانه مترجمًا في بغداد. يبتلع الفرنسيّون الحروف الأخيرة للكلمات، لكن تاجي صحّحت لها.



ـ ذاك أراغون الشاعر وهذا أراغو.

ـ ماذا كان يعمل؟

ـ عالم فَلَك.

فلك؟ صدقة للّه. كلّ شيء هنا يتآمر عليها لكي يسحبها إلى هناك. تتذكّر الأغنية وتضحك لأسفلت الرصيف: "عيني جميل إش بَدَّلَك ... داير عكس دور الفَلَك ...". نفضت عنها خيوط العنكبوت، وصارت تعيش على النغم الذي يناسبها. تصل إلى البّوابة الحديديّة للمبنى الكبير الأبيض. تحبّ المرور بالحدائق البالغة التنسيق. تلقي البونجور على المجنّد الواقف في الحراسة. يردّ على تحيتها برفع الكفّ إلى القبعة. لم تعد تاجي تترك اسم زائرتها لدى الاستعلامات. اعتاد مناوبو المستشفى على موعد وديان. مبنى محروس مثل ثكنة عسكريّة. ثمانية مصاعد متقابلة، إلى اليمين وإلى اليسار. كابينات تعلو وتهبط في حركة مكّوكيّة. تنبئ إشارة موسيقيّة بقرب انفتاح كلّ باب. عيناها تقومان مقام أذنيها. تدلّانها على المصعد الحاضر. تدلف إليه كأنّها في بيتها وتكبس على الزر. تسير في الممّر إلى غرفة مدام شامبيون على رؤوس أصابعها. خفيفة مثل باليرينا. الضجيج ممنوع، والهمس لغة الزوّار. تجد باب العجوز مواربًا، كالعادة. لا يمكن حبس العاصفة.

تفرح تاجي حين تصل زائرتها في الموعد. أو تستقبلها بنظرة عتب إذا تأخّرت. ليس لها غيرها في أيّامها الموصولة بالملل. وليس لوديان غير تاجي وأحباب الخيال. مرّت عليها السنوات في باريس وهي تنفر من الآخرين. حجّتها أنّها لا تلتقط الكلام.



تجاهلت الجيران ولم تُقم علاقات معهم. تصادفهم في المصعد وتهزّ رأسها بالتحيّة الواجبة. الصمم رديف العزلة. اعتادت أن تنزع سمّاعتيها حين لا يكون هناك ما تودّ سماعه. تأخذ بريدها وتسلّم، إيماءً، على بوابة العمارة. كدسة من الورق الملوّن. فواتير وإعلانات ولا رسائل. تحدّث نفسها بأنّ ساعي البريد مهنة في طريقها للانقراض. مثل الرفّاء والحفّافة وخيّاط الفرفوري. الفرفوري صار بايريكس والملابس الجاهزة قضت على الرفائين، والحفّافات يعملن خبيرات تجميل في صالونات الكوافير. تبتسم لبائع الخبز وهي تشير للرغيف وتدفع الثمن. يبادلها لغة الابتسام. وحتّى الأطبّاء ما عادت تراجعهم في الفحوص الدورية المقرّرة من الضمان الصحيّ. ترعرعت في حرب إيران وعاشت حرب الكويت، ونصف أعوام الحصار، ولم تجنّ ولم تمُتْ. لا خوف عليها، بعد ذاك، من صداع أو مغصة دلال. معدة عراقية تطحن الصخر. ليس لها ملفّ طبيّ دائم إلّا لدى خبير السمّاعات. تذهب إليه عند عطب إحداهما، فيتدبّر المشكلة. يستغرب من أنّها لم تغيّر سماعتيها منذ عشرة أعوام وأكثر.

ـ هناك أنواع أصغر وأكثر فعاليّة.

ـ التي عندي تفي بالغرض.

ـ لو كان الكلّ مثلك لأفلسنا.

صارت فرنسيّة، ولم تعرف شعور الاستقرار. ظلّت مُقيمة موقّتة. حقيبتها تحت السرير. الحقيبة الخضراء نفسها التي جاءت معها من بغداد. لها رائحة سوق الثلاثاء. تسحبها وتتفرّج عليها مثل تلفزيون يعرض فيلمها الخاصّ. تمسح عنها الغبار حتّى بعدما قطعت الأمل



في العودة لكنّها عادت، لأسبوع فحسب يوم مرضت والدتها وغابت عن الدنيا. تفرّق الأشقّاء والأهل كالطلق الطشّاري. مضى بعضهم إلى القارات البعيدة. لم يعد بينهم من يسأل عنها. إلّا في الوفيات والأعياد. إيميلان في العام، واحد في عيد الفطر، والثاني في الأضحى. ليس لها سوى تاجي. صديقة واحدة تكفيها في دنياها.

شهقت وديان، في إحدى الزيارات، وهي ترى العجوز وقد صبغت شفتيها وخديها بالأحمر، وخطّطت عينيها بالكحل. كانت سعيدة تحتفل بوفاة الرئيس شافيز. سمعت الخبر في الراديو، ولم تصدّق إلا بعدما تأكّدت من التلفزيون. رأت تقارير مصوّرة عنه. عالجوه في كوبا، لكنّ الداء نهش جسمه. قيل إنّ الأميركان سمّموه. عيل صبرهم مع كاسترو ولا تناسبهم نسخة ثانية في فنزويلا.

ـ ترحّمي عليه، يا أمّي. الرحمة مُستحقّة للأموات.

ـ أترحّم على ضرّتي؟

مات شافيز وارتاحت تاجي من الرجل الذي كان يقاسمها قلب حبيبها. تصوّرت أنّ منصور ظلّ في تلك القارّة البعيدة لأنّه متعلّق به. لم يترك كلّ شيء ويأتي ليعيش معها. كتب لها مرّة أخيرة، بعد النافورة، ثمّ انقطع. لم يعد لها من تُكاتبه. ابنتها في تونون، وابنها مشغول، وأحفادها يعيشون حياتهم. حفيدتها الكبرى صارت أمّا. جاءت ابنتها من تونون لزيارتها في المستشفى. معها الحفيدة وطفلتها. تفرّجت وديان على أربعة أجيال من نساء العائلة. ظنّت أنّ الشوق جاء بهنّ ثمّ فهمت أنّه الفيسبوك. أخذت الحفيدة صورة أرسلتها لكلّ أصدقائها. وتاجي لا تعرف الفيسبوك. تسأل عنه وديان وتكتشف الأعاجيب. يكفيها الراديو



الصغير قربها. يأتيها بالربيع العربي وأخبار العالم. تكره الثورات، لكن ما يجري في تونس ومصر وليبيا يثيرها. وبغداد حرقة قلبها. تنهض، فجأة، عن الوسائد التي رتّبتها الممرضة تحت رأسها:

ـ وديان، متى ينتهي الخبال هناك؟

ـ عراقك انتهى يا تاجي. جنون هذي الأيام لا يخصّك.

تزورها كلّ يوم وترى جسمها يصغر مرّة عن مرّة. تنكمش بالغسيل. يلفّها ثوب المستشفى مرّتين ويكبر عليها السرير العالي. تشغل عظامها نصفه. تتكوّم في الباقي جرائد الصباح وملفّات عتيقة. لم تعد قادرة على مفارقة ماضيها. تتنفّس مدام مارتين شامبيون برئتي تاج الملوك عبد المجيد خان إيمانلو. حملت رسائلها وصورها معها إلى المستشفى، مثل حقيبة المرأة الحامل المجهّزة للمخاض. بقجة لساعة الغياب. كلّ شيء فيها تكرمش إلّا عنادها. حاضرة للنضال ولو من سرير الاحتضار.

تغمز بعينها وتوحي لوديان بأنّها تسلّمت رسالة جديدة من كاراكاس.

ـ هل تعرفين أنّ صورة الراحل شافيز ما زالت على الطوابع.

ـ أيّ طوابع؟ منصور لم يعد يكتب لك.

ـ بل كتب. وسيعود حالما يحلّ قضية زوجته.

تسايرها ولا تطالبها برؤية المكتوب. تعرف أنّ العجوز تكذب وتَدْمُل جرح كرامتها. كيف تصدّقها وهي التي دوزَنَتْ خطّة اللقاء بالدقّة التي تضبط بها أوتار كمانها؟ مثل إرهابيّ محترف، صنعت وديان حزامًا مُفخّخًا بما يكفي لبعثرة قلبي تاجي ومنصور.



٤١

غادرت تاجي المستشفى. لم يعد للأطبّاء ما يمكن أن يقدّموه إليها. بلغت سدرة المنتهى. جلد على عظم مع حنجرة مدرّعة ضد الوهن. قهرتني غراميّاتها والرجال الذين رفعوا لها قبّعاتهم إعجابًا. برانيط وسداير وطرابيش وخُوَذ وعُقُل وبيريات عسكريّة. شخصيّات ذات رنّة لم أظفر بمثلها. لا هناك ولا هنا. حتّى خيال الظلّ البنغاليّ سئمت من استحضاره. رفسته وتخلّيت عن حفلات إعداد المتعة والأرواح. لم أنل منها سوى الكآبة. العلاقة تعني واحدًا زائد واحدٍ. رجل وامرأة من لحم ودم. نقطة على السطر.

جاءت ابنتها لكي تأخذها معها إلى تونون وتسهر على احتياجاتها. تناور وترفض الذهاب إلى هناك. أتحايل عليها:

ـ البلدة جميلةٌ وهادئة ...

ـ نعم، هدوء المقابر.

ـ هواؤها نقيّ وعذب...

ـ لن تدفنوني قبل الأوان.

في شرايينها ثمالات أحلام ومشاريع لم تكتمل. جاءني صوتها، ذات صباح، يتدفّق في السمّاعة مثل مياه سدّ مُتصدّع. للعجوز قدرة مذهلة على التلاعب بنبراتها. حنجرة مطواع. إمّا هديل وإمّا هزّة أرضيّة.



ـ خير يا أمّي؟

ـ سأسافر إلى طهران. تعالي معي.

إيران وأنا العراقيّة الموشومة بالخوف؟ تنسى تاجي أنّني نشأت على البيانات العسكريّة وأغاني المعركة. عليهم يا النشامى ويا كاع ترابج كافوري. قالت إنّها ذاهبة لتقرأ القرآن على قبر والدتها. لم يبقَ في العمر ما يسوى. وهي تريدني معها، ضيفة ورفيقة سفر. كنت مستعدّة أن ألحق بها إلى جهنّم الحمراء إلّا هذا الذي تطلبه مني، لكنّها لم تُلحّ عليّ كثيرًا. أخذت حفيدها، ابن ابنتها، وغابت لأسبوعين. لم أفهم كيف يمكن للهيكل العظميّ أن يركب الطائرة ويسافر إلى البلد المضطرب البعيد. وفي كلّ يوم من أيّام غيابها كنت أقلق عليها وأصلّي لها وأتّصل بابنتها. وفي كلّ مرّة تردّ الابنة بأنّ تاج الملوك بخير. ذهبت، لكنّها عادت وكأنّ على رأسها الطير. واجمة ساخطة ترفض أن تحكي عما رأت وفعلتْ. ولم ألحّ عليها. ستحكي، من تلقاء نفسها، عندما يحين الوقت. فهمتُ وجومها. أوطاننا أجمل في الصور القديمة.

بعد تلك الرحلة بدأت ذاكرتها تتثقّب. تنطفئ وتضيء مثل لافتات النيون. تطلع لي بقصّة جدْيدة في كلّ لقاء، أو تعيد حكاياتها القديمة. غير أنّها ما عادت تتحدّث عن رسائل تصلها من كاراكاس، ولا عن هواتف ترنّ في أنصاف الليالي. نسيتْ اسمه، ولهانها الصغير الذي عاشت عمرها على ذكراه. حتّى اسمي صار يسقط، مرّات، من غربال ذاكرتها. تنظر إليّ، حين أدلف من الباب، وعيناها تستفسران عمّن أكون. تركتْ عادتها القديمة وما عادت تحمل همّي وتقلّب دفتر التلفون لتعثر لي على



زوج. لعلّها آمنت بأنّني كبرت كثيرًا منذ لقائنا الأول. عشرون عامًا أخذتني من أوّل ثلاثينيّاتي وألقت بي "على جسر اليمرّون". أغنّي لها مع حضيري فلا تتلقّف الأغنية، كعادتها، من أوّل نغمة. لم تعد تهزّ رأسها طربًا وتسبق الفراشات إلى مروج الربيع.

يحدث أن تمرّ بفترات من اليقظة التامة. تنهض على مهلها، تدير التلفزيون، أو تدخل المطبخ لتعدّ حلواها الأثيرة. فطيرة التفّاح بالقرفة المذابة في ماء الزهر. عندها أتأكّد أنّ اليأس والخَرَف والاستسلام مفردات غير واردة في قاموسها. تعترف لي بأنّها من مواليد سنة إحدى وعشرين، أو ثلاث وعشرين، لم تعد تذكر. تتعمّد الرسوب في الحساب وتحتفل، أحيانًا، بعيد ميلادها السبعين. تطلب مني أنّ أشتريَ لها شموعًا. تركت الشموع دموعها الملوّنة على كلّ المناضد والرفوف في بيتها.

ثمّ صار بقاؤها وحيدة في شقّتها خطرًا عليها. تتعثّر وتسقط وتترضرض. إنصاعت لأمر ابنتها وذهبت إلى تونون. فردوس أرضيّ على حدود سويسرا، أقصى شرق البلاد. تقف في الشرفة وترى بحيرة ليمان أمامها. شجر الحور والمراكب الشراعيّة ونوارس الماء. زرتها مرّتين وتمتّعت بالمنظر من شرفتها. حتّى الكديش يمكنه أن يكتب الشعر هناك. توسّلت بي أن أبقى دائمًا معها. حاولتُ ولم أحتمل العيش في ريف عصريّ ساكن. أنا بنت مدينة. يكفيني الهدوء الذي تفرضه عليّ أذناي.

رغم عزلتها، ظلّت عين مدام شامبيون على الهاتف. جاء لها حفيدها بواحد حديث تدسّه تحت وسادتها مثل بنات المدارس.



تأمل أن يرتجف أو يرنّ وتأتيها دعوات لملتقيات دينية، اتّصلوا بها، ذات يوم، من راديو مونت كارلو، يطلبون تعليقًا على اغتيال صحافيّة عراقية شابّة في سامراء. لم تعرف من القاتل ومن القتيلة. صمتت برهة ثمّ رفعت صوتها بسورة ياسين. لا أحد يفهم من أين يطلع ذلك الصوت. أراها تتناول وشاحها وتغطّي شعرها فاعرف أنّها تستجمع أنفاسها للتلاوة. ترفع كفّها إلى جانب وجهها وتغمض عينيها. تخشع وتتهدّج وتعتصر الآيات اعتصارًا. أمدّ يدي إليها، خشية أن تُسلم الروح مع كلّ مَدّة. تميل برأسها يمنة ويسرة تقلّد قدامى المُقرئين. تستلّ السوَر من قعر حشاها وتنهي القفلات رافعة عينيها نحو السقف، مشدوهة بالمعاني.

طلبت مني، ذات مساء غائم، أن أخرج بها إلى الشرفة. أرادت أن ترى أضواء لوزان، على الضفّة المقابلة. قلت لها إن الجوّ غير مناسب والريح باردة. تناولت عكّازها ومشت نحو الباب الزجاجيّ. لحقت بها وبيدي وشاحها أدثّرها به. استندت إلى السياج الألمنيوم وبدأت تُوَنْوِن. ثمّ تحوّلت الونونة إلى كلام. تحادث نفسها أو تحادثني من وراء ظهر العتمة:

ـ بشقّ النفس عثرت على أمّي في مقبرة بهشت زهرا. رأيت عشرات الشواهد القديمة المندثرة والجديدة الخارجة للتوّ من أيدي البنّائين. مررتُ بقسم فسيح مخصّص للشباب الذين ماتوا في الحرب مع العراق. قبور كثيرة وشهداء على جانبي الحدود. يا ويلي على أمّهاتهم. إنقبض قلبي وظننت أنّني لن أخرج سالمة من هناك. سيحفرون حفرتي في تربة طهران، حيث ولدتُ. كان حفيدي يبكي بصمت ويمسح دموعه. شددتُ ذراعه وتمازحت



معه لكي يهدأ. طلبت أن يجد لي قبرًا شاغرًا ذهب صاحبه للسينما. هاله شحوبي ففتح قنينة الماء ورشّها على وجهي. كان الدليل الذي معنا يعرف الدروب ويسترشد بأوراق كالخرائط. قادنا إلى زينة السادات. بقايا اسمها محفورة على حجر الشاهدة. جئتُ إلى أمّي ولم تحضر دموعي. أخذ الدليل أجرته وترحّم عليها وانصرف. وقفت طويلًا أتملّى المكان الذي تنتهي إليه الأجساد حين تغادر دنياها. قرأت الفاتحة ثمّ سورة مريم. تلك التي أتقنتها خصّيصًا لها. تعبتُ وتهاويتُ على قبرها الترابيّ المُسوّى. بخختُ عليه الماء ونثرت زهر الليمون. رأيتها تفتح لي صدرها فعرفت أنّها صفحت عنّي. وغفران الوالدة من غفران السماء. عندها تدفّق الينبوع واغتسلت بدموعي. جفّ لساني وبلّلته بها. كنتُ راضية مرْضيّة كأنّني بين يديْ الذي خلقني. ثمّ امتدّت يدا حفيديّ ورفعتاني. عاد بي من حيث أتينا.

٤٢

"آنستي العزيزة البالغة اللطف وديان.

أكتب لك بعد طول صمت، راجيًا المعذرة. كنت قد وعدتك بأن نلتقي بعد موعدي عند النافورة، مع تاج الملوك خانم، لكنّني أخلفت وعدي وغادرت باريس على عجل. بقيت مدينًا لك بِلُغْز لا أملك له تفسيرًا. لا أدري ما قالته لك الخانم حول لقائنا المفترض. لقد قاطعتني ولم تردّ على رسالة طويلة بعثتها



لها من كاراكاس. الحقيقة أنّني لا أعرف ما حدث. هل مرضت عزيزة قلبي ولم تتمكّن من موافاتي إلى الموعد، أم أنّها رأت رجلًا أشيب لا يشبه ما في خيالها، عجوزًا لا يصلح للحبّ، فقطعت أغنيتها وحملت نفسها وانصرفت؟

كم كانت النافورة رائعة في ذلك النهار الرائق! لا أشكّ أنّك بذلت جهدك لاختيار أجمل مكان لأجمل لقاء. نسمات خفاف تحرّك سطح الماء، فتتمايل الحوريّات الملوّنات ويرقصن تحت الشعاع الأخير لشمس غاربة. أصختُ السمع، وأنا أدور بين حلقات المتنزّهين والشباب اللّاهين، لكنّ "نبعة الريحان" تاهت ولم تصلني. دسست سمّاعتيَّ عميقًا في أذنيّ وبحثتُ عن مغنّيتي. لم تقع عيناي على جدائل تخيّلتها بيضاء. حتّى رائحتها التي ظننتها تسكن بالي، لم تسعفني. كان ضجيج السياح يملأ المكان، وعربدات بعض السكارى تغطّي على ما عداها. مررتُ بفرقة عازفين على الهارمونيكا من بيرو، وطبّالين أفارقة، ومبشّرين يتماسكون بالأيدي ويؤدّون نشيدًا. درت عدة مرات أتوسّل صوتها المفتقد، لعلّه ضاع منّي وراء رشّاش النافورة. بلغ الرذاذ وجهي وبلل قميصي. داهمتني قشعريرة وكدت أفقد توازني. إنسحبت بصعوبة وعدت إلى فندقي. تعرّقت تحت الغطاء محمومًا وحيدًا وباريس تلهو تحت نافذتي وفي الصباح التالي غادرتها. تهشّم أملي في اختلاس سعادة قبل الغياب الأخير: غيابينا، أنا وتاجي خانم. أموت بين ذراعيها أو تنطفئ في حضني. عسانا نقتصّ ممّا فات.

أظنّ أنّ الأمر صار جليًّا لك، أيّتها الإنسانة الحنون التي قرّبتنا بعد ضياع. موعد لم يُكتب له أن يكتمل، إنّما الأعمال بالنيّات.



لن أوصيك بتاج الملوك. ولتعرفْ أنّني كنت صادقًا في اجتماع شملنا لكنّ الرياح جرت بغير ما نشتهي. باركتها السماء، وباركتك يا وديان العزيزة".

وضع القلم وفتح مجرّ المكتب وأخرج سيكارًا فاخرًا يحتفظ به من أيام شافيز. لم يدخّن من سنوات. مسح عينيه وأعاد قراءة الرسالة. تأكّد من أنّه أتقن الخدعة. لم يكن الكذب من عادته، لكنّ عمارة عمره انهارت على رأسه لمّا رآها جالسة عند حافة النافورة. لم يكن محتاجًا لنبعة الريحان. عرفها من بعيد. عجوزٌ متصابية متغضّنة عجفاء وحيدة بين الشباب والسائحين. وجد يده تمتدّ إلى قبّعته، تسحبها لتخفي نصف وجهه. إبتعد من المكان بخطوات سريعة وكأنّ شبحها سيلاحقه. ليست هذه تاج الملوك، الخانم التي عاشت في أوراقه نصف قرن. كيف لم يفهم قسوة الزمن!

حاول أن يشعل السيكار الذي تيبّس تبغه. يتمرّد مونتي كريستو على نار القدّاحة. لن يشفي الدخان غليل قلبه المتعب. لم يسعف محنتها في أيام الصبا، وهرب منها بعد الذبول. خذلها مرتين، لكنّ الرسالة ستحفظ لها ماء وجهها. ستقرأها لها وجدان وقد تسعد قلبها وذاك أضعف الإيمان.

تدهورتُ الأمور في فنزويلا منذ أن غاب شافيز. لم يصدّق منصور البادي أنّ الزعيم القويّ المحبوب يمكن أن يمرض ويتورّم ويموت مثل أيّ بائع خردوات. رأى الحكومة تتحوّل، بالتدريج، إلى جهاز بيروقراطيّ يدّعي الحكم وفق مبادئ القائد الذي ما عاد موجودًا. أحوال البلد مثل بول البعير. يتقهقر إلى الوراء. تقوقع البروفيسور في بيته. حاله حال النخبة المثقّفة التي تراجعت أمام



قوى تحكم باسم الشعب. ومن عمق عزلته، كان البروفيسور المتقاعد يلتقي شافيز ويستمع إليه عبر "يوتيوب". ظلّ معجبًا به، يحفظ له وقفته الشجاعة إلى جانب الحقّ الفلسطينيّ، حقّ شعبه. يراه يخطب على شاشة الكومبيوتر بصوته المُميز، مرتديًا قمصانًا حمرًا وصفرًا، مستشهدًا دومًا بقصيدة شهيرة تتردّد أصداؤها فوق السهول اللّامتناهية لفنزويلا: "بوليفار مرّ من هنا".

٤٣

"باركتها السماء وباركتك يا وديان". لا سماء ستقبل أن تباركني. لم أولد شرّيرة، لكنّني أصبحت كذلك. ليست هذه من بنات أفكاري. قرأتها في مقرّرات علم الاجتماع. أبحثُ عن السبب لأفهم من أين جاء ميلي المتأخّر إلى الأذيّة. لو كان ما مررتُ به من عنف هو السبب، لكانت هناك سرايا من المظلومين والمغبونين الأشرار، يوقعون بين البشر. إنّه سواد قلبي الذي غشى بصيرتي. زيّن لي الاقتصاص من الحبّ وتفريق المحبّين. إذا متّ ظمآنة فلا تبلّلت شفة برضاب.

بقيت مُمسكة برسالة منصور البادي. أعتصرها عسى أن تختنق الكلمات ويغيب دليل جريمتي. لست "الآنسة البالغة اللطف والإنسانة الحنون". أنا عازفة محبطة. ليس لي من عبقريّ الكمان باغانيني سوى أنّه عقد حلفًا مع الشيطان. باع له نفسه لكي يبلغ أعلى درجات الإبداع. بحثتُ عن عاشق تاجي وجئت لها به



من وراء الغيب. ردمت فجوة الزمن. لعبتُ على حمّى الأشواق. لكنّ غلًّا سكن صدري وأنا أرى عاطفة لم تنهزم أمام مطبّات الحياة. ليس هناك حبّ يدوم إلى الأبد. عجوزان لا يخجلان من قلّة العقل. اهترأ منهما الجسد وما زالا يؤدّيان أدوار الفتى الأوّل والبطلة المحبوبة. وجدت نفسي، رغمًا عني، حاضرة في صلب القصة. راقني أن أكون ثالثتهما. غمستُ ريشتي في دواة غيرتي وكتبتُ مشهد الختام. ستغنّي الحيزبون بصوتها المتهالك لكي يسمعها الدردبيس ويهرع إليها. الدردبيس والحيزبون، كما أبطال الأوبّريت الإيطاليّة. وسيدور العاشق حول النافورة مثل ثور الناعور. سُدى في سُدى. لا أذن تسمع ولا ماء يجري في سواقي القلوب.

إنطلت حيلتي على السفير مستشار الرئيس. سار في درب الطَرَش الذي ليس مثلي من يقتفيه. أقصّ أثر كلّ من تصدّعت أذناه وفُقِئت عيون قلبه. أمّا العاشقة بنت التسعين مُدللة الوصيّ، فقد تصوّرت أنّها ستخدعني. سأصدّق أنّها ذهبت إلى النافورة والتقت فارسها الهمام، وأسبلت جفنيها اللذين يُعلّمان الغَزَل. قالت إنّها تبعته إلى فندقه ورقدت بجواره وتساقيا الغرام مرّة ومرّتين. سأضحك حتّى أستلقي على قفاي. لم أعد صغيرتها التي أهدرت شبابها تستمع إلى حكايات ماضيها المخضّب بدماء عشّاقها. أصغي وأنجرح وأعود لأنام في سرير بارد مفروش برجال من خيال ووهم.

أذهب لزيارتها وأقيم عندها شهرًا وشهرين. تحوّلت غرفة نومها في تونون إلى متحف لماضيها. فرشتُ حولها أعداد "الرحاب" والمقالات القديمة. ألصقت افتتاحياتها بالصمغ على الجدران، وصور



ولديها والأحفاد الذين كبروا وصاروا آباء. يتكلّمون الفرنسيّة ويتأتئون بكلمات عربيّة وفارسيّة. يعجزون عن قراءة أمجاد الجدّة مارتين. أمّا الجدّ الكومندان شامبيون، فقد ترك كتابين عن العمليات التي نفّذها. منذ أن مات لم تعد تاجي تمسك لسانها. تحكي عن فتوحاتها في بلاد العرب والعجم فتضجر ابنتها وتنصرف.

ظللتُ أناديها "أُمّي". أطمئنّ على نفسي تحت جناحها وأطلب، صامتة، غفرانها. لعلّني أسديت لها خدمة يوم أفسدت لقاء النافورة. فليبقَ الحلم الجميل حلمًا. أشتري راحة ضميري بالاهتمام بتركة الصحافيّة تاج الملوك عبد المجيد. وعدتها بألّا أفرّط في الكنز الراقد تحت السرير. خلاصة عمرها. أوصت لي بكلّ إرثها الورقيّ. رسائلها. أعداد مجلّتها. ومسوّدات مقالاتها. كرتونات أحذية محشوّة بالصور والملّفات. غير ذلك فإنها كانت ستباع وقودًا للمدافئ. تُلقى في حاويات الموادّ المُعاد تدويرها وتتحوّل إلى خامات نظيفة. تفقد بصمات الملك عبد الله ونوري باشا وعبد الإله ومطبعة الزمان وزينة السادات وغضنفر سليل المهراجات وفرهاد سليل الشاهات ومسيو شامبيون وبن بلّة وبورقيبة. أووه ما أطول قافلتها!

مات منهم، ميتة ربّه، من مات، وذهب اغتيالًا من ذهب، أو سحلًا ونسيانًا. صاروا أكياسًا تحترم البيئة بعدما تنسّموا الغار في جدائل تاج الملوك.

ـ ماذا تأكلين يا أُمّي؟

ـ ما قَسَم الله.

طال عمرها حتّى لحظة كتابة هذه السطور. لا تزال مدام



شامبيون تنام فوق صناديقها، تتنفّس نُسيمات بحيرة ليمان. ينصحني الراوي العليم، هذا الذي يزعم أنّه يقرأ الأفكار، أن أشطب العبارات الهَرِمة من نوع "حتّى لحظة كتابة هذه السطور" أو "والجريدة ماثلة للطبع...". لم يعد أحد يستخدمها في قاعات تحرير الصحف. إنّ لحظة الكتابة، في زمن الشاشات، هي لحظة النشر، لكنّني لن أشطبها. تبدو لي منسجمة مع جيل تاج الملوك وصحافة الأربعينيّات.

وما زال السينيور منصور البادي غارقًا، حتّى لحظة كتابة هذه السطور، في اضطرابات فنزويلا، مهمومًا بفوضاها بعد شافيز. يتأمّل كرّاساته المتراكمة على أمل أن يكتب مذكّراته، ذات يوم.

أمّا أنا، فقد غادرت أرض التخيّلات. ودّعتُ شياطيني وتبتُ إلى ربّ أؤمن به. بدأت أتردّد على حلقات حوار الأديان، أغطّي شعري بوشاح، على خطى تاجي، وأسأل الشيوخ عن حكم سماع الموسيقى. ما زلت، حتّى لحظة كتابة هذه السطور، أُخرج كماني من صندوقه في الأماسي الرائقة، أُسند ذقني إلى مُتّكئه وأعزف لنفسي مطلع "كونشيرتو الأجراس" لباغانيني. أسمع نوتات وتفوتني نوتات. نسيت يوسف ورميت وراء ظهري بعابع الأستاذ وسيّاراته السريعة وبدلاته الغريبة وكرسيّه وحديقة حيواناته. ذهب إلى حيث يذهب كلّ الخلق.

وحتّى لحظة كتابة هذه السطور، يحاول الراوي العليم أن يدسّ أنفه بيننا، فارضًا نفسه، بشيء من التمسكُن الكذوب، بطلًا من شخوص الرواية. أراد أن ينهي حياة مدام شامبيون وفشل. مدّ كفيه ليخنقها فدفعته وتمرّدت عليه. أحبّها لأنّ



التمرّد حلية وجودها. ولا أحد يعرف مَنْ يموت قبل مَنْ. وهي قد تدفن الراوي وترسل برقية تعزية لعائلته. ما زالت تاجي، والرواية ماثلة للطبع، تتحامل على نفسها، وتُعدّ شايها بنفسها وتحلّيه بإصبعها. تشبع بقطعة خبز وجبن أبيض. تمضغ وريقات من نعناعها المزروع على حافة شبّاكها، وتفرح حين أناديها باسمها الأوّل: تاج الملوك والمُغرمين والعربنجيّة. تعود إلى رقادها، والقطّ عند قدميها، تغمض عينيها ويتوقّف صدرها عن الارتفاع والهبوط. أجزع وأهرع إليها.

ـ تاجي!

ـ اسم الله شصار، ليش تصيحين؟

تفتح عينيها كأنّها ترى الدنيا للتوّ. تمدّ رقبتها وتلقي نظرة على التلفزيون. الكُفر العراقيّ على كلّ الفضائيّات. ترتجل بصوتها الأعجوبة موّالًا يبدأ خافتًا ثمّ يصعد:

ـ أوف يابا يابا يا يابا...

الضيم بديار الرَبغ ونسة...

والموت ببلاد الغُرُب وكسة... يا يابا...

أخرج إلى الشرفة وأغلق الباب الزجاجيّ ورائي. ينقطع صوتها عنّي. أتأمل نوارس البحيرة وصفوف السرو والطبيعة الموجعة من فرط بذخها. مشهد بانوراميّ بديع تنقصه نخلة.

كم يخسر الجمال لو اكتمل!

باريس تموز ٢٠١٧





الامتنان واجب لكلّ من:

مــامــي أغــات غــيّــوم،

ســنــيــور كــالــدونــي،

ومــدام نــون لــوغــران،

لما قدّموه لي من وثائق وما أولوني إيّاه من ثقة.

وبالغ الشكر للصديق علاء الدين جوخه جي لقراءته المسوّدة وتصميمه الغلاف.



ثلاث شخصيّات، امرأتان ورجل، لكل منها صوتها وقصّتها الخاصّة، تلتقي في رواية يجتمع فيها الحبّ مع الموسيقى، والشّعر مع الجاسوسيّة. تاج الملوك عبد المجيد، الصّحافيّة المتحرّرة صاحبة مجلّة الرّحاب التي رعاها نوري السّعيد في أربعينيّات بغداد. منصور البادي، زميلها الفلسطينيّ في إذاعة كراتشي الذي هاجر إلى فنزويلا وأضحى مستشارًا لرئيسها هوغو شافيز. ووديان الملّاح، عازفة الكمان في الأوركسترا السمفونيّة العراقيّة التي يُثْقِلُ أُذنَيها صَمَمٌ عوقبت به لأنها تمرّدت على نزوات «الأستاذ».

سالفةٌ إثر سالفةٍ، تغزل النبيذة خيوطَ الوقائع بمغزل الخيال، حين تحرف مصائر البشر عن مساراتها الطبيعيّة، عابرة ثمانين عامًا من تاريخ بلد مُعَذَّبٍ ومُعَذِّب.

«ذات صباح غائم من أوائل تسع وأربعين، ومن راديو كراتشي النّاطق بالعربيّة، أذاعت تاجي عبد المجيد خبَرَ إعدام الشّيوعيّ العراقيّ سلمان يوسف، المعروف بفهد. صوتُها عميق مُحايدٌ غريب على أذنيها. خلعت عن حنجرتها رنينها الطّبيعيّ وقرأت الخبر بدون روح، بنبرة خشنة مثل حبل مشنقة. نفرت دمعتها بعد انطفاء الميكروفون. مسحتها قبل أن تخرج من الاستوديو. التّأثّر شُبهة وشُبهاتها تكفيها. مضت إلى المغسلة وصوبنتْ كفّيها عدّة مرّات من دماء لا تُرى بالعين المجرّدة.»

إنعام كجه جي

صحافيّة وروائيّة عراقيّة مقيمة في باريس اختيرت روايتاها الثّانية والثّالثة **الحفيدة الأميركيّة** و**طشّاري** على القوائم القصيرة لجائزة الرّواية العربيّة (البوكر). لها أيضاً **لورنا** (١٩٩٨) و**سواقي القلوب** (٢٠٠٥) وأنطولوجيا عن الأدب النّسويّ العراقيّ باللغة الفرنسيّة (٢٠٠٣).





ISBN 978-9953-11-135-3
9 789953 111353